الأبـله
الجزء الأول

الدار الذهبية

١٥ شارع الجمهورية – عابدين - القاهرة

ت/ ٢٧٩٥١٧٤٨-٢٣٩٣٣٣٨٢

Email: aldaralzahabia50@yahoo.com

الدار الذهبية للطبع والنشر والتوزيع

رقم الإيداع: 2020/3343

الترقيم الدولي: 978- 977- 736- 257 - 3

الأبله

فيودور دوستويفسكي

الجزء الأول

ترجمة

اسامة عبد الرحمن

الدار الذهبية

الفصل الأول

في صباح من أصباح نهاية شهر نوفمبر، في نحو الساعة التاسعة، أثناء ذوبان فرع الجليد، كان قطار وارسو يقترب من بطرسبرج مسرعا والرطوبة والضباب يبلغان من الكثافة أن أشعة الشمس لا تكاد تنفذ إلى الأرض؛ فيصعب على راكب القطار، اذا هو نظر من النافذة يمنة أو يسرة، أن يميز أي شيء على مسافة عشر خطوات أن بعض الركاب عائدون من الخارج؛ غير أن حجرات الدرجة الثالثة، وهي أحفل الحجرات بالركاب، كانت ممتلئة بأناس من متوسطى الحال، يسافرون لضاء أعمال، وليسوا قادمين من بعيد وكان الجميع مكدودين متعبين مرهقين طبعا، قد أثقل النعاس أجفانهم، واصطبغت وجوههم بصفرة كصفرة الضباب وفي احدى حجرات الدرجة الثالثة راكبين جلس أحدهما أمام الآخر قرب النافذة منذ الصباح كلاهما شاب؛ وكلاهما يلفت وجهه الانتباه؛ وكلاهما لا يكاد يكون معه متاع؛ وكلاهما يرتدي ثيابا ليس فيها تأنق كبير أن من يراهما يحس أنهما يرغبان في التحادث ولو قد أمكنهما أن يعرفا ما في كل منهما من غرابة وتفرد، لأدهشتهما هذه المصادفة التي جمعتهما هذا الجمع العجيب في

حجرة من الدرجة الثالثة بقطار وارسو بطرسبرج ان أحدهما، وهو شاب قصير القامة، أجعد الشعر، أسوده تقريبا، يجب أن يكون في نحو السابعة والعشرين من العمر عيناه شهباوان، صغيرتان، لكنهما تفيضان اشتعالا واتقادا؛ وأنفه عريض أفطس، ووجنتاه بارز تان؛ وعلى شفتيه الرقيقتين ترتسم دائما ابتسامة غريبة، ساخرة، وقحة، تشبه أن تكون مبغضة حاقدة غير أن جبنة عالية مستوية يلطف من الشعور بالنفور الذي يحسه المرء حين يرى أسفل وجهه، الثقيل الكريه والشيء الذي يخطف البصر فيه خاصة انما هو شحوبه الذي يشبه شحوبه، وهو شحوب يضفي على هذا الرجل هيئة الارهـاق والاعياء مع أنه يبدو متين البنية، ويضفي عليه كذلك معنى المكابدة التي تبلغ حد العذاب، رغم ابتسامته المتغطرسة الفظة، ونظرته العدوانية المتكبرة وكان الرجل متدثرا بمعطف واسع أسود، مبطن بجلد خروف، فهو يشعر بدفء كامل، ولم يحس ببرد الليل ولا كذلك صاحبه الذي يجلس أمامه، فلا بد أن هذا قد ارتعش من شدة البرد وشدة الرطوبة في تلك الليلة من ليالي شهر نوفمبر الروس، وهما برد ورطوبة كان واضحا أنه لم يتهيأ لهما انه متلفف برداء سميك لا أكمام له، يعلوه غطاء للرأس، كالذي يلبسه المسافرون شتاء في بلاد غير روسيا، في سويسرا أو في شمال ايطاليا مثلا ولكن هذا الـرداء لا صلح حتما لسفر طويل طول هذه المسافة بين أيدكونن وبطرسبرج هذا الرجل الثاني الذي يرتدى هذا الرداء أيضا شاب في

نحو السادسة والعشرين أو السابعة والعشرين من العمر قامته أطول قليلا من متوسط قامات الرجال؛ خداه خاسفتان؛ شعره كثيف أشقر؛ له لحية صغيرة مدببة تكاد تكون بيضاء اللون؛ عيناه واسعتان زرقاوان لهما نظرة ثابتة في هذه النظرة شيئا من رقة وعذوبة، ولكن فيها ثقلا وتعبيرا غريبا، فاذا رآها خبير أدرك أن صاحبها رجل مريض بداء الصرع أنه في هذه اللحظة قد ازرق من شدة البرد انه يحمل بيده اليمنى صرة هزيلة للملابس، ملفوفة بمنديل عتيق حائل اللون، وكان هذا كل متاعه فيما يبدو وكان لحذاءيه نعلان سميكان، وكانت تغطى أعلى ظاهر الحذاءين لبادتان؛ وذلك كله ليس مما يستعمل في روسيا كثيرا وقد لاحظ جاره، الشاب الأسمر ذو المعطف، جميع هذه التفاصيل، تسرية عن نفسه ثم اقتحم الصمت أخيرا فبدأ يحدثه مبتسما تلك الابتسامة الوقحة نفسها التي تعبر في أكثر الأحيان عما يشعر به امرؤ غليظ القلب من تكبر فظ أمام مصائب الآخرين قال له وهو يهز منكبيه برد، هه؟ فأجاب الجار بطوية سليمة ونية صادقة ليلاحظ القاريء أن الجليد كان يذوب برد جدا، فكيف يكون البرد أثناء الجليد؟ لم أكن أتخيل أن البرد يبلغ هذا المبلغ من الشدة في بلادنا لقد فقدت عادة احتمال مثل هذا البرد لا شك أنك آت من الخارج، أليس كذلك؟ نعم، من سويسراصاح الفتى الأسمر وهي يطلق صفرة ويضحك ضحكة كبيرة: ها مسافة ودار الحديث فكان الشاب الأشقر يجيب بنية طيبة وطوية سليمة عن جميع الأسئلة التي يلقيها

عليه محدثه، دون أن يلاحظ ما في بعضها من تزيد وتندر بل ومن وقاحة فروى فيما رواه أنه قضى في الخارج أكثر من أربع سنين، فقد أرسل إلى هناك يعالج من مرض عصبى غريب، هو نوع من الصرع، أو من داء رقص سان جى، مع ارتعاشات وتشنجات وقد أثارت قصته تبسم جاره مرارا، حتى لقد أخذ جاره يضحك مقهقها حين سأله: وهل شفوك؟، فأجاب: لا، لم يشفونى وأضاف الأسمر يقول مستهزئا متهكما ايه ما أكثر المال الذي لا بد أنك أنفقته هناك سدى في غير طائل وما أجهلنا هنا اذ توليهم تلك الثقة كلها فهتف رجل كان جالسا قربهما هذه هي الحقيقة عينها ان الرجل يبدو في نحو الأربعين من عمره، ويرتدي ملابس رديئة، ويدل مظهره على أنه موظف انه قوي الجسم متين البنية، له أنف أحمر يتوسط وجها ذا بثور كرر الرجل يقول هذه هي الحقيقة بعينها وهم يجتذبون إلى بلادهم جميع أموالنا الروسية قاطعه الفتي المريض بصوت رقيق عذب فيه روح الملاينة والمصالحة لا، أنت مخطىء، فيما يتعلق بي أنا على الأقل لست أستطيع أن أناقش، لأنني لا أعرف كل ما يجري ولكني أقول، فيما يتصل بى، آن طبيبى قد دفع نفقات سفرى من آخر ما يملك من قروش، بعد أن ظل يعالجني بالمجان سنتين قال الأسمر عجيب ألم يكن هناك اذن من يستطيع أن يدفع عنك نفقات علاجك؟ لم يكن هناك أحد ان السيد باقلتشيف الذي كان يهتم بامرى قد مات منذ سنتين فكتبت عندئذ إلى الجنرال ايبانتشين، وهي سيدة تمت إلى

بقرابة بعيدة، ولكني لم أتلق أي جواب فهأنذا أرجع أخيرا والى أين تنوي أن تذهب؟ تعني أين أريد أن أنزل؟

والله لا أدري بعد لم تقرر بعد؟ وانفجر المستمعان يقهقهان وسأل الأسمر وهذه الصرة الصغيرة تضم كل ما تملكه حتما، أليس كذلك؟ فقال الموظف الأحمر الأنف مزاودة، راضية عن نفسه كل الرضى، مزهوا بها كل الزهو أراهن أن الأمر كذلك وعلى أنك ليس لك شيء آخر بين الأمتعة والحقائب على كل حال: ليس الفقر عيب وصدق هذا القول أيضا، فان الشاب الأشقر بادر يؤيده بسرعة شديدة ولهفة كبيرة وتابع الموظف كلامه بعد أن ضحك الاثنان ما شاء لهما السكر أن يضحكا الغريب في الأمر أن صاحب الصرة قد ضحك أيضا وهو ينظر اليهما، فزاد ذلك ضحكهما قوة ان لصرتك مع ذلك دلالة صحيح أن المرء يستطيع أن يراهن على أنها لا تضم لفات دنانير ذهبية، دنانير نابوليون أو فردريك أو حتى دنانير هولاندية، رغم أن المرء يكفيه أن يرى لبادتى حذاءيك المصنوعتين في الخارج حتى يدور في خلده ذلك ولكن إذا أضفنا إلى متاعك القليل احتمال أن يكون لك قريب مثل الجنرال ايبانشتين، فان صرتك يصبح لها عندئذ شأن كبير وقيمة عظيمة، هذا اذا صح أن الجنرال ايبانتشين قريبك حقا، وأنك لا تخطيء في هذا الأمر، ولو من قبيل السهر والذهول وذلك يحدث في كثير من الأحيان بسبب سعة الخيال مثلا هتف الفتى

الأشقر يقول هنا أيضا أنت على صواب انت مخطيء تقريبا فالجنرال لا يكاد تمت إلى بقربي، حتى اني لم أدهش البته حين لم تبعث إلى بجواب لقد كنت أتوقع ذلك بددت مالا لارسال رسالتك، على الأقل لا يستطيع المرء أن يأخذ عليك أنك قليل السذاجة والبراءة والصدق هذه صفات محمودة هم أما الجنرال ايبانتشين فنحن نعرفه، لأنه في الواقع رجل يعرفه الناس كافة أما المرحوم السيد بافلشتيف، الذي كان يعولك في سويسرا، فقد عرفناه أيضا، هذا اذا كان هو نيقولا أندريفتش بافلتشيف حقا، لأن الرجلين قريبان يحملان اسما واحدا فأما أحدهما فما يزال يعيش في القرم، وأما المرحوم نيقولا آندريفتش، المتوفي، فقد كان رجلا محترما له علاقات رفيعة وصلات عالية، وكان يملك في زمانه أربعة آلاف نفس نعم أجاب الشاب وهو يتفرس في السيد الذي يبدو عليه أنه يعرف كل شيء، أجاب وهو يتفرس فيه بنظرة طويلة متفحصة هو ذاك كان اسمه نيقولا أندريفتش حقا أن هؤلاء السادة والعالمين بكل شيء، يصادفون في بعض الأحيان بل قل في كثير من الأحيان بين صفوف طبقة اجتماعية معينة انهم يعرفون كل شيء، لأن فضولهم اليقظ وملكاتهم العقلية تلتقي جميعا في اتجاه واحد، لخلو بالهم طبعا من اهتمامات حيوية ومشاغل جدية أخطر شأنا، كما قد يقول مفكر معاصر على أننا حين نقول أنهم يعرفون كل شيء، يجب أن نفهم من ذلك أن ميدان علمهم محدود، وان ساحة معرفتهم ضيقة فان علمهم يكاد يقتصر على أمور

كالتالية: أين يعمل الموظف الكبير فلان، وما هي علاقاته، وما مقدار ثروته، وما هي المقاطعة التي كان حاكما فيها، ومن هي المرأة التي تزوجها، وكم كان المهر الذي ناله من زوجته، ومن هو ابن عمه، ومن هو قريبه من الدرجة الثالثة، الخ الخ، وهم يعرفون ذلك كله معرفة مناسبة وهؤلاء السادة والعالمون بكل شيء، هم في أكثر الأحيان أناس صعاليك يسيرون بأكمام مثقوبة أكواعها، ولا تتجاوز رواتبهم سبعة عشر روبلا في الشهر، والناس الذين يعرف هؤلاء كل شيء عنهم لا يستطيعون حتى أن يتخلوا الدوافع التي تحضهم على التماس هذه المعارف وجمع هذه المعلومات ولكن كثيرا من هؤلاء تغريهم معارفهم هذه اغراء كبيرة، وهم يستمدون من هذه المعارف التي تساوي في نظرهم علما حقيقيا، يستمدون منها احتراما لأنفسهم، ويستمدون منها متعة روحية عظيمة، وارتياحا فكريا كبيرا ثم ان لهذه المعرفة جوانبها المغرية الجذابة لقد عرفت علماء وأدباء وشعراء وسياسيين وصلوا بفضل هذه المعرفة إلى أهداف عالية وبلغوا غايات رفيعة، ووجدوا بواسطتها سكينة الروح وطمأنينة النفس، حتى انهم مدينون لها بما نالوا من مراكز في مجال عملهم لم ينقطع الأسمر عن التثاؤب طوال مدة هذا الحوار وكانت نظرته لا تبرح تطوف بالأفق من خلال النافذة، وكان واضحا أنه يستعجل الوصول كان يبدو ذاهلا، ذاهلا ذهولا غريبا، يكاد يكون قلقا مهموما مغموما، حتى أصبح سلوكه من ذلك غريبا شاذا، فهو تارة يصغي ولا يسمع، وتارة ينظر ولا يرى، ثم

ينفجر ضاحكا حتى دون أن يعرف لماذا هو يضحك وفجأة قال السيد ذو البثور يسأل الشاب الأشقر حامل الصرة بالمناسبة هل يمكنني أن أعرف من هو السيد الذي أتشرف بمخاطبته الآن؟فأجاب الشاب الأشقر فورا، بسلامة نية أنا الأمير ليون نيقولا يفتش ميشكين.

قال الموظف مفكرا حالما الأمير مشكين، ليون نيقولا يفتش ميشكين؟ لا أعرفه لم اسمع به يوما لا أقصد انني لم اسمع بهذا الأسم، فهو اسم تاريخى، وفي وسع المرء بل لا بد له أن يجده في كتاب التاريخ الذي ألفه كارامازين لا، وانما أنا أقصد شخصك واني لأعتقد من جهة أخرى أن المرء لا يصادف اليوم في أي مكان أحدا من أسرة الأمراء ميشكين، حتى أن ذكراهم قد انطفأت.

فعقب الأمير يقول بسرعة طبعا، طبعا لا يوجد الآن أي أمير بهذا الأسم، الا أنا لا بد أننى آخر رجل في السلالة أما اسلافنا فكانوا من صغار مالكي الأطيان الذين يزرعون أرضهم بأنفسهم والحق أن ابى قد خدم في الجيش برتبة ملازم ثان بعد أن تخرج من المدرسة الحربية ومن المصادفات ان الجنرالة ايبانشين منحدرة هي أيضا من سلالة الأمراء ميشكين، لا أدري كيف فهي الأخيرة من نوعها أيضا صاح الموظف يقول مقهقهة هي هي هي الأخيرة من نوعها هيه هيه طريقة بارعة في اللعب بالألفاظ وابتسم الأسمر هو أيضا أما الأشقر فقد بدا عليه شيء من الدهشة لأنه أفلح في أن يلعب بالألفاظ هذا اللعب،

على رداءته وقال شارحا تصور أني قلت ما قلت حتى دون تفكير فيه فأجابه الموظف مرحا: طبعا، لا حظنا ذلك وسأله الأسمر فجأة: قل لي يا أمير: لا شك أنك طلبت العلم هناك عند استاذك، أليس كذلك؟ نعم أما أنا فلم أطلب العلم يوما وأضاف الأمير قائلا كأنما ليعتذر على كل حال، أنا لم أحصل من العلم الا شذرات أو فتاتا فقد كانوا يعدونني غير مؤهل لمتابعة دراسة منتظمة، بسبب حالتي الصحية سأله الأسمر بغتة هل تعرف الرو جويين؟ لا، لا أعرفهم على كل حال، أنا لا أعرف الا قلة من الناس في روسيا هل أنت روجويين؟ نعم، أنا روجويين، بارفيون روجويين تدخل الموظف يسأل مهتما اهتماما كبيرا بارفيون؟ انتظر ألست واحدا من آل روجويين الذين فقاطعه الأسمر مفاجئة نعم، أنا واحد منهم، واحد منهم هم أنفسهم أنه لم يكلمه حتى ذلك الحين، وانما كان يقتصر على مخاطبة الأمير أجاب الموظف مذهولا محملقا: ولكن هل هذا ممكن؟ وسرعان ما اكتسي وجهه تعبيرا يفيض بالاحترام بل وبالقلق والخوف، وتابع كلامه يقول ألست قريب سيمون بارفيونوفتش روجويين ذاك البورجوازى الفخرى الورائى الذي توفي مخلفا ثروة قدرها مليونان ونصف مليون؟ أجابه روجويين مستخفا، حتى دون أن يتنازل فيشرفه بالقاء نظرة عليه: من أين تعرف أنه خلف ثروة قدرها مليونان ونصف مليون؟ ثم تابع كلامه وهو يغمز الأمير عجيب أمر هؤلاء الناس اني لأتساءل ما هذا الذي يصيبهم فاذا هم يسرعون يحومون حولك؟ لقد مات أبي منذ مدة

قصيرة حقا وأنا واصل من بسكوف متأخرا شهر انظر كيف أعود الى المنزل فقيرا معدما أكاد أكون حافي القدمين أن أخي، ذلك الوغد الفاجر، وكذلك أمي، لم يرسلا إلى مالا، ولا أبلغاني النبأ لكأني في اعتبارها كلب من الكلاب لقد بقيت طريح الفراش في بسكوف شهرة أعاني من الحمى الحارة صاح الموظف رافعا يديه إلى السماء والآن ستقبض مليونة أو أكثر، دفعة واحدة يا رب السماء قال روجويين وهو يحرك يده بحركة تتم على العصبية والغضب ولكن ما شأنه هو وهذا؟ هلا قلت لي، أرجوك أنت تعلم أنى لن أعطيك قرشا واحدة ولو مشيت أمامي على يديك سأفعل ذلك، سأمشي على يدي، ما رأيك؟ انظر إلى هذا الرجل قلت لك اننى لن أعطيك شيئة البتة، ولو لبنت ترقص أمامي أسبوعة بكامله لك ما تشاء لا تعطيني شيئا، فأنا لا أستحق أن تعطيني شيئا لكن هذا لا يمنعني من أن أرقص لك سأترك زوجتي، وأولادي الصغار، لأجيء أرقص أمامك، في سيل ملاطفة،قال الأسمر وهو يبصق اشمئزازا : شيطان يأخذك ثم أضاف يقول مخاطبة الأمير منذ خمسة أسابيع، كنت مثلك تركت أبي وأنا لا أكاد أحمل الا صرة صغيرة وهربت عند عمة لي بمدينة بسكوف وهناك مرضت، ومات هو أثناء ذلك غلبته المنية رحمة الله على ترابه ولكن يجب أن أقول لك انه أوشك أن يقتلني صدقني يا أمير، أحلف لك فلولا انني هربت لقتلني حتما قال الأمير في لطف وهو يتفحص بكثير من الفضول هذا المليونير الذي يرتدي ذلك المعطف الفقير لا بد أنك أغضبته،

أليس كذلك؟ رغم أن هذا الميراث وهذا المليون جديران بالاهتمام، فان شيئا آخر هو الذي أثار دهشة الأمير واهتمامه وكان روجويين، من جهته، يبدو متلذذا بمحادثة الأمير ومع ذلك يشعر المرء أنه كان يتكلم ارضاء لحاجة الية أكثر مما كان يتكلم تلبية لضرورة داخلية كان يتكلم تسرية عن نفسه لا تعاطفا مع غيره؛ كان يدفعه إلى الكلام نوع من القلق، أوالغم؛ كان يتكلم لينظر الى شخص، وليحرك لسانه لكأنه ما يزال تحت سيطرة الحمى، بل والهذيان أما الموظف فكان معلقا بشفتي روجويين، أسيرا لهما، لا يجرؤ أن يحول عنهما انتباهه لحظة واحدة كان يتلقف ويزن كل كلمة من كلماته كأنها من الماس أجاب روجويين عن سؤال الأمير فقال أما أنه غضب فقد غضب والحق أنه لم يكن على خطأ ولكن المذنب الأكبر في الأمر كله انما هو أخي، ولست أقول شيئا عن أمي، فهي امرأة عجوز، عاكفة على قراءة حياة القديسين، غارقة فيها وهي تقضي النهار كله في صحبة نساء عجائز، وأخي سيمون هو المسيطر على المنزل، المتحكم فيه، المستبد به لماذا لم يبلغوني النبأ، هه؟ الأمر مفهوم صحيح أني كنت عندئذ فاقدا وعيي وهم يزعمون أيضا أنهم أرسلوا إلى برقية ولكن البرقية وصلت إلى عمتي وعمتي التي ترملت منذ ثلاثين عاما تقضى وقتها كله، من الصباح الى المساء، في صحبة نساء معتوهات ليست عمتي امرأة مترهبة، ليست امرأة ممن يسمين مترهبات، بل هي شر من ذلك فحين رأت البرقية أصابها ذعر، فحملتها إلى الشرطة

دون أن تفضها، فلبثت البرقية عند الشرطة إلى هذا الحين كونيف فاسيلى واسيلفتش وحده ساعدنى، فكتب إلى كل شيء أما أخي فانه لم يجد ما هو خير من قضاء الليل في أن يقص شراريب الذهب من غطاء البروكار الذي يغطي تابوت أبى، بحجة أن لهذه الشراريب قيمة كبيرة هل تعلم أن في وسعي أن أرسله إلى سيبيريا اذا شئت، لأن هذا العمل خرق للمقدسات قال الشاب الأسمر ذلك ثم التفت نحو الموظف، فأضاف: نعم، هذا في عرف القانون خرق للمقدسات حقا، يا فزاعة العصافير في الحقول فأسرع الموظف يصبح قائلا هو خرق للمقدسات طبعا وهو يستحق النفي الى سيبيريا، هه؟

الى سيبيريا قال روجويين يخاطب الأمير هم جميعا يظنون أنني ما زلت مريضا، ولكني، دون أن أقول كلمة لأحد، ودون ان أطلع أحدا على شيء، ركبت القطار رغم أنني ما زلت عليلا، وجئت افاجئهم سيكون عليك أن تفتح الأبواب يا أخي العزيز سيمون سيميونوفتش أنا أعلم جيدا أن هذا الأمر كان يثير المرحوم أبي على، ويحقنه ضدى فيجب أن أعترف الآن بأني قد أغضبت أبى فعلا بحكاية ناستاسيا فيليبوفنا تلك، هذا صحيح في ذلك أنا وحدي مخطىء لقد أغواني الشيطان الرجيم ردد الموظف قول صاحبه محاولا أن يستجمع ذكرياته حكاية ناستاسيا فيليبوفنا؟ فصرخ روجويين في وجهه غاضبا لا تعرفها حتما فأجاب الموظف وقد لاح في وجهه

معنى الانتصار بل ربما كنت أعرفها دعك من هذا الكلام في العالم نساء كثيرات باسم ناستاسيا فليوفا أما أنت فانك وغد وقح وقاحة فظيعة، هذه هي الحقيقة أقولها لك ثم أضاف يخاطب الأمير كنت أعرف ذلك سلفا، كنت أعرف سلفا أنني لن أستطيع التملص من أفراد من هذا النوع أسرع الموظف يكرر قوله جائز جدا أنني أعرفها ان ليبديف يعرف أشياء كثيرة أنت يا صاحب السمو تتنازل فتوجه إلى اللوم، فما عساك فاعلا اذا أنا استطعت أن أبرهن لك على أن ما أقوله هو الحقيقة؟ اسمع اذن ان ناستاسيا فيلسوفنا هذه التي أراد أبوك، في شأنها، أن يتم اقناعك بالعصا، انما تسمى باراشكوفا ويمكن أن يقال عنها أنها سيدة ذات مزايا، وانها في نوعها، هي أيضا، أميرة ذلك أولا أما ثانية فان لها علاقة برجل اسمه توتسكى، آتانازى ايفانوفتش توتسكى، وليس لها اى علاقة بأحد غيره وهو رجل من كبار الملاك، ورأسمالي ضخم يدير عدة شركات؛ وتربطه بالجنرال ايبانتشين صداقة قوية ذهل روجويين فصاح يقول مبهوتا عجيب يبدو عليك أنك عالم بكل شيء حقا شيطان يأخذك انه يعرفها، أنه يعرف كل شيء كل شيء ليديف يعرف كل شيء يجب أن أقول لك يا صاحب السمو اني في الآونة الأخيرة ظللت شهرين كاملين أطوف في كل مكان مع ليخاتشوف، الفتى ألكسى لخاتشوف هو أيضا كان قد فقد أباه واذ انني أعرف جميع الأركان والزوايا، فقد أصبح لا يستطيع أن يخطو خطوة دون أن يصحبه لديف انه الآن في السجن بسبب ديون

تراكمت عليه لكنه أثناء طوافنا ذاك قد أتيح له أن يعرف آرمانس، وأن يعرف كورالى ، وأن يعرف الأميرة باتز كى، وناستاسيا فليوفنا، وكثيرا غيرهن.

سأله روجويين وهو ينظر اليه نظرة شريرة، وقد اصفرت شفتاه وأخذتا ترتجفان ناستاسيا فيليبوفنا؟ ما شأنها وليخاتشوف؟ أسرع ليبيديف يجيب لا شيء لا شيء البتة لا شيء اطلاقا لم يستطع ليخاتشوف أن يحظى منها بشيء في يوم من الأيام، رغم أمواله كلها لا، أنها ليست مثل آرمانس هي لا علاقة لها الا بصاحبها توتسكى وقد ترى مسماء في شرفتها بالمسرح المسرح الكبير، أو المسرح الفرنسي ومهما يثرثر الضباط عنها، فانهم عاجزون عن أن يبرهنوا على أي شيء هم يقولون: ها هي ذي انظر اليها، ناستاسيا فيليبوفنا الشهيرة تلك ولكن ذلك هو كل ما يستطيعون أن يقولوه، ولا كلمة عداه، اذ ليس ثمة شيء قال روجويين مؤيدا، وقد اربد وجهه وانقبضت أساريره هذه هي الحقيقة وقد روى لي زالبوجيف هذا الشيء نفسه في ذلك الأوان في ذات يوم من تلك الأيام، كنت أقطع شارع نفسكى راكضا؛ وكنت أرتدي معطفا قديما لأبي، أرتديه منذ ثلاث سنين، فاذا أراها تخرج من أحد المخازن فتركب عربتها شعرت بنار تشب في جسمى فتحرق أحشائي حرقا وصادفت عندئذ زاليوجيف ان زاليوجيف ليس مثلي كان يتنزه في الشارع متأنقا تأنق صبي حلاق،

واضعا على احدى عينيه نظارة أما نحن في منزل أبينا فاننا ننتعل أحذية مرقعة، ونأكل حساء كرنب قال لي زالبوجيف ليست هذه المرأة الأمثل لك انها أميرة اسمها فيليبوفنا باراخشوفا تعيش مع توتسكى لا يعرف هذا المسكين توتسكى كيف يتخلص منها لقد تقدم في السن بلغ الخامسة والخمسين يريد أن يتزوج أجمل امرأة فى بطرسبرج، ثم أخذ زالوجيف يغرس في ذهني أنني أستطيع أن أرى ناستاسيا فيليبوفنا مرة أخرى، ذلك المساء نفسه، في شرفتها من المسرح الكبير الذي يعرض الليلة مسرحية باليه هه حاولنا في بيت أبينا أن تذهب الى الباليه لو خطر ببالك شيء من هذا لكانت عقوبتك عقوبة واحدة هي القتل مع ذلك استطعت أن أهرب ساعة فرأيت ناستاسيا فيليبوفنا مرة أخرى، ثم بت ليلتي مسهدة لا يعرف النوم إلى جفني سبيلا وفي صباح الغد أعطاني المرحوم أبى سندين ماليين قيمة كل منهما خمسة آلاف روبل قائلا لي: امض بعهما، ثم اذهب بعد ذلك إلى مكتب آندرييف لسداد حساب أما الباقي فأعده الى دون أن تتسكع في الطريق سأبقى في الدار أنتظرك بعت السندين، وقبضت المال، ولكنني لم أذهب إلى أندرييف، وانما أسرعت أمضي قدما إلى المخزن الانجليزي ، فاخترت قرطين للأذنين تزينهما ماستان يبلغ حجم كل منهما حجم بندقة وانفقت كل النقودحتى لقد احتجت إلى أربعمائة روبل أخرى، ولكن حين ذكرت اسمى أولاني التاجر ثقته وحملت القرطين، وذهبت الى زاليوجيف فقلت له والآن فلنذهب إلى

ناستاسيا فيلبوفنا يا صاحبي وصرنا في الطريق، أصبحت لا أشعر بالأرض تحت قدمى، وكنت لا أرى شيئا مما يجرى أمامي ولا حولي ودخلنا إلى الصالون رأسا هاهي ذي تصل؟ لكنني لم أجرؤ في تلك اللحظة أن أقدم نفسى: ان زاليوجيف هو الذي أعلن لها قائلا هذه هدية من بارفيون روجويين، ذكرى للقاء الأمس، أرجو أن تتلطفى فتقبليها، فتحت ناستاسيا العلبة، وأنعمت النظر في القرطين، ثم قالت مبتسمة أشكر عني لصديقك السيد روجويين لفتته اللطيفة ثم حيتنا وخرجت ليتني مت في مكاني ذلك اليوم والحق أنتي ذهبت إلى هناك مقدرا انني لن أرجع حيا وانما أغاظني خاصة أن ذلك الحيوان زاليوجيف قد نسب الفضل لنفسه في الأمر كله كنت أنا بقامتي الضئيلة وملابس التي تشبه ملابس الخدم واقفا هنالك محملق العينين مدمر النفس خجلا أما هو فكان يرتدي ملابس على أحدث زى، وكان متطيبا بالعطر، مجعدا شعره، وكان زاهي اللون مشرق الوجه، وقد عقد على عنقه ربطة ذات مربعات، وكان لا ينفك يهز عطفه رقة، ويحني ظهره احتراما لا شك أنها اعتقدت أنه هو صاحب الهدية وقد قلت له غاضبا حين خرجنا: أنصحك بأن لا تفكر فيها، مفهوم؟ فقال: وددت لو أعرف كيف ستسدد حساب سيمون بارفيوتش، والحق أنني كنت في تلك اللحظة احترق رغبة في القاء نفسي بالماء بدلا من العودة إلى الدار ثم قلت لنفسي: لا، ليس للأمر أية خطورة في الواقع ورجعت إلى الدار كالداخل إلى النار دمدم ليبيديف يقول وهو يلوي

يديه خوفا ويرتعش من مجرد تصور الأمر الله الله كان يتفق للمرحوم ان يرسل رجلا من الرجال إلى العالم الآخر بسبب عشرة روبلات فما بالك بعشرة آلاف روبل؟ قال ليبيديف جملته الأخيرة هذه متجها بالكلام إلى الأمير وكان الأمير يتفرس مستطلعا في روجويين الذي بدا في تلك اللحظة شاحبا شحوبا أشد قال روجويين العالم الآخر؟ ماذا تعلم أنت عن هذا؟ والتفت نحو الأمير يستأنف سرد قصته عليه فقال لم يلبث أبي أن عرف كل شيء طبعا لقد أخذ زاليوجيف يروى القصة لكل من يريد أن يسمعها أصعدني أبي إلى غرفة، وحبس نفسه معي فيها، وأخذ يؤدبني خلال ساعة كاملة وكان يقول ما هذا الا القمة الأولى لتذوق الطعم، ولكني سأعود في هذا المساء، لأهيىء لك ليلة سعيدة ونوما مناسبة هل تعلم ماذا فعل بعد ذلك؟ ذهب إلى ناستاسيا فيلبوفنا بنفسه، هو الشيخ الشائب، فانحني لها محييا حتى بلغ بانحنائه الأرض، وأخذ يضرع اليها ويكى فاذا هي ترمي العلبة في وجهه آخر الأمر قائلة له: اليك القرطين فخذهما يا لحية عتيقة لقد أصبحا أثمن في نظري عشر مرات بعد أن عرفت أن بارفيون حصل عليهما بمجازفة خطيرة كهذه المجازفة أبلغ بارفيون تحيتي وشكرى واقترضت بعد ذلك عشرين روبلا من سرجى بروتوشين، وركبت القطار متجهة إلى بسكوف بموافقة أمي ومباركتها فما وصلت إلى بسكوف حتى كنت ارتعد من الحمى وأسرعت العجائز تعالجني وتداوينى بتلاوة صفحات من حياة القديسين كنت مصعوقة مبهوتا ثم

خرجت أطوف بالكباريهات، وأنفق فيها آخر ما بقى لي من قروش، وقضيت الليلة كلها في الشارع، منهارا أكاد أموت من فرط السكر حتى اذا طلع الصباح كنت أهذي ومما زاد الطين بلة أن الكلاب قد جاءتني أثناء الليل تعضنى وتنهشني في كل موضع من جسمى ولم استرد صحوى الا بكثير من العناء قال ليبديف وهو يضحك ساخرا، ويفرك يديه احداهما بالأخرى: هيء هيء بعد اليوم سنسمعها تغنى، ناستاسيا فيلسوفنا هذه.

ليست المسألة الأن مسألة قرطين يهديان اليها، فسوف تغمر بعد هذه الساعة بهدايا تبلغ من الكثرة أنها افزار روجويين يقول وهو يمسك ليبديف من ذراعه بوحشية يمينة لو قلت كلمة واحدة عن ناستاسيا فيديوفنا، فلارسلن اليك لكمات كتلك اللكمات المتلاحقة التي مهما تكن قد تجولت مع ليخاتشوف، فان ذلك لا يمنعني من أن أسلخ جلدك ضربا بالسياط اذا جلدتني بالسوط كان ذلك دليلا على أن في نيتك أن تحتفظ بى قريبا منك فاجلدنى اذن انك اذ تجلدني تدع على طابعك هه ها نحن أولا وصلنا كان القطار يدخل المحطة فعلا ورغم أن روجويين قد زعم أنه غادر بسكوف خفية دون أن يذكر ذلك لأحد، فقد كان ينتظره في المحطة عدد من الأشخاص أخذوا يصيحون وهم يلوحون له بطاقاتهم دمدم روجويين يقول وهو ينظر اليهم منتصرا ضاحكة ضحكة خبيثة ها هه هذا زاليوجيف

أيضا والتفت نحو الأمير فجأة فقال له اسمع يا أمير، لقد شعرت نحوك بعاطفة ومودة، لا أدري لماذا؟ ربما كان مرد ذلك الى انني التقيت بك في لحظة كهذه اللحظة ولكنني في هذه اللحظة أيضا انما التقيت بذلك الوغد (قال ذلك مشيرا إلى البديف فلم أحببه زرني يا أمير سوف نتخلص من لبادتى حذاءيك البشعتين هاتين وسأعطيك معطفا جميلا جدا من فراء السمور وسأوصى لك برداء فراك، أيضا، رداء فراك، من الطراز الأول، وبصديري لونها أبيض أو لونها هو اللون الذي تختاره سأملأ جيوبك مالا وسنمضي نري ناستاسيا فيليبوفنا أتزورني أم لا؟ قال ليبيديف ملحة بلهجة فخمة تحاول الاقناع فكر جيد يا أمير لا تفوت هذه الفرصة لا تفوتها نهض الأمير، ومد يده إلى روجويين في أدب، وأجابه بلهجة رقيقة لطيفة: سيسرني جدا أن أزورك واني لأشكر لك عاطفتك شكرا لا نهاية له قد أجيئك في هذا اليوم نفسه اذا اتسع وقتي يجب أن اعترف لك صادقا مخلصا بأني أعجبت بك أنا أيضا أكبر الاعجاب، ولا سيما حين قصصت على حكاية ذينك القرطين المزدانين بالماس وحتى قبل أن تحكي لي قصة القرطين شعرت نحوك باعجاب، رغم تجهم وجهك أشكرك أيضا على المعطف والثياب التي تنوي أن تهديها إلى ذلك اني سأكون في حاجة كبيرة اليها قريبا، ولست أملك لشراء مثلها الآن قرشا واحدا سيكون معي مال، سيكون معي مال منذ هذا المساء تعال زرني الموظف يقول: معه مال منذ هذا المساء قل لي

أولا يا أمير أأنت تحب الجنس اللطيف كأمير؟ انا؟ لا يجب أن أقول لك لعلك لا تعلم ولكنني بسبب مرضى الولادي لم أعرف النساء قط فهتف روجويين يقول فاذا كان الأمر كذلك يا أمير، فأنت رجل كامل البراءة حقا والله يحب أمثالك قال ليديف مؤيدة نعم نعم، الله يحبهم وقال روجويين آمرة واتبعنى أنت يا حضرة الموظف خرج الثلاثة من حافلة القطار لقد بلغ ليبديف مأربه أخيرة ولم تلبث عصبة روجويين الصاخبة أن ابتعدت في اتجاه شارع فوز سنسكى وكان على الأمير أن يدور إلى جهة ليتاينا يا الجو يسوده الضباب وتملؤه الرطوبة سأل الأمير المارة فعرف أن عليه أن يقطع ثلاثة فراسخ حتى يصل إلى حيث يريد أن يصل، فقرر أن يركب عربة.

الفصل الثاني

سكن الجنرال ايبانشين في منزل يبعد قليلا عن ليتاينايا، من جهة كنيسة التجلى وهو يملك عدا هذا المبني الجميل المظهر الذي يؤجر خمسة أسداسه يملك منزلا ضخما للاستثمار في شارع سادو فايا: ويملك، قرب بطرسبرج، أرضا شاسعة ذات غلال كثيرة، كما يملك مصنعا يقع في ضواحي بطرسبرج، أنه رجل ذائع الصيت، كان في الماضي يزاول أعمال تأجير الأراضى للمزارعين، أما الآن فهو مساهم خطير الشأن في عدة شركات كبرى فهو يعد رجلا واسع الثراء،يقوم بمشروعات ضخمة وله علاقات رفيعة عالية وقد استطاع في بعض الأوساط أن يكون انسانا لا غنى عنه على الاطلاق، ومن بين هذه الأوساط الوسط الحكومي الذي يعمل فيه ومع ذلك كان من الأمور المعروفة الثابتة ان ايفان فيدروفتش ايبانتشين لم يحصل أي تعليم ولم يجن أية ثقافة، وأن حياته العسكرية قد بدأت في مدرسة من مدارس العرفاء ومما لا شك فيه أن هذا أمر يشرفه، ولكن الجنرال، رغم ذكائه، كان لا يخلو من بعض نقاط الضعف التي يمكن أن تغفر له على كل حال؛ من ذلك أنه كان لا يطيق أن يشار

إلى ماضيه أما أنه ذكي وحـاذق، فهذا أمر لا يسعك الا تسلم له به فمن آيات ذلك مثلا أنه قد اتخذ لنفسه مبدأ يلتزمه ولا يحيد عنه، وهو أن لا يضع نفسه في المقدمة يوما، وأن يمحى متى وجب ذلك وكان كثير من الناس انما يقدرونه لهذه البساطة نفسها، ولهذه اللباقة التي تجعله يعرف دائما أين مكانه الصحيح فيقف فيه، وأين حدوده فلا يتعداها ومع ذلك ليت الناس الذين يرون فيه هذا الرأي الحسن، ويحكمون عليه هذا الحكم الطيب، ليتهم يعرفون ما كان يجري أحيانا في نفس ايفان فيدوروفتش هذا الذي كان واضحا أنه يحسن المحافظة على مكانه ان الجنرال ايبانتشين، رغم خبرته الواسعة في الأعمال، ورغم مواهبه الممتازة، كان يؤثر أن يظهر خادمة متحمسا لآراء غيره على أن يفرض آراءه هو خـادم أمين، نعم، ولكن لا متملق دنيء،و كان إلى ذلك وهذه علامة من علامات العصر يرى أن من شرف الانسان أن يكون رجلا ثابت الجنان، أن يكون روسيا حقيقيا فمن هذه الناحية، اتفق أن حدثت له مغامرات أليمة مؤسفة، ولكن الجنرال ليس من الرجال الذين تخور عزائمهم ويدب اليهم اليأس حتى ازاء أصعب الظروف الشائكة وبالاضافة إلى هذا، كان موفقا في المقامرة بمبالغ ضخمة على أنه كان لا يحاول أن يتستر على هذا العيب الطفيف أو هذه الخطيئة السيرة التي يدين لها في كثير من الأحيان بأرباح طائلة بالعكس: كان يعلنها ويذيعها

انه ينتمي إلى بيئة خليطة طبعا، ولكنها بيئة غنية وذات نفوذ على كل حال وكان هو ينتظر من المستقبل كل شيء: أن في عمره لمتسعة، ولا بد أن يجيء كل شيء في يوم من الأيام أن الجنرال ايبانتشين ما يزال كما يقال في سن هي سن القوة ان عمره ستة وخمسون عامة، وهو العمر الذي يتفتح فيه الرجل تفتحا كاملا، العمر الذي يبدأ فيه الرجل حياته الحقة، فعلا صحته الحسنة، لونه النضر، أسنانه القوية رغم سوادها، جسمه المتين الشديد، وجهه الذي يعبر في الصباح عن الاهتمام بالعمل، ويعبر في المساء عن المرح أثناء اللعب بالورق أو في منزل صاحب السمو ، ذلك كله كان يساهم في تحقيق نجاحه حاضرا ومستقبلا، وينشر على طريق صاحب السعادة الورود وكانت أسرته زهرة متفتحا صحيح أنها لا تضم الا ورود، ولكن من حق الجنرال أن تكون له آمال عراض هل هناك، في حقيقة الأمر، من هدف أخطر شأنا وأقدس قداسة من مستقبل الأسرة؟

ـ بم يمكن أن يتعلق المرء ان لم يتعلق بالأسرة؟ كانت أسرة الجنرال تتألف من زوجته وبنات ثلاث كبيرات لقد تزوج الجنرال وهو في شرخ الشباب، حين لم يكن الا ملازم أول، تزوج فتاة تكاد تكون في مثل سنه لم تكن الفتاة متألقة لا بجمالها ولا بثقافتها وهي عدا ذلك لم يتجاوز مهرها الذي حملته اليه خمسين نفسة؛ ولكن

هذا كان بداية ثرائه والحق يقال أن الجنرال لم يستنكر في يوم من الأيام أنه تزوج قبل الأوان، لا ولا نسب هذا الزواج يوما إلى حماسة الصبا واندفاع الشباب وكان يحترم زوجته ويهابها، حتى لقد وصل من ذلك إلى حبها كانت الجنرالة، زوجة الجنرال، من سلالة الأمراء آل ميشكين، وهم أسرة عريقة جدا، وان لم تكن متألقة كثيرة وكانت الجنرالة تزهو بهذا المحتد النبيل زهوة كبيرة، وتستمد منه احتراما لنفسها عظيما ان شخصية من شخصيات ذلك الأوان التي كان لها نفوذ، شخصية من تلك الشخصيات التي تحب أن تكون لها صفة الحماية وهي حماية لا تكلف صاحبها أية نفقة على كل حال ، قد أراد أن يهتم بزواج الأميرة الشابة، ففتح أمام الملازم الأول الشاب أبواب الارتقاء ودفعه اليها ولم يكن ايبانتشين في حاجة إلى أن يدفع دفعة، بل كانت تكفيه نظرة تشجيع، ولا تغيب عنه أو تفلت منه وعاش الزوجان سنى زواجهما الطويل في وفاق تام، باستثناء مصادفات طارئة قليلة لقد استطاعت الجنرالة، بفضل منبتها الذي يصلها بسلالة أمراء، ولأنها آخر من يحمل اسم هذه السلالة، وربما بسبب مزاياها الشخصية أيضا، استطاعت منذ طفولتها أن تجد لنفسها حاميات لهن مراكز عليا ومنازل سامية وبعد ذلك، وبفضل رتبته الرفيعة، أصبحت لا تشعر في المجتمع الراقي بأي حرج، وأخذت تحس فيه بارتياح كامل وانطلاق تام وفي هذه السنين الأخيرة تفتحت

وازدهرت بناتهما الثلاث: الكسندرا، وآديلائيد، وآجلايا، ورغم أنهن يحملن اسم ايبانشين فحسب، فقد دخلن الحياة بأرصدة عظيمة، هي: محتد أمهن التي تنتمي إلى سلالة أمراء، مهر ضخم محترم، نجاح أبيهما في المجتمع نجاحا يبيح له أن يطمح في المستقبل إلى أعلى المناصب ومن الأمور التي لا تفسد عليهن شيئا، أنهن كن على جانب من الجمال، حتى كبراهن التي بلغت من عمرها خمسة وعشرين عاما وكان عمر الوسطى ثلاثة وعشرين؛ أما الصغرى فقد أتمت العشرين منذ قليل والصغرى هذه يمكن أن يقال عنها أنها بارعة الحسن فتانة الجمال حقا، حتى لقد أخذ المجتمع يتحدث عنها كثيرة، فيمتدح جمالها ويشيد بحسنها بيد أن هذا لم يكن كل شيء فان بنات الجنرال الثلاث كن يتألقن كذلك بثقافتهن، وذكائهن، ومواهبهن وكان من المعروف عنهن أيضا أنهن متحابات كثيرة، وأنهن يتساندن تساندة كبيرة حتى لقد تحدث الناس في هذا الصدد عن تضحيات ارتضت الكبريان أن تقدماها لأختهما الصغرى، معبودة الأسرة كلها ولقد كن في المجتمع يتحاشين أن يضعن أنفسهن في المقدمة، حتى لقد كن مسرفات قليلا في التواضع فما من أحد يستطيع أن يأخذ عليهن شيئا من عجب أو عجرفة؛ ولكن كان معروفا مع ذلك أن لهن كبرياءهن وأنهن يعرفن قدرهن ويشعرن بقيمتهن. كانت الكبرى موسيقية، وكانت أديلائيد تملك موهبة عظيمة في فن

الرسم، وهي موهبة ظلت مجهولة سنين طويلة، إلى أن اكتشفت في الآونة الأخيرة بمصادفة بحتة الخلاصة أن الناس كانت تكيل لهن المديح وتغمرهن بالثناء، على أن هناك ألسنة سوء طبعا، فمن ذلك خاصة أن بعض الناس كانوا يتحدثون مرتاعين عن قائمة الكتب التي قرأنها. لم تكن الفتيات تستعجل أمر زواجها كن حريصات على بيئتهن الاجتماعية حرصا كافية، ولكن بغير غلو أو مبالغة، فكان في هذا تعارض واضح مع ما يتصف به أبوهن من طبع خاص ومطامح كبيرة وآمال عريضة كانت الساعة قريبة من الحادية عشرة حين رن الأمير ميشكين جرس باب الجنرال ان شقة الجنرال تقع في الطابق الأول، وهي على تواضعها تلبي مطالب منزلته ورتبته فتح له الباب خادم يرتدي ثيابا مزركشة من ثياب الخدم، واضطر الأمير إلى أن يقدم شروحة طويلة لهذا الرجل الذي تفحصه في أول الأمر مرتابة، ونظر اليه والى صرته شزرة وأخيرة، بعد أن أكد له الأمير تأكيدة قاطعة أنه هو الأمير ميشكين فعلا، وانه في حاجة مطلقة الى أن يرى الجنرال الشأن مستعجل، أدخله الخادم مبهوت إلى حجرة مدخل صغيرة تلاصق قاعة الانتظار، وتتصل بمكتب الجنرال وهناك عهد به الى خادم آخر يتولى الخدمة في حجرة المدخل هذه كل صباح، ويبلغ الجنرال وصول الزوار أن هذا الرجل الذي تجاوز الأربعين من عمره، والذي يرتدي رداءة رسمية، يعبر وجهه

دائما عن كثرة الهم وشدة الانشغال ولقد كان مكلفا بخدمة مكتب صاحب السعادة خاصة، فهو لذلك قوى الشعور بخطورة شأنه وعلو منزلته قال يخاطب الأمير بوقار ورصانة انتظر في الصالون أما صرتك هذه فاتر كها هنا ثم جلس على مقعد من المقاعد بكثير من التعالى، وهو يلقي على الأمير نظرة قاسية مدهوشة جلس الأمير على كرسي، وبيده صرته، وقال اذا سمحت، فأنا أفضل أن أنتظر هنا في صحبتك على أن أبقى وحدي هناك ليس لائقا أن تبقى في حجرة المدخل لأنك زائر أأنت ترغب في التحدث إلى الجنرال نفسه؟ كان واضحا أن الخادم لا يكاد يستطيع أن يسلم بأن عليه أن يبلغ الجنرال عن وصول زائر كهذا الزائر، فقرر أن يعاود سؤاله بدأ الأمير يتكلم فقال نعم، أرغب في التحدث إلى الجنرال نفسه لشأن من الشئون فقال الخادم يقاطعه لا أسألك أن تذكر لي الشأن الذي تريد أن تحدث الجنرال فيه فان وظيفتى تقتصرعلى ادخالك اليه ولكني أعود فأقول لك انني في غيبة السكرتير لا أستطيع أن أبلغ الجنرال عنك كان ارتياب هذا الرجل يزداد دقيقة بعد دقيقة فيما يبدو ان مظهر الأمير يختلف اختلافا كبيرا عن مظهر الزوار المألوفين صحيح أن الجنرال كان يستقبل في كثير من الأحيان، ان لم يكن في كل يوم، في ساعة معينة، ولا سيما من أجل أعمال، أفرادا من كل نوع ومع ذلك ظل الخادم حائرا كان يبدو له أن وساطة

السكرتير لا بد منها ادخال الأمير على الجنرال وسأله أخيرا على نحو آلي تقريبا اذن أنت قادم حقا من الخارج؟ ثم أخذ يغمغم، فلعله كان يريد أن يقول: أأنت أمير من أسرة ميشكين فعلا؟ أجاب الأمير نعم، تركت القطار منذ قليل ولكن يخيل إلى أنك أردت أن تسألني هل أنا حقا أمير من أسرة ميشكين، ثم لم تلق على هذا السؤال أدبا ولطفا همهم الخادم مدهوشا ثم قال الأمير أؤكد لك أنني لم أكذب عليك لن تتعرض لأي تأنيب أما ملابسي وصرتى فليس في أمرها ما يبعث على الدهشة: ليست أمتعتى الآن بالأمتعة الراقية هم ليس هذا ما أخشاه أنا مضطر أن أبلغ عنك الأمير سيجيء السكرتير حتما ليراك اللهم الا أن ان المزعج في الأمر انما هو اللهم الا أن ألست تريد مقابلة الجنرال لطلب معونة والتماس مساعدة؟

ـ هل تسمح لي بأن ألقى عليك هذا السؤال؟ لا، لا، اطمئن كل الاطمئنان ثق كل الثقة فانما أنا آت لأمر آخر تماما معذرة، لقد سألت هذا السؤال بعد أن رأيت ثيابك انتظر السكرتير أن الجنرال مشغول الآن مع الكولونيل وبعد ذلك سيجيء سكرتير احدى الشركات ما دمت سأنتظر مدة طويلا ، فاني أتمنى أن أرجوك أن تسمح لي بالتدخين في مكان ما معي غليوني ومعى تبغ. ألقى عليه الخادم نظرة دهشة واحتقار، كأنه لا يصدق أذنيه تدخن؟ تدخن؟ لا، لا

تستطيع أن تدخن هنا؛ بل ان عليك أن تخجل من خطر هذا بالك هم يا له من كلام عفوك أنا لم يخطر ببالي أن ادخن في هذه الحجرة انني أعرف آداب السلوك وعادات المجتمع وانما أردت أن أذهب إلى مكان تدلنى عليه فأستطيع أن أدخن فيه انني متعود على التدخين، ولم أدخن منذ ثلاث ساعات على كل حال، لك ما تشاء ولا شك أنك تعرف المثل القائل: في دير أجنبى تمتم الخادم رغم اراداته قائلا ولكن كيف تريدني على أن أبلغ الجنرال وصول زائر مثلك؟ أولا ليس مكانك هنا، وانما ينبغي أن تكون في الصالون أنت هنا بمثابة زائر، أي بمثابة ضيف لسوف ينالني تأنيب ولكن أتراك تريد أن تنزل وتسكن معنا؟ أضاف الخادم تلك الجملة الأخيرة وهو يلقى، من جديد، نظرة مواربة على الصرة التي كان واضحا أنها تقلقه قال الأمير لا أظن ذلك حتى لو دعيت، فلن أبقى هنا أنا انما جئت للتعارف، ولا شيء غير ذلك صاح الخادم يقول مذهولا وقد ازدادت علائم الارتياب في وجهه كيف؟ للتعارف؟ فلماذا قلت لي اذن انك جئت لشأن من الشئون، العمل من الأعمال؟ ليس مجيئي لعمل تماما أقصد آن مجيئي لعمل ان شئت؛ أو قل انني جئت أسأل نصيحة لقد جئت لأقدم نفسى خاصة، لأنني واحد من الأمراء ميشكين، والجنرالة ايبانتشين هي أيضا أخر أميرات ميشكين، ولم يبق أحد غيرنا من سلالة الأمراء هذه، صاح الخادم يقول مرتاعة أشد الارتياع

معنى هذا أنك قريب من الأقرباء فوق ذلك؟ قريب؟ قرابة بعيدة جدا أقصد: يمكن أن نعد قريبين اذا نحن أردنا ذلك، ولكن قرابتنا تبلغ من البعد أن من الصعب أن نعد قريبين لقد كتبت إلى الجنرالة في ذات يوم، من الخارج، لكنها لم تبعث إلى بجواب ومع ذلك رأيت أن من الضروري أن اتصل بها عند عودتى الى البلاد اذا كنت أشرح لك هذا كله، فلكى انتزع من نفسك شكوكها، لأنني ألاحظ أنك ما تزال قلقا ليس عليك الا أن تعلم الجنرال أن الأمير ميشكين يستأذن في الدخول، حتى تصبح غاية مجيئى واضحة على الفور فان استقبلت كان هذا خير وبركة، وان لم أستقبل فقد يكون هذا خير وبركة أيضا لكنني أحس أنهم لا بد أن يستقبلوني فان الجنرالة ستريد حتما أن ترى الرجل الوحيد الذي بقى من أسرة الأمراء التي تنتمي هي اليها فهي تحرص كثيرة على نسبها، كما سمعت ذلك عنها كان حديث الأمير يصطبغ ببساطة مطلقة ومع ذلك كان الخادم يزداد حيرة واضطرابا على قدر ازدياد البساطة في حديث الأمير، فهو بحكم تجربته لا يستطيع الا أن يدرك أن هذه اللهجة التي تصلح لحديث يدور بين انسان وانسان، لا تناسب حديثا يدور بين زائر وخادم ولما كان الناس، أذكى كثيرة مما يتصور سادتهم، فقد انتهى صاحبنا الخادم إلى تصور حلين ممكنين: فأما أن هذا الأمير ليس الا متشردة أفاقا يلتمس مساعدة، واما أنه رجل ضعيف العقل بسيط الفكر

خال من العجب بنفسه ذلك أن أميرة له عقل راجح وكبرياء شديدة لا يمكن أن يمكث منتظرة في غرفة المدخل، متحدثا عن شئونه مع خادم وخلص الخادم إلى هذه النتيجة، وهي أنه سيكون مسئولا في الحالتين كلتيهما قال الأمير ملحة بأكبر شدة ممكنة يليق بك مع ذلك أن انتقل إلى الصالون فأجاب الأمير ضاحكا: ها قد رأيت بنفسك أنني لو انتظرت هنالك ما استطعت أن أشرح لك تلك الأمور كلها، ولظللت قلقة من ردائى وصرتى أما الآن فقد لا يكون من الضروري أن تنتظر السكرتير أظن أنك تستطيع بنفسك الآن أن تبلغ عني لا أستطيع أن أبلغ عن زائر مثلك يجب أن يتم ذلك بواسطة السكرتير؛ لا سيما وأن الجنرال قد أوصاني منذ قليل بألا أزعجه لأي سبب من الأسباب وبأي عذر من الأعذار ماظل الكولونيل هناه أن جبريل آردالیونتش وحده يحق له أن يدخل دون أن يستأذن له أهو موظف؟ من؟ جبريل آردالیونتش؟

ـ لا، هو مستخدم في الشركة اسمع: ضع صرتك هنا على الأقل خطر ببالى هذا يسرني أن أضع الصرة هنا، ما دمت تأذن لي بذلك على كل حال، أحب كثيرة أن أنضو عنى هذا الرداء أيضا ما رأيك؟ طبعا لا تستطيع أن تدخل على الجنرال بهذا الرداء على كل حال نهض الأمير، فخلع رداءه بسرعة، فبدا لابسة سترة لائقة

المظهر حسنة التفصيل، وان تكن مهترئة بعض الاهتراء؛ ولاحت تحت السترة، على الصديرة، سلسلة من معدن قد علقت بها ساعة فضية من جنيف شعر الخادم، رغم أنه صنف الأمير رجلا ضعيف العقل، شعر بأنه ليس من اللائق أن يمضي في الحديث مع الأمير إلى أبعد مما مضى اليه حتى الآن ومع ذلك نال الأمير شيئا من رضاه، لا يدري هو نفسه لماذا ولكن الأمير قد أثار فيه مع ذلك شعورة واضحة بالاستياء سأله الأمير وهو يعود يجلس في مكانه والجنرالة متى تستقبل؟ ذلك ليس من شأني أنا والأمر مرهون بنوع الزائر فهى مثلا تستقبل صانعة قبعاتها في الحادية عشرة كما أن جبريل آرداليونتش يحق له، هو أيضا، أن يدخل عليها قبل غيره، ولو في ساعة الافطار قال الأمير البيوت أدفأ في الشتاء هنا من البيوت في البلاد الأخرى والخلاء في البلاد الأجنبية أقل بردة من الخلاء هنا ولكن ما من روسي يستطيع أن يعيش في بيوتهم، من شدة البرد فيها أهم لا يدفئون اذن؟ بلى يدفئون ولكن المنازل هناك مبنية بطريقة أخرى، أقصد النوافذ والمدافيء هم وهل غبت هناك مدة طويلة؟ أربع سنين أقصد: مكثت طول الوقت تقريبا في مكان واحد، في الريف لا شك أنك فقدت عادة الحياة في بلادنا، هه؟ صحيح هل تصدق؟ اني لأشعر بدهشة أحيانا من أنني لم أنس اللغة الروسية نسيانة تامة انني أكلمك الآن فأقول لنفسي: « آن لغتى لم

تسؤ كثيرة، ولعل هذا هو السبب في انني ثرثار إلى هذا الحد هذه هي الحقيقة: انتي منذ الأمس اشتهى طول الوقت أن أتكلم الروسية هم قل لي: هل كنت تسكن في بطرسبرج من قبل؟ كان الخادم رغم شدة حرصه على أن يسيطر على نفسه وأن يمسك عن الكلام، لا يستطيع أن يقطع حديثا يبلغ هذا المبلغ من اللطف والكياسة والذوق أجاب الأمير بطرسبرج؟ لا لم أكد أقيم بها وانما كنت أمر بها مرورا ثم اني حتى في ذلك الأوان لم أكن أعرف شيئا هنا فما بالك الآن وقد ازدادت الأمور الجديدة ازديادة يجعل حتى العارفين مضطرين أن يتعلموا كل شيء من جديد من ذلك مثلا المحاكم الجديدة التي يكثر الحديث عنها في هذه الأيام هم محاكم نعم، هناك محاكم، لا شك في هذا ولكن قل لي: هل المحاكم هناك، في البلاد الأجنبية، أعدل من المحاكم هنا؟ لا أدري: سمعت كثيرة من الثناء على القضاء عندنا من ذلك أن عقوبة الاعدام قد ألغيت ،هناك، هل يعدمون؟ نعم، رأيت اعدامة في فرنسا، بمدينة ليون شنايدر هو الذي قادني الى هناك يشنقون؟ لا في فرنسا يقطعون الرأس وهل يصرخ المعد مون عندئذ؟ يصرخون؟ هه.. آن قطع رءوسهم يتم في لحظة يضجع المحكوم عليه، فيهوى على رأسه نصل الة يسمونها مقصلة، نصل ثقيل قوى، يفصل الرأس عن الجسم فورا ولكن الشيء الأليم الفظيع انما هو الاعدادات: قراءة قرار الحكم بالإعدام، الباس المحكوم

عليه، ايثاقه بالحبال، اصعاده على الصقالة تلك هي البرهة الرهيبة والجمهور يحتشد، وحتى النساء توافد، رغم أنهم لا يريدون للنساء هناك أن ترى هذا المشهد. فعلا، ليس هذا مكانهن.

طبعا كيف يشهدن تعذيبا كهذا التعذيب؟ لقد كان المحكوم عليه، في ذلك اليوم، رجلا يبدو عليه أنه لا يهاب ولا يخاف، رجلا ذكيا، قوي الجسم، ليس شابة صغيرة بل هو ناضج السن، اسمه نيجروس، ومع ذلك، أؤكد لك، صدقني ان شئت، أؤكد لك أنه حين اعتلى الصقالة كان يكى، وكان أبيض اللون كورقة أهذا ممكن؟ أليس هذا فظيعة؟ هل يمكن حقا أن يبكي المرء من شدة الخوف؟ لا، لم أكن أصدق أن أحدة يمكن أن يبكي هذا البكاء خوفا لست أتكلم هنا عن طفل، بل عن رجل لم يسبق له أن بكى يومة، عن رجل في الخامسة والأربعين من عمره ما الذي يحدث للنفس في تلك الدقيقة؟ ما هذه التشنجات التي تصير اليها؟ هذه اهانة للنفس واساءة إلى الروح ولقد قيل مع ذلك: لا تقتل،، فما بالهم يقتلون رجلا لأنه قتل؟ لا، هذا شيء لا يمكن أن يقبله الانسان لقد شهدت ذلك المنظر منذ أكثر من شهر، وما زال يتراءى لي حتى الآن، كأنه أمام عيني، حتى لقد وافاني في أحلامي خمس مرات على الأقل تحمس الأمير وهو يتكلم، وتلون وجهه الشاحب بعض التلون الا أن لهجة صوته ظلت هادئة وكان

الخادم يصغي اليه باهتمام ومحبة ومودة، حتى لكأنه لا يستطيع أن يحول انتباهه عن القصة لعله كان هو أيضا انسانة من اصحاب الخيال قال الخادم من حسن الحظ، على الأقل، أن الإنسان لا يتألم مدة طويلة حين يقطع رأسه فاستأنف الأمير كلامه يقول بحرارة هذه الملاحظة التي ذكرتها أنت الآن تخطر ببال كل انسان ولتحقيق هذه الغاية انما اخترعوا تلك الآلة، أعني المقصلة أما أنا فقد خطرت ببالى في ذلك اليوم فكرة أخرى اذ تساءلت: ترى ألا يمكن أن يكون هذا أسوأ؟ قد تبدو لك فكرتي هذه باعثة على الضحك، بل قد تبدو لك غريبة عجيبة، ومع ذلك فان فكرة كهذه يمكن أن تخطر ببال أي انسان اذا هو أعمل خياله قليلا فكر في الأمر: لننظر في التعذيب مثلا ان الآلام والجروح والوجع الجسمي، ان هذا كله يذهل النفس عن عذابها وينسيها ما قد تكابده من هول، فلا يتألم المرء عندئذ الا من الجروح إلى أن يموت منها والألم الرئيسي، والألم الذي هو أشد الآلام قوة قد لا يكون ألم الجروح، بل الألم الذي ينشأ عن يقين المرء من أنه بعد ساعة ثم بعد عشر دقائق ثم بعد نصف دقيقة، ثم الآن فورة، ستترك روحه جسدها، وأنه لن يكون بعد تلك اللحظة انسانة، وأن هذا أكيد، أنه أكيد، خاصة فحين يضع المرء رأسه تحت المقصلة البارة، وحين يسمع انزلاقها فوقه، في ربع الثانية ذاك، انما يشعر المرء بالخوف الأكبر هل تعلم أن هذا الذي اقوله ليس مستمدة من

الخيال فحسب؟ لقد ذكره كثيرون واني لأبلغ من قوة الاقتناع به أنني سأقول لك رأيي في هذا الأمر صريحة كل الصراحة أنا أرى أن قتل انسان بسبب ارتكابه جريمة قتل هو قصاص لا تناسب بينه وبين الجريمة نفسها ان قتل قاتل افظع كثيرة من جريمة القتل التي ارتكبها ذلك القاتل ان الانسان الذي يقتله القتلة، اذ يذبحونه ليلا في غابة أو غيرها، يظل إلى آخر لحظة يأمل أن ينجو يروى الناس عن مقتولين أنهم ظلوا، بعد حز رقابهم، يأملون ويحاولون الفرار ويتضرعون سائلين الشفقة عليهم والرأفة بهم أما في الاعدام فان الأمل الأخير، الأمل الذي يجعل احتمال الموت أسهل عشر مرات ينتزع منك حتما، ان صدور الحكم واستحالة الإفلات منه هما اللذان يجعلان العذاب رهيبا فظيعة صدقني: ليس في الدنيا عذاب أشد هولا من هذا العذاب لو أخذت جنديا فوضعته في قلب المعركة أمام فوهة المدفع، ثم أطلقت عليه النار، لظل يحتفظ بالأمل إلى آخر لحظة أما اذا قرأت لهذا الجندي نفسه قرارة يحكم عليه بموت مؤكد فان هذا الجندي سيفقد عندئذ عقله، أو سيجهش باكيا من ذا الذي قرر أن الطبيعة الإنسانية تستطيع أن تحتمل تعذيبة كهذا التعذيب دون أن تهوي إلى الجنون؟ فيم ايقاع أذي يبلغ هذا المبلغ من السوء والعقم؟ ربما كان يوجد في هذا العالم انسان حكم عليه بالموت، وشرع في تعذيبه ذلك التعذيب، ثم قيل له أخيرا امض فقد صدر عفو عنك ان

في وسع هذا الانسان أن يحكى لكم وأن يقص عليكم المسيح نفسه قد تكلم أيضا عن هذا العذاب، عن هذا الخوف لا، لا يجوز أن يعامل كائن انسانى معاملة كهذه المعاملة فهم الخادم الشيء الأساسي الذي يعبر عنه كلام الأمير، رغم أنه ما كان له أن يستطيع التعبير عنه كما عبر عنه الأمير: نعم، لقد فهم، وكان ذلك واضحا فيما ظهر على وجهه من علائم التأثر والشفقة والحنان وقال الأمير اذا كنت ترغب في التدخين رغبة قوية هذه القوة، ففي وسعك أن تدخن، ولكن افعل بسرعة، اذ ما عساي أصنع اذا طلبت فكنت غائبا اسمع: هناك، تحت السلم، هل ترى الباب؟ افتح الباب وادخل، فترى على اليمين حجرة صغيرة، ففي امكانك أن تدخن في تلك الحجرة الصغيرة ولكن لا تنس أن تفتح الطاقة، فالتدخين هنا مخالفة ولكن الوقت لم يتح للأمير أن يمضى الى تلك الحجرة الصغيرة، فقد دخل إلى الغرفة شاب يحمل بيده أوراقا، فهب الخادم يأخذ عنه فراءه وألقى الشاب على الأمير نظرة موارية تكلم الخادم فقال بلهجة من يفضى بسر، دون كلفة هذا يا جبريل آردالیونتش سيد يقول انه الأمير ميشكين، قريب الجنرالة لقد وصل من الخارج ونزل من القطار مع هذه المرة ولكن لم يستطع الأمير أن يسمع تتمة الكلام لأن الخادم أخذ يتكلم بصوت خافت جدا وكان جبريل اردالیونتش يصغى بانتباه، ويلقى على ميشكين نظرات تفيض استطلاعا وفضولا وكف عن الاصغاء

أخيرا، واقترب من الأمير بسرعة، فسأله بتحبب كبير وكياسة عظيمة أنت الأمير ميشكين؟ انه شاب وسيم الطلعة جدا، في نحو الثامنة والعشرين من العمر هو أيضا، أشقر اللون، رشيق القوام، أميل إلى الطول، له لحية صغيرة جدا على طريقة نابوليون الثالث، وجهه يدل على ذكاء، ويمتاز بجمال ولكن ابتسامته مفرطة في الرقة على كونها محببة لطيفة، وهي تكشف عن أسنان منضودة كاللؤلؤ مفرطة في الكمال والاتساق أما نظرته فانها رغم كل ما فيها من بشاشة وبراعة ظاهرة، كانت تتميز بكثير من الالحاح، وكان فيها كثير من التدقيق والبحث والتقصي أغلب الظن أن هذا الشاب لا تكون له هذه النظرة نفسها حين يخلو إلى نفسه، ولعله لا يضحك قط، ذلك كان شعور الأمير كرر ميشكين، بسرعة، كل ما سبق أن قاله للخادم، وما سبق أن قصه على روجويين قبل ذلك فكان جبريل آر داليونتش في أثناء ذلك يبدو كمن ينبش ذكرياته ثم سأله ألست أنت الذي كتبت إلى اليزابت برو كوفيفنا في العام الماضي،أو في وقت أحدث، من سويسرا، فيما أظن؟ نعم أنا اذن أنت هنا معروف، ولا شك أنهم يتذكرونك هل تريد أن تقابل صاحب السعادة؟ سأبلغه وصولك بعد قليل يخلو ولكن كان ينبغي لك كان يليق أن تكون في الصالون لماذا بقي السيد هنا؟ قلت لك هو نفسه أراد ذلك وأصر عليه وفي تلك اللحظة فتح باب المكتب فجأة، فخرج منه ضابط يتأبط حقيبة

أوراق كان الضابط يتكلم بصوت عال، ويكثر من التحيات وصاح صوت من آخر المكتب ينادي أأنت هنا يا جانيا؟ تعال اذن أوما جبريل آردااليونتش للأمير بحركة خفيفة من رأسه، وأسرع يدخل المكتب وبعد دقيقتين فتح الباب من جديد، وسمع صوت جبريل آردااليونش، الرنان المتودد، يقول تفضل فادخل يا أمير ومكتبه ينتظر دخول الأمير باستطلاع شديد وفضول قوى؛ حتى لقد خطا للقائه خطوتين؛ واقترب الأمير وقدم نفسه قال الجنرال حسن جدا في أي شيء أستطيع أن أخدمك قال الأمير ليس لى الآن أي أمر مستعجل وليست غايتي من هذه الزيارة الا التعارف لا أحب أن أزعجك انني لا أعرف اليوم الذي تستقبل فيه، ولا أعرف العادات التي تأخذ نفسك بها وقد جئت من محطة القطار إلى هنا رأسا أنا قادم من سويسرا ابتسم الجنرال ابتسامة خفيفة، لكنه فكر فأسرع يكظمها ثم فكر مزيدا من التفكير، فغض عينيه وعاد يتفحص الزائر من القدمين إلى الرأس، ثم أشار له إلى كرسي يجلس عليه وجلس هو نفسه متنحيا بعض التنحي، والتفت نحو الأمير مستطلعا نافد الصبر وكان جانا واقفة في ركن من المكتب يستل أوراقا أجاب ايبانتشين قائلا لا يتسع وقتى عامة للتعارف مع أناس جدد، ولكن لما كان لك هدف حتما فانى قاطعه الأمير يقول كنت أحس سلفا أنك سوف تنسب إلى زيارتى منفعة أبتغيها، أو فائدة ألتمسها لكني أحلف لك أنني لا هدف

لي الا مسرتى بمعرفتك المسرة متبادلة طبعا، ولكن المسرة ليست كل شيء دائمة، فقد يكون هنالك أعمال ثم انني لم أتوصل الى ادراك الصلة التي يمكن أن تربطنا والعلاقة التي يمكن أن تجمع بيننا أقصد : لست أدرك السبب الذي حملك على أن ما من صلة أو علاقة ذلك أمر لا جدال فيه وليس هناك أشياء كثيرة تجمعنا فلأن أكون من أسرة الأمراء ميشكين ولأن تنتمي زوجتك الكريمة إلى هذه الأسرة نفسها، فليس هذا سببا كافيا بطبيعة الحال انني أدرك ذلك حق الادراك ومع هذا فذلك هو السبب الوحيد الذي دفعني إلى المجيء لقد تركت روسيا منذ أربع سنين، وحين رحلت لم أكن مالكا جميع قواى العقلية كنت لا أعرف عن الحياة شيئا وحتى الآن لا أعرف عنها شيئا كثيرا أنا في حاجة إلى معرفة أناس ذوى قلوب كريمة على سبيل المثال هناك الآن قضية يجب أن أحلها، ولا أدري من أي طرف أبدأ قلت لنفسي منذ أن بلغت برلين هؤلاء أقرباء لي تقريبا، فسأبدأ اذن بهم، فلعلنا نستطيع أن ينفع بعضنا بعضا؛ وهؤلاء أناس ذوو قلوب كريمة وقد ذكر لي أن لك قلبا كريما عطوفا قال الجنرال مبهوتا كلام لطيف هل أستطيع أن أعرف أين نزلت؟ حتى الآن لم أنزل في مكان اذن، حين تركت القطار، جئت الى عندى رأسا، هه؟ وجت مع أمتعتك؟ ليس لي الا صرة صغيرة بها بعض الملابس، ولا شيء غير ذلك وأنا أحملها بيدى عادة يتسع الوقت، من الآن إلى

المساء، لاستئجار غرفة في فندق في نيتك اذن أن تستأجر غرفة؟ نعم، طبعا ظننت من أقوالك أنك كنت تنوي الاقامة عندى كان يمكن أن أفعل ذلك لو دعوتنى ومع هذا أعترف لك بأنني ما كنت لأبقى ولو دعيت، ما كنت لأبقى بدون سبب ذلك طبع في اذن فقد أحسنت لأنني ما دعوتك، ولا أدعوك كلمة أخرى يا أمير، من أجل أن نضع الأمور في نصابها ما دمنا قد اتفقنا على أنه لا مجال للكلام عن قرابة بيننا، رغم أن هذه القرابة كان يمكن أن تشرفني طبعا، فانه يترتب على هذا يترتب على هذا أنه لم يبق لى الا أن أنهض وانصرف فان الأمير وهو ينهض ويضحك من قلبه، رغم كل ما في هذا الوضع من حرج وارتباك وتابع كلامه يقول وأؤكد لك، يا جنرال، أنني رغم قلة خبرتى ورغم جهلى بالعادات هنا، كنت أعلم حق العلم أن الأمور ستجرى على هذا النحو تماما على كل حال، ربما كان هذا أفضل ثم ان رسالتي لم يرد عليها بشكل طيب استودعك الله، واغفر لى ازعاجك كانت نظرة الأمير في تلك اللحظة تفيض لطفا وبشاشة، وكانت ابتسامته خالية كل الخلو من أية عداوة، وحتى من أية عداوة خفية مستشرا، فما كان من الجنرال الا أن توقف، وأخذ ينظر إلى الأمير بعين جديدة وأصبح وجهه يعبر تعبيرا يختلف كل الاختلاف عن تعبيره قبل ذلك وقد تحقق له هذا التحول في طرفة عين قال الجنرال للأمير بصوت يوشك أن يكون قد تغير تغيرا كاملا اسمع يا

أمير أنا في الواقع لا أعرفك؛ وربما كانت زوجتى من جهة أخرى تحب أن ترى الرجل الذي يحمل اسم الأسرة الذي تحمله هي فانتظر اذا شئت واذا كان يتسع وقتك أجاب الأمير وهو يسرع فيضع قبعته المبتلة الدورة على المائدة هوه وقتي يتسع كل الاتساع وقتى خال كله أعترف لك بأني كنت أقدر فعلا أن اليزابت برو كوفيفنا قد تتذكر أنني كتبت اليها منذ قليل، أثناء انتظارى في حجرة المدخل، خيل الى خادمك أني جئت ألتمس بعض المساعدات لاحظت ذلك واضحا ولا بد أن أوامرك شديدة في هذا الصدد أؤكد لك أني ما جئت لهذا، وانني لم أت الا للتعارف حقا لكني أخشى أن أكون قد ضايقتك، وهذا يقلقني قال الجنرال وهو يبتسم ابتسامة فرحة طيب يا أمير، اذا كان باطنك كظاهرك، اذا كنت كما تبدو فعلا، فربما كانت معرفتك تسر وتبهج ولكنك ترى طبعا أنني أمرؤ مشغول سأضطر حالا إلى العكوف على بعض الأوراق أدرسها وأوقعها، وعلى بعد ذلك أن أذهب إلى صاحب السمو، ثم أمضى إلى مكتبى. معنى ذلك أنني رغم ابتهاجي الشديد برؤية أناس لطاف محبين أي ولكن أقصد أنني على ثقة بأن تربيتك الممتازة لا بد أن تتماسك يا أمير؟

ـ ستة وعشرون عاما حقا؟ كنت أحسبك أصغر سنا من ذلك بكثير نعم، يقال اني أبدو شابا صغير السن فيما يتعلق بعدم ازعاجك،

سأحاول ألا أزعجك لأنني أكره أن أزعج ويخيل إلى أخيرا أننا مختلفان في الظاهر اختلافا شديدا لأسباب كثيرة، وأننا ليس بيننا أمور مشتركة كثيرة؛ رغم انني في الواقع لا أصدق هذا من جهتى: فكثيرا ما يكون الاختلاف ظاهريا، وكثيرا ما يكون ثمة في حقيقة الأمر نقاط مشتركة ان الكسل هو الذي يدعونا إلى التسرع في تصنيف الناس والتفريق بينهم قبل أن نجد ما يحمل على ذلك أو يفرضه أظن أني أصبحت مضجرا مملا، أليس كذلك؟ انك تبدو كلمة أخرى: هل تملك بعض ثروة على الأقل؟ الملك تأمل أن تجد عملا؟ اغفر لي أني أكلمك بهذه الفجاجة أرجوك، بالعكس انني أفهم اهتمامك هذا وأقدره حق قدره وأشكره لك لا أملك الآن أية ثروة، وليس لي أي مركز، لكني سأحتاج إلى هذا طبعا أن المال الذي كان معي إلى الآن ليس مالي ان شنايدر، الأستاذ الذي كان يعالجني ويعلمني بسويسرا، هو الذي أعطاني ذلك المال وقد أخذت منه ما يكفينى للرحلة بلازيادة ولانقصان، فلم يبق معي الآن الا بضعة كوبكات في ذهني أمر من الأمور، وأنا في حاجة إلى نصائح، ولكن قاطعه الجنرال سائلا قل لي: مم تنوي أن تعيش بانتظار ذلك، وما هي مشروعاتك؟ أريد أن أعمل، بطريقة أو بأخرى ها حقا انك لفيلسوف قل لى: هل تعرف لنفسك موهبة من المواهب؟ هل تعرف لنفسك كفاءات يمكن أن تهييء لك خبز يومك؟ مرة أخرى أعتذر عن

لا تعتذر ما أحسب أن لى موهبة أو كفاءات خاصة وبالعكس: أنا رجل مريض، ولم أتابع تحصيلي أما عن خبز يومى، فيخيل إلى قاطعه الجنرال مرة أخرى ليزحمه بالأسئلة فقص الأمير قصته مرة أخرى واتفق أن كان الجنرال قد سمع عن المرحوم بافلشتيف، حتى لقد عرفه شخصيا لم يستطع الأمير أن يشرح لماذا اهتم بافلتشيف بتربيته وتعليمه، ولم يزد على أن قال: لعل ذلك لم يكن الا تكريما الذكرى صداقته القديمة بالمرحوم أبيه لقد تيتم الأمير منذ طفولته الغضة، وقضى سني حياته الأولى بالريف، لأن حالته الصحية كانت تحتاج إلى فضاء واسع وهواء نقي وعهد به بافلشتيف الى قريبات له عجائز كن يعشن في أراضيه وكانت له في أول الأمر خادم تشرف على تربيته، ثم أصبح له بعد ذلك مرب يتولى تعليمه ورغم أنه يتذكر كل شيء تذكرا واضحا قويا، فانه لم يستطع أن يقدم تعليلات كافية وتفسيرات مقنعة، لأنه على حد تعبيره لم يكن في ذلك الأوان يدرك الأشياء ادراكا جيدا وقد جعلته نوبات مرضه المتكررة يصير إلى البلاهة، فهو الآن أبله قال الأمير كلمة أبله وروى الأمير أخيرا أن بافلتشيف كان قد التقى في برلين بالأستاذ السويسري شنايدر، الأخصائي في هذا النوع من الأمـراض وكان للأستاذ شنايدر في مقاطعة فاليه بسويسرا مستوصف يداوي فيه المرضى بطريقة خاصة به، أساسها الرياضة البدنية وحمامات الماء البارد؛ وكان

أيضا يداوي البله والمجانين، ويعنى بتعليمهم، ويهتم بتنشئتهم الروحية خاصة وقد أرسل باقلتشيف الأمير الى شنايدر منذ خمس سنين ومات هو بعد ذلك بثلاثة أعوام، دون أن يتخذ أي تدبير ولكن شنايدر احتفظ بالأمير وظل يعالجه طوال هذين العامين الأخيرين ولم يتوصل إلى شفائه من مرضه، لكن العلاج كانت له نتائج حسنة ثم قرر شنايدر، تلبية لرغبة الأمير نفسه، وعلى أثر حادث جديد، أن يعيده إلى روسيا ظهرت على الجنرال دهشة جديدة، وسأله اذن ليس لك في روسيا أحد؟ ليس لك فيها أي قريب؟ حتى الآن ليس لي أحد، ولكنني آمل ثم انني قد تلقيت رسالة قاطعه الجنرال قائلا دون أن يكون قد سمع الجملة الأخيرة التي تشتمل على اشارة الى الرسالة ولكن لا بد أنك تعلمت شيئا ما، على الأقل لا بد أنك تعلمت مهنة من المهن ان مرضك لن يمنعك من أن يكون لك وظيفة ما لا أقول وظيفة صعبة بل وظيفة ما في ادارة ما طبعا لا يمنعني مرضى من ذلك أما عن الوظيفة فاني أود كثيرا أن يكون لى وظيفة انني أحب كثيرا أن أعرف ما أصلح له وما أقدر عليه لقد ظللت أدرس وأتعلم طوال السنين الأربع الماضية صحيح أن دراستي لم تكن منتظمة مطردة، لأن استاذي كان مضطرا أن يستعمل في تعليمي منهج خاص، لكنني استطعت في الوقت نفسه أن أقرأ كتبا روسية كثيرة كتب روسية؟ فأنت أذن تعرف قواعد الإملاء وتستطيع أن تكتب بدون أخطاءأ

طبعا مؤكد عظيم وخطك؟ خطى ممتاز؛ بل أستطيع أن أقول من هذه الناحية ان لي موهبة أنا خطاط فعلا وأضاف الأمير يقول بحماسة انتظر سأكتب لك شيئا على الفور من قبيل التجربة افعل افعل بل أن هـذا سيكون مفيدا جـدا لقد أحيت فيك حسن ارادتـك وهمتك ياعزيزي الأميرحقا انك لطيف كل اللطف ما أجمل أدوات مكتبك ما أحسن هذه الأقلام، وهذه الريش ما أروع هذا الورق ما أحسن سمكه ويا لها من حجرة مكتب فخمة اسمع: أنني أعرف هذا المنظر هو مشهد من سويسرا أنا على يقين من أن الرسام الذي صور هذا المنظر قد نقله عن الطبيعة أنا واثق من أنني أعرف هذا المكان: هو في مقاطعة أورى جائز جدا، رغم انني اشتريت اللوحة من هنا يا جانا، اعط الأمير ورقة اليك ريشة وورقا تفضل اجلس إلى المائدة الصغيرة والتفت الجنرال نحو جانيا فرآه يخرج من حقيبة أوراقه صورة فوتوغرافية كبيرة ويمدها إلى ايبانتشين فسأله الجنرال ما هذا؟ هذه ناستاسيا فيلييوفنا أهي التي أرسلت اليك الصورة؟ كذلك سأله متدفقا في الكلام، وقد بدا عليه استطلاع قوي وفضول شديد. أجابه جانيا أعطتنيها منذ قليل، حين ذهبت أقدم اليك تمنياتك لقد طلبتها منها منذ مدة طويلة ترى أليس في هذا الماع منها إلى أنني جئتها خالى اليدين لا أحمل لها أية هدية في مثل هذا اليوم؟ أضاف جانيا جملته الأخيرة هذه وهو يبتسم ابتسامة كريهة فقاطعه الأمير

بلهجة جازمة لا، لا، حقا أن لك تفكير غريب أهي امرأة من تلك النساء التي تلمح تلمع، وتغمز ولمز؟ أنت تعرف حق المعرفة أنها ليست امرأة تنشد منفعة وتلتمس ربحا ثم ما عسى تكون الهدايا التي يمكن أن تهديها اليها؟ لامرأة مثلها لا يقدم المرء الا آلاف الروبلات كان في وسعك طبعا أن تقدم اليها صورتك أنت أيضا بالمناسبة: ألم تطلب منك صورتك حتى الآن؟ لا، لم تطلبها حتى الآن، وقد لا تطلبها في يوم من الأيام أنت غير ناس سهرة اليوم طبعا يا ايفان فيدوروفتش، أليس كذلك؟ ذلك أنك واحد من ضيوف الشرف طبعا طبعا، غير ناس غير ناس سأحضر حتما هو عيد ميلادها عيد ميلادها الخامس والعشرين همه لا بأس يا جانيا، سأفضى اليك بسر، فأصغ إلى: لقد بذلت لي ولآتانازى ايفانوفتش وعدة بأن تعلن قرارها هذا المساء أكون أو لا أكون ضع هذا في الحساب، ولا تنسه اضطرب جانيا فجأة، حتى لقد امتقع لونه قليلا وسأل بشيء من اختلاج في صوته: هل قالت هذا حقا؟ قطعت على نفسها عهدة منذ ثلاثة أيام لقد بلغنا كلانا من الالحاح واللجاجة أنها أذعنت آخر الأمر لكنها رجتنا ألا نذكر لك شيئا من ذلك قبل أن تحين الساعة كان الجنرال يتفرس في جانيا بنظرة فاحصة، وكان واضحا أن اضطراب جانيا يسوه قال جانيا مضطربا مترددا لاحظ يا ايفان فيدوروفتش أنها تركت لي حرية اتخاذ القرار كاملة إلى أن تتخذ قرارا بنفسها ومن المتفق عليه

أن تبقى الكلمة الأخيرة وأن يبقى القول الفصل لي أنا حتى في تلك الحالة صاح الجنرال يقول مروعة مذعورة: ولكن هل تراك هل تراك ذكرت أن لم أقل شيئا أرجوك، ما الذي تريد أن تخلص اليه؟ أنا لا أرفض لعلني أخطأت التعبير قال الجنرال غاضبة دون أن يحاول كظم استيائه وكتمان امتعاضه لن ينقصنا الا أن ترفض يا صديقى، لم تعد المسألة عندنا أن لا، ترفض وانما يجب عليك أن تظهر الغبطة والامتنان والسعادة الكاملة في اللحظة التي تعلن فيها رأيها وما الذي يجري في بيتك؟ في بيتي؟ في بيتي يجري كل شيء وفق مشيئتى وارادتي أبي وحده يجن جنونه، على عادته لقد أصبح في منتهى الدناءة وأصبحت لا أكلمه لكني ما زلت أقسو عليه وأغلظ له ولولا أمي لطردته من المنزل أمي ما تنفك تبكى طبعة وأختي غاضبة غضبا شديدا، لكنني أعلنت لهما اعلانة قاطعة واضحة أنى سيد مصيري، وأنني لا أطلب شيئا في البيت الا أن أطاعه على كل حال، هذا ما أبلغته أختى بحضور أمي قال الجنرال شارد الذهن وهو يهز منكبيه ويباعد قليلا بين ذراعيه أما أنا يا عزيزي فما زلت لا أفهم لا شك أنك تتذكر أن نينا ألكسندروفنا، حين زارتني في الأيام الأخيرة، قد أخذت تستحب وتشن، فلما سألتها ماذا بك، فهمت أن الأمر الذي يؤلها هو ما يهددهن من تلطخ الشرف، بالعار فيما يبدو فأين تلطخ الشرف في هذا كله؟ وددت لو أعرف أين تلطخ الشرف في هذا؟ من

ذا الذي يستطيع أن يأخذ على ناستاسيا فيليبوفنا أي شيء، أو أن يروى عنها أي سوء؟ هل يمكن أن تؤاخذ على العلاقة التي بينها وبين توتسكى؟ ألا أن هذا يكون سخفا كاملا، لا سيما اذا نظرنا إلى الظروف الخاصة التي تحيط بالأمر قالت لي عندئذ هل تدع لها أن تقترب من بناتك؟هه سمعت؟ غريب أمر نينا ألكسندروفنا أن الأمر مع ذلك واضح، كيف لا تدرك كيف لا تدرك وضعها؟ بهذا أكمل جانيا جملة الجنرال ليخلصه من ارتباكه ثم تابع كلامه فقال:انها تدرك وضعها حق الادراك لا تؤاخذها ثم انني قد أسرعت ألقنها درسا حتى تتعلم ألا تتدخل في شئون الآخرين على كل حال، ما يزال يسود بيتنا شيء من الهدوء، لأن الكلمة الأخيرة ما قبلت بعد غير أن الصاعقة ستنفجر فاذا قبلت الكلمة الأخيرة اليوم، انطلق كل شيء من عقاله سمع الأمير ذلك الحديث كله، رغم انكبابه في ركنه على عمله في الكتابة بالخط الجميل فلما أنجز عمله اقترب من المائدة، ومد الورقة ودمدم يقول بعد أن أنعم النظر في الصورة بانتباه وتشوق أهذه اذن ناستاسيا فيديوفنا؟ ثم أضاف يقول بحرارة إنها رائعة الجمال حقا كانت الصورة الفوتوغرافية تظهر قسمات امرأة ذات جمال نادر فذ في الواقع والمرأة ترتدي ثوبا من حرير أسود، ثوبا أنيقة رشيقة خالية من البهرج والزخرف؛ شعرها كستنائى واضح، قد صفف تصفيفة بسيطا في تسريحة من الداخل؛ عيناها دكناوان

عميقتان؛ في جبينها امارات تفكير؛ وجهها يعبر عن اندفاع عاطفى، ويعبر عن شيء من تعال وكبرياء، وهو نحيل، ولا بد أن يكون شاحبا دهش جانبا والجنرال من كلام الأمير، فالتفتا نحوه وسأله الأمير كيف؟ ناستاسيا فيلييوفنا أأنت تعرف ناستاسيا فيليبوفا؟ أجاب الأمير نعم، أنا في روسيا منذ أربع وعشرين ساعة بل أقل ومع ذلك أعرف هذه المرأة التي لا يضارع جمالها جمال وأسرع يروى لقاءه مع روجويين، وحكي القصة التي سمعها منه قال الجنرال قلقة، بعد أن أصغى إلى الأمير بانتباه شديد، قال وهو يتجه إلى جانيا بنظرة مستفهمة سائلة يا للنبأ وجمجم جانبا يقول مضطربة بعض الاضطراب هو أيضا هي حكاية طيش لا أكثر ابن تاجر يلهو ويقصف سبق أن سمعت عنه عاد الجنرال يتكلم فقال وأنا سمعت عنه أيضا يا عزيزى ان ناستاسيا فيليبوفنا قد روت القصة كلها بعد حكاية القرطين تلك ولكن الأمر الآن مختلف ربما كان الأمر الآن أمر مليون وهناك أيضا ذلك الوله هو وله خسيس طبعة، لكنه وله مع ذلك ونحن نعرف ما قد يفعله أمثال هؤلاء السادة بغير حرج حين يسكرون وختم الجنرال كلامه مفكرة حالمة يقول هم أرجو أن لا يؤدي هذا إلى حادث ما قال جانيا وهو يضحك ضحكة ساخرة هل المليون هو ا تخشاه؟ أما أنت فلا، طبعة قال جانيا فجأة يسأل الأمير قل لي يا أمير: ماذا كان شعورك تجاهه، أأحسست أنه رجل جاد أم أحسست

أنه وغد حقير لا أكثر؟ ما رأيك الشخصى؟ أحس جانيا باحساس غريب وهو يلقي هذا السؤال، كأن فكرة جديدة فريدة قد أنارت ذهنه، فأخذت عيناه تسطعان بومضات من نفاد الصبر وكان قلق الجنرال صادقة ساذجة، فالتفت هو أيضا نحو الأمير، ولكن دون أن يبدو عليه أنه يتوقع من جواب الأمير أشياء كثيرة أجاب الأمير لا أدري ماذا أقول لك لقد بدا لي على كل حال أنه شاب مشبوب الهوى جامح العاطفة إلى حد المرض ثم انه هو نفسه يشعر من يراه بأنه مريض ومن الجائز جدا أن تتكس صحته منذ أيامه الأولى ببطرسبرج، ولا سيما إذا أخذ يشرب هتف الجنرال يقول متشبثة بهذه الفكرة ها هذا رأيك اذن؟

ـ نعم، هذا ما خيل إلى قال جانيا وهو يضحك ساخرة على كل حال، لا تحتاج مغامرة كهذه الى بضعة أيام لكى تنفجر، حتى لقد نسمع جديدة قبل هذا المساء قال الجنرال هم طبعا هذا جائز لكن كل شيء رهن اذن بما يخطر ببالها هي انك لتعرف حق المعرفة كيف تكون هي في بعض الأحيان صاح الجنرال من جديد وقد استولت عليه حيرة شديدة، وبلبلة كبيرة ماذا تريد أن تقول؟ اسمع يا جانيا، أرجوك ملحة ألا تعاكسها وألا تعارضها اليوم كثيرة بالعكس: حاول أن تكون أقصد كن لبقا لطيفا كيسا همه لماذا تلوى فمك هكذا؟

اسمع يا جبريل آردااليوتش آن لنا أن نضع الأمور في نصابها، آن لنا ذلك لماذا نحتمل هذا العناء كله؟ انك لتدرك حق الادراك أنني، فيما يتعلق بمصلحتي الشخصية في هذه القضية كلها، مغطى منذ زمن طويل ولسوف أخرج منها بما يناسبنى ويلائمنى، بطريقة أو بأخرى لقد اتخذ توتسكى قرارة لا رجعة عنه ولا راد له فأنا أيضا هادىء اذن كل الهدوء، مرتاح كل الارتياح، مطمئن كل الاطمئنان واذا كنت ما أزال أرغب في شيء، فهو خيرك أنت وفكر مليا: ألست تثق بي؟ لا سيما وأنك رجل رجل ذكى.ثم انني قد وضعت أملي فيك وفي الوضع الراهن، في الوضع الراهن هذا هو الشيء الرئيسي كذلك قال جانيا يساعد الجنرال في اتمام جملته مرة أخرى والتوت شفتا الفتى على ابتسامة ساخرة مسمومة أصبح لا يحاول حتى اخفاءها وكانت نظرته المحمومة تحدق إلى عيني الجنرال، كأنه يريد أن يقرأ الجنرال فيها كل تفكيره فاصطبغ وجه الجنرال بحمرة شديدة، وغضب فاستأنف كلامه وهو ينظر إلى جانيا بقسوة نعم،الذكاء هو الشيء الرئيسي ألا انك لغريب الأطوار يا جبريل آردااليونش لكأنك مبتهج بوصول هذا الشاب التاجر ابتهاجك بحل يهبط من السماء كان يجب في هذه القضية أن تبرهن على ذكاء منذ البداية كان يجب عليك أن تفهم الموقف فهمة سليمة، وأن تقدر الوضع تقديرا صحيحا وكان يجب عليك أن تعمل من الطرفين، من الجهتين مع

التزام الاستقامة والصراحة والا فلا أقل من التنبيه والتحذير، حتى لا يتورط الآخرون، ولا يتعرضوا الشيء ولقد كان في وقتك متسع لهذا وما يزال في وقتك متسع على كل حال هنا رفع الجنرال حاجبيه على نحو مفهوم رغم أنه لم يبق الا بضع ساعات هل فهمت عني؟ هه؟ أتريد أم لا؟ اذا كنت لا تريد فعليك أن تقول ذلك، وأن تقوله في الوقت المناسب ما من أحد يريد على غير ما تحب يا جبريل آردااليونش، ما من أحد يدفعك إلى فخ، اذا كان حقا أنك لا ترى في هذا الا فخا قال جانيا بصوت خافت، ولكن بلهجة ثابتة بل أريد وخفض عينيه، وصمت مظلم الوجه مربد الأسارير رضى الجنرال وارتاح لقد غضب منذ قليل واندفع، أما الآن فكان واضحا أنه نادم على غلوه في المضي إلى ذلك الحد والتفت نحو الأمير فجأة، وقد بدا في وجهه قلق: لقد شهد الأمير الحديث، وسمع كل شيء لكن الجنرال لم يلبث أن استرد هدوءه ان نظرة واحدة إلى الأمير كانت كافية لاعادة الثقة والطمأنينة إلى نفسه هتف الجنرال يقول وهو ينعم النظر في نموذج الخط الذي مده اليه الأمير عظيم، عظيم خط رائع آية من آيات الفن آية نادرة انظر يا جانيا، انظر يا لها من موهبة ان الأمير قد كتب على الورقة السميكة الفاخرة، بأحرف روسية من القرون الوسطى، العبارة التالية:ان المطران الذليل بافنوس قد وقع هذا بخط يده وقال الأمير شارحا بحماسة كبيرة، ولذة

عظيمة هذا توقيع المطران بافنوس نفسه، نقلا عن مخطوطة يرجع عهدها إلى القرن الرابع عشر كانت لهم في الماضي تواقيع جميلة، مطارنتنا وبطارقتنا جميعا ما أعظم ما فيها من ذوق، ومن عناية، ومن صبرأليست عندك نسخة من طبعة بوجودين يا جنرال؟ انظر هنا قلدت نموذجا آخر من نماذج الخط: انه نموذج الخط المدور القائم الكبير، الذي عرف بفرنسا في القرن الماضى؛ حتى أن بعض الأحرف تكتب بأشكال مختلفة هذه هي الكتابة العادية، كتابة عامة الكتاب، وهي مستمدة من كتابة الخطاطين الأصليين اقتنيت نموذجا منها اعترف أن لها محاسنها أنعم النظر في هذه الهاء، وهذه الطاء، الدورتين القائمتين لقد قمت أنا بنقل هذا الطراز الفرنسي من الخط إلى الكتابة الروسية كان ذلك عملا صعبة جدا، لكنني نجحت فيه اليك نموذجا آخر من الكتابة، نموذجة أصيلا جدا، فيه طرافة عظيمة ورشاقة مدهشة انظر في هذه الجملة الاجتهاد يذلل جميع الصعاب هذه كتابة روسية، كتابة حكومية، أو قل ان شئت أنها كتابة حكومية عسكرية بهذا الخط أنما تكتب رسالة رسمية لشخصية خطيرة الشأن وهو خط مدور قائم أيضا، على جانب عظيم من الأناقة والرشاقة، يطلق عليه اسم الكتابة السوداء، وهو خط يبدو حالك السواد فعلا، لكنه في غاية الجمال ان خطاطا محترفا لا يمكن أن يسمح لنفسيه يوما بهذه الزيادات الطفيفة، هذه الذيول الصغيرة،

هل تراها؟ ومع ذلك تستطيع أن تلاحظ أنها تضفي على الخط طابعا خاصا ان المرء يقرأ فيها كل روح الكاتب عسكري يحس المرء أن هذا الكاتب العسكري يود أن يرخي العنان لخياله، وأن موهبته تناديه إلى ذلك، لكن الياقة العسكرية صلبة، فهى تقيده تقييدا شديدا ان النظام العسكري يعبرعن نفسه تعبيرا حلوا في الخط لقد خطف بصري منذ مدة قصيرة نموذج من هذا النوع. تصور أنني وقعت على ذلك النموذج في سويسرا واليك الآن مثالا عاديا مألوفا للخط الانجليزى، مثالا صافيا نقيا للخط الانجليزي لا أرشق منه ولا أحلى هو سحر كله: لؤلؤة، جوهرة هو الكمال بعينه واليك خطا هو تعديل لذلك الخط الانجليزي بالطريقة الفرنسية لقد أخذته من مندوب متجول لبيت من بيوت التجارة وهو الطراز الانجليزي نفسه، غير أن الأحرف الملأى فيه أشد بروزا وأكثر سوادا وهذا يدل على توازن النسب فورا لاحظ هذه الصفة أيضا أن الأحرف البيضاوية قد تبدلت هنا فصارت أكثر تدورا، كما أن الذيول في هذا الخط مقبولة غير مرفوضة والذيول أشد المزالق خطرا بطبيعة الحال، لذلك كان لا بد للخطاط ههنا من ذوق خارق يجنبه هذه المزالق، ولكن اذا نجح الخطاط في هذه المحاولة فوجد الأبعاد السليمة والنسب الصحيحة، حصل عندئذ على خط لا يضارع، خط يعشقه المرء عشقا قال الجنرال ضاحكا عظيم، عظيم، انك مطلع على أدق

الدقائق وألطف اللطائف الست يا صديقى خطاطة فحسب، بل أنت أيضا فنان، هه؟ ما رأيك يا جانيا؟أجاب جانيا موافقة شيء مدهش ثم أضاف وهو يضحك ضحكة ساخرة: حتى أن هذا يدل على موهبة عظيمة ويبشر بأن سيكون له مهنة محترمة قال الجنرال اضحك، اضحك ما شئت أن تضحك انه يملك حقا ما يؤهله المزاولة مهنة ممتازة هل تعرف، يا أمير،إلى أية شخصية سنكلفك بالكتابة؟

ـ ان في الإمكان أن تعطى راتبا قدره خمسة وعشرون روبلا في الشهر، بلا تردد . ثم أضاف الجنرال قائلا وهو ينظر في ساعته ولكن الساعة أصبحت الثانية عشرة والنصف اسمع يا أمير، لننتقل إلى جوهر الموضوع، فأنا في عجلة من أمري، وقد لا تاح لنا فرصة اللقاء مرة أخرى اليوم اجلس لحظة: سبق أن قلت لك انني لن أستطيع أن أستقبلك في أحيان كثيرة ولكنني أرغب صادقة في أن أبذل لك بعض العون، أن أبذل لك عونا ضئيلا هو القدر اللازم الذي لا بد منه ولا غنى عنه أما فيما عدا ذلك فدبر أمرك على النحو الذي يحلو لك، وبالطريقة التي تراها مناسبة سأجد لك وظيفة صغيرة في المكتب، عملا ليس شاقة مسرفة في المشقة، ولكن سيكون عليك أن تجد وأن تجتهد واسمع الآن ما سأقوله لك أن صديقى الشاب جبريل آردالیونوفتش ايفولجين، الذي تراه، والذي

أعرفك به الآن، يعيش مع أسرته؛ وقد أعدت أمه وأخته في شقتهم غرفتين مؤنتين أو ثلاثة، فهما تؤجران هذه الغرف مع الطعام والخدمة لأناس موصى بهم مشهود لهم بحسن الخلق، وأنا على يقين من أن نينا ألكسندروفنا ستقدر توصيتى بك وشهادتي لك هذا كنز بالنسبة اليك يا أمير؛ فلا تعيش وحيدة، بل تعيش في حضن أسرة ان صح التعبير وفي رأيي أنا أنه ليس من الخير لك أن تبقى وحيدة من اليوم الأول في عاصمة مثل بطرسبرج. ان نينا ألكسندروفنا، أم جبريل آر داليونوفتش، وباربارا آرداليونوفا، أخته، هما سيدتان احترمهما احتراما عظيمة، وأجلهما اجلالا كبيرة ان نينا ألكسندروفنا هي زوجة آرداليون الكسندروفتش، الجنرال المحال على التقاعد، الذي كان رفيقي في الجيش، لكنني قطعت جميع صلاتى به لبعض الأسباب، دون أن يمنعني ذلك من أن أكن له بعض الاعتبار والاحترام، انني أشرح لك هذا كله يا أمير، من أجل أن تفهم أنى أوصى بك وأشهد لك بنفسي، وأنني أذن أتحمل التبعة أن أجرة المسكن، مع الطعام والخدمة، معتدل جدة، وأنا أمل أن يكون راتبك في القريب كافية للوفاء به كفاية تامة صحيح أن المرء يحتاج أيضا إلى بعض المال يضعه في جيبه وينفق منه عند الحاجة، لكني ألفت نظرك يا أمير، دون أن أريد لك أن تغضب، ألفت نظرك إلى أن من الأفضل لك ألا يكون في جيبك مال تنفق منه، لا ولا أن تملك أي مال تضعه

في جيبك ومع ذلك، لما كانت حافظة نقودك خالية كل الحلو الآن، فاسمح لي أن أقدم اليك خمسة وعشرين روبلا لنفقاتك الأولى وستحاسب في المستقبل طبعا؛ وأعتقد أن لن تكون بيننا أية صعوبة إذا كنت حقا ذلك الرجل الصادق المخلص الودود الذي كشف عنه حديثك ولئن كنت أهتم بك هذا الاهتمام كله، فلأن هناك أمورة سأعهد اليك بها وسأعول عليك فيها، أمورة ستعرفها في المستقبل هكذا ترى أنت أكلمك ببساطة تامة وصراحة كبيرة آمل يا جانيا ألا ترى بأسا في أن يسكن الأمير عندكم، هه؟ أجاب جانيا مؤكدة بلهجة فيها ظرف وترحيب وبشاشة بالعكس ولسوف تكون أمي سعيدة أظن أنكم أجرتم إلى الآن غرفة واحدة يسكنها ذلك الرجل الذي يسمى فردى فردى فرديشتينكو نعم، فرديشتينكو. انه يعجبني صاحبكم فرديشتينكو هذا مهرج عفن لا أفهم لماذا تدعمه ناستاسيا فيلسوفنا دائما هل صحيح أنه يمت اليها بقرابة؟ لا، لا ما هذا الا مزاح ما من قرابة طيب شيطان يأخذه فما رأيك اذن يا أمير؟ أأنت مسرور أم لا؟ شكرا يا جنرال لقد غمرتني بأريحيتك، مع أنني لم أطلب منك شيئا لا أقول هذا من باب الكبرياء حقا كنت لا أعرف إلى أين أذهبه صحيح أن روجويين قد دعاني إلى داره منذ قليل، ولكن روجويين؟ لا كل شيء الا هذا اس هذا السيد رو جويين تلك نصيحة أب لابنه، أو قل نصيحة صديق لصديقه اذا كنت تؤثر ذلك ومهما يكن من أمر،

فانني أوصيك عامة بالاقتصار على الأسرة التي ستعيش معها قال الأمير: ما دمت طيبا نبيلا إلى هذا الحد، فاتني أريد أن أستشيرك في أمر التمس فيه نصحك لقد تلقيت ابلاغا قاطعه الأمير قائلا لا، اعذرني، لا أملك الآن دقيقة واحدة سأكلم عنك اليزابت برو كوفيفنا حالا اذا أعربت عن رغبتها في استقبالك منذ الآن وهذا ما سأوصيها به ، فانني أنصحك بأن تستغل الفرصة لتحظى برضاها ان من الممكن أن تقدم لك خدمات عظيمة، لأنك تحمل اسم اسرتها أما اذا لم ترغب في أن تستقبلك، فلا يسوءنك هذا، وارتقب فرصة أخرى وأنت يا جانيا، ألق نظرة على هذه الحسابات أثناء ذلك لقد كسرنا رأسها بها أنا وقيد وسيف ينبغي أن نفكر في ادراجها وخرج الجنرال، قبل أن يستطيع الأمير أن يعرض عليه الأمر رغم محاولات عدة وأشعل جانيا سيجارة، وقدم للأمير سيجارة، فقبلها الأمير ولكنه لم يحاول أن يستمر في الحديث مخافة أن يزعجه أو أن يضايقه وأخذ يتفحص المكتب غير أن جانيا لم يكد يلقي نظرة على الورقة الملأى بالأرقام التي أشار اليها الجنرال كان جانيا ذاهلا شارد اللب حتى أن ابتسامته ونظرته وهيئته المهمومة أصبحت أثقل وطأة على صدر الأمير وأشد ايلاما له حين اختليا واقترب جانبا من الأمير فجأة بينما كان الأمير قد عاد يتأمل صورة ناستاسيا فيليوفنا، فقال له جانيا وهو يتفرس فيه تفرس من يخفي نية ويت أمرة اذن تعجبك

هذه المرأة يا أمير؟ أجاب الأمير وجه مدهش، وأنا واثق بأن القدر الذي كتب عليها قدر نادر الوجه باش، ولكنها قاست ألامة رهيبة، أليس كذلك؟ إن المرء يقرأ هذا في نظرتها، في هذين النوعين، في هاتين النقطتين تحت العينين عند منبت الخدين وجه فيه كبرياء، كبرياء شديدة لكنني أتساءل هل هي خيرة النفس طيبة القلب؟ آمل أن تكون كذلك فبهذا يمكن أن ينقذ كل شيء تابع جانبا كلامه دون أن يحول عن الأمير نظرته المحمومة قل لي هل يمكن أن تزوج « أنت، امرأة كهذه المرأة؟ قال الأمير أنا لا أستطيع أن أتزوج أية امرأة أنا مريض وهل يمكن أن يتزوجها رو جويين؟ ما رأيك؟ هو؟ أظن أنه يمكن أن يتزوجها، حتى منذ الغد يتزوجها ثمانية أيام، ثم قد يذبحها حين سمع جانيا هذه الكلمات الأخيرة التي قالها الأمير ارتجف ارتجافة بلغ من القوة أن الأمير أوشك أن يصرخ وأمسكه من ذراعه وقال له ماذا بك؟هنا ظهر خادم في عتبة الباب يقول صاحب السمو، ان صاحب السعادة يرجوك أن تذهب إلى صاحبة السعادة، الجنرالة وخرج الأمير يتبع الخادم الفصالاتج قتل كل من الأنسات الثلاث ايبانتشين بأنها قوية الجسم نضرة زاهرة، وبأنها مهيبة الطلعة، على منكبين امه عريضين وصدر جميل، وذراعين لا تكادان تقلان قوة عن ذراعي رجل وبحكم هذه الصحة وهذه القوة طبعا، كن يقدرن قيمة وجبة من وجبات الطعام حق قدرها، ولا يحاولن أن يخفين ذلك البتة

❖ وكانت أمهن، الجنرالة اليزابت برو كوفيفنا، يسوؤها في بعض الأحيان أن ترى هذه الصراحة في شهوتهن للطعام واقبالهن عليه غير أن جزءا كبيرة من نصائحها وتوصياتها قد فقد في الواقع ما كان لهذه النصائح وهذه التوصيات من سلطان عليهن وتأثير فيهن، رغم أنهن ما زلن يصطنعن في قبولها مظهر الامتثال والاذعان؛ وقد أخذ التحالف بين الأخوات الثلاث يثير الجنرالة في كثير من الأحيان، وهي امرأة تحرص على رزانتها ووقارها أشد الحرص، وترى أن الأفضل ألا تناقش وتجادل، بل أن تقبل وتسم صحيح أن المزاج كثيرا ما ينتصر ويتمرد على قرارات العقل؛ حتى لقد أخذت اليزابت برو كوفيفنا تغدو، سنة بعد سنة، أشد نزوة وأقل صبرة، بل وأجمح خيالا ولكن لما كانت ما تزال تملك زوجة أحسنت ترويضه حتى صار طوع بنانها، فان زوجها هذا هو الذي كانت تصب عليه مايطفح به قلبها فكان الانسجام يعود عندئذ إلى المنزل، وكان كل شيء يجرى بعد ذلك على ما يرام على أن الجنرالة كانت لا تفقد شهوة الطعام هي في العادة تشارك بناتها وجبة الافطار الوفيرة التي تكاد تكون من وفرتها غداء، والتي تقدم بعد الظهر بنصف ساعة وتكون البنات قبل هذه الوجبة قد تناولن في أسرتهن عند استيقاظهن من النوم فنجانا من القهوة في الساعة العاشرة تماما فهذه عادة من العادات ألفنها وترسخت فيهن منذ زمن طويل حتى اذا أزفت الساعة الثانية عشرة

والنصف فرشت المائدة في غرفة الطعام الصغيرة المتاخمة للجناح الخاص الذي تحتله اليزابت برو كوفيفنا؛ فاذا كان وقت الجنرال لا يضيق بحكم العمل عن المشاركة في هذه الوجبة العائلية الحميمة شارك فيها اما ما تضمه الوجبة فهو، عدا الشاي والقهوة والجبن والعسل والزبدة، لحوم مشوية من الأضلاع ونوع خاص من الفطائر تحبه الجنرالة حبا خاصا، وربما ضمت المائدة كذلك مرقا ساخنا مكثفا في الصباح الذي تبدأ فيه قصتنا هذه كانت الأسرة كلها مجتمعة في قاعة الطعام تنتظر الجنرال الذي كان قد وعد بالمجيء في الساعة الثانية عشرة والنصف فلو أنه تأخر عن المجيء ولو دقيقة واحدة اذن لأسرعن يرسلن اليه من يبحث عنه لكن الجنرال قد تقيد بالموعد تقيدة تامة، فها هو ذا يدنو من زوجته ليحييها وليقبل يدها، فيلاحظ على وجهها تعبيرا خاصا جدا ورغم أنه كان في عشية ذلك النهار قد أوجس بأن شيئا من هذا سيحدث بسبب قصة ما، على حد تعبيره ، ورغم أنه حين نام في المساء قد فكر في هذا بكثير من القلق، فقد استولى عليه خوف واعتراه رعب وجاءت بناته فقبله كان لا يبدو عليهن أنهن غاضبات، ومع ذلك كان ظاهرة هنا أيضا أن ثمة شيئا غير طبيعى، صحيح أن ظروفا معنية كانت قد جعلت الجنرال كثير الظنون شديد الارتياب، لكنه، وهو رب أسرة خبير حاذق، قد أسرع يتخذ الاجراءات اللازمة لعلنا نستطيع، دون

أن تفقد قصتنا هذه بروز معالمها، أن نتوقف هنا قليلا، فنقدم بعض الشروح فكرة أقرب إلى أن تكون مباشرة ودقيقة وواضحة، عن الأوضاع والظروف التي كانت عليها أسرة الجنرال ايبانتشين في الوقت الذي تبدأ فيه هذه القصة كان الجنرال رغم ضالة حظه من الثقافة ولقد كان على كل حال يفتخر بأنه عصامي علم نفسه بنفسه كانت زوجة خبيرة وأبا بارعا ولقد قرر خاصة ألا يحث بناته كثيرا على الزواج وكان لا يحرص على أن يعلق نفسه فوق رءوسهن بغير انقطاع، وأن يعذبهن دائما بحب أبوي يسعى الى سعادتهن، كما يحدث هذا في كثير من الأحيان حدوثا طبيعية، بغير قصد أو ارادة، حتى في أعقل الأسر التي عندها بنات للزواج حتى لقد استطاع أن يقنع زوجته بهذا المذهب، وتلك مهمة بالغة الصعوبة، لأنها تعارض غريزة المرأة غير أن حجج الجنرال وأدلته قد أثمرت، لأنها كانت تتناول وقائع محسوسة وكان أسلوبه هو: ان البنات اذا تركت لهن حرية التصرف، فلا بد أن يصلن من تلقاء أنفسهن إلى حل معقول، فيجرى الأمر عندئذ سريعا، لأنهن يقبلن عليه بقلوبهن، متخليات عن النزوات الطارئة، وعن الغلو والمبالغة في النقد؛ ولا يكون على الأبوين بعد ذلك إلا أن يراقباهن بمزيد من اليقظة والتخفي، لتجنيبهن اختيارا رديئا أو انحرافا سخيفة، حتى اذا آن الأوان ساعداهن بكل ما لهما من قدرة، ووضعا ثقلهما كله في الميزان، ليقوداهن في الاتجاه

السليم هذا عدا أن ثروة الأسرة تربو سنة بعد سنة بتزايد هندسى، ون مركزها الاجتماعي يعلو ويسمق، فكلما انقضى الزمن جنت البنات من ذلك نفعا، حتى من جهة الخطبة ولكن ذلك كله قد أضيف اليه: هي أن البنت الكبرى قد بلغت الخامسة والعشرين في مثل الفجاءة، كأنما على غير توقع وفي تلك الآونة نفسها تقريبا أعرب آتانازى ايفانوفتش توسكى، وهو رجل من علية القوم له علاقات رفيعة وثروة خارقة، أعرب مرة أخرى عن رغبته القديمة في الزواج انه في الخامسة والخمسين من عمره تقريبا، ذو طبع لطيف محبب ودود، وذو ذوق رفيع مرهف رقيق كان يريد لنفسه زواجا جميلا انه يقدر الجمال كما لا يقدره مثله أحد واذ ربطته منذ مدة بالجنرال ايبانتشين صداقة كبيرة كانت تعززها وتقويها مصالح مشتركة في بعض المشروعات المالية، فقد سأله أن ينصحه كما ينصح الصديق صديقه هل يستطيع أن يخطب احدى بناته وهكذا فان الحياة الهادئة الوادعة المنظمة المرتبة التي كانت تعيشها اسرة الجنرال ايبانتشين أصبحت موشكة على اضطراب يقلبها رأسا على عقب أن أجمل البنات الثلاث،هي الصغرى، أجلايا، بلا مراء لكن توتسكى نفسه، رغم أثرته المفرطة، قد أدرك أنه ليس له أن يعقد أمالا من هذه الناحية، وأن آجلايا ليست له ومهما يكن من أمر، سواء أكانت أختا آجلايا تحبانها حبا أعمى أم كانتا تحملان لها عاطفة مسرفة في

الحماسة، فالمهم أن أسرة ايبانتشين كانت تتوقع للأخت الصغرى آجلايا، بصدق واخلاص، لا مصير عادي بل حياة تقترب أكبر اقتراب ممكن من المثل الأعلى للفردوس الأرضي يجب أن يكون زوجها المقبل رجلا يتمتع بجميع صفات الكمال، وأن يحقق جميع أنواع النجاح، فضلا عما يجب أن ينعم به من ثراء حتى ان الأختين كانتا قد قررتا فيما بينهما، دون كلام كثير لا طائل تحته، أن تضحيا بنفسيهما في سبيل اجلايا اذا اقتضى الأمر ذلك وقد أعدت الأسرة للفتاة اجلايا مهرا ضخما فذا وكان الأبوان على علم بالاتفاق الذي تم بين الأختين الكبريين ولذلك حين سال توتسكى صاحبة الجنرال ايبانتشين أن يسدي اليه النصح، فان الأبوين لم يشكا كثيرا في أن احدى البنتين لن ترفض تلبية رغبتهما، لا سيما وأن توتسكى ليس من الرجال الذين تستوقفهم مسألة المهر والجنرال رجل صاحب خبرة وتجربة، لذلك قدر الخطوة حق قدرها؛ واذ أن توتسكى نفسه قد فرض على نفسه، بسبب بعض الظروف، تكتما كبيرا في المباحثات حول هذا الأمر، فاقتصر على جس النبض، فان الأبوين من جهتهما لم يذكرا للبنات الا افتراضات غامضة وتخمينات مبهمة؛ فحصلا في مقابل ذلك من البنات على تأكيد غامض مبهم أن الكبرى ألكسندرا قد لا ترفض فهى ذات طبع صلب وخلق ثابت، فتاة عاقلة دمثة لينة سهلة المعاشرة؛ وقد ترضى أن تتزوج توتسكى، فاذا تعهدت

بأن تتزوجه برت بعهدها ولم تخلف الوعد أنها لا تنشد حياة براقة ساطعة، ولا خوف معها من مصاعب ومتاعب، هل كان يمكن توتسكى أن يمنى نفسه بأكثر من هذا؟

ـ ومع ذلك ظلت القضية تتقدم بخطى بطيئة وتلمس متوجس فكان توتسكى والجنرال، بفضل اتفاق ودي، يتجنبان أن يقوما الآن بأية خطوة رسمية حاسمة وكان الأبـوان نفساهما ما يـزالان لا يكاشفان البنات بالأمر صراحة حتى لقد كان يمكن أن يلاحظ المرء أن بينهما شيئا من الخلاف في الرأي فالجنرالة، بصفتها أما، قد أخذت تظهر شيئا من عدم الرضى، وكان ذلك أمرا على جانب كبير من الخطورة وهناك عدا ذلك ظرف معقد شائك كان يعرض المشروع كله للاخفاق اخفاقا حاسما ان أصل هذا الظرف المعقد الشائك، على حد تعبير توتسكى يرجع عهده إلى زمن بعيد، إلى ثمانية عشر عاما خلت فعلى مقربة من احدى الأراضـي التي يملكها اتانازى ايفانوفتش، وهي أراض تقع في أحد أقاليم وسط روسيا، كان يعيش ملاك صغير فقير الحال تقريبا وكانت حياة هذا الرجل سلسلة من المصائب والنوازل، سلسلة تبلغ من التتابع والاتصال أنها تشبه أن تكون حكاية من الحكايات أو قصة من القصص هو ضابط محال على التقاعد، سليل أسرة عريقة النبل، لعلها تفوق في رفعة المحتد

أسـرة توتسكى كـان اسمه فيليب ألكسندروفتش باراشكوفا وقد استطاع أخيرة، وهو غارق في الديون مرهق برهن عقاراته، استطاع بالعمل الشاق والجهد المضني، وبشغل يشبه أن يكون في قسوته ومشقته شغل فلاح، أن يعود إلى استثمار أرضه الصغيرة استمارة مناسبة وكان أيسر نجاح يحققه، يبث فيه شجاعة خارقة، ويعيد اليه أملا كبيرا، حتى امتلأ ثقة وطمأنينة وتفاؤلا؛ وذهب ذات يوم إلى مركز الاقليم ليقابل أحد دائنيه الكبار، وليبرم معه اتفاقا أو ينتهى معه إلى تسوية في حدود الامكان فلما كان اليوم الثالث من اقامته بمركز الاقليم رأي عميد قريته يصل إلى المركز على حصان، محترق الخدين واللحية، ويبلغه أن أملاكه قد شب فيها الحريق بالأمس في وضح النهار، فهلكت امرأته، لكن أولاده نجوا وسلموا لم يستطع باراشكوف أن يصمد لهذا المصاب الجديد، رغم أنه ألف ان الأختين كانتا قد قررتا فيما بينهما، دون كلام كثير لا طائل تحته، أن تضحيا بنفسيهما في سبيل اجلايا اذا اقتضى الأمر ذلك وقد أعدت الأسرة للفتاة اجلايا مهرا ضخما فذا وكان الأبوان على علم بالاتفاق الذي تم بين الأختين الكبريين ولذلك حين سال توتسكى صاحبة الجنرال ايبانتشين أن يسدي اليه النصح، فان الأبوين لم يشكا كثيرة في أن احدى البنتين لن ترفض تلبية رغبتهما، لا سيما وأن توتسكى ليس من الرجال الذين تستوقفهم مسألة المهر والجنرال رجل صاحب

خبرة وتجربة، لذلك قدر الخطوة حق قدرها؛ واذ أن توتسكى نفسه قد فرض على نفسه، بسبب بعض الظروف، تكتما كبيرا في المباحثات حول هذا الأمر، فاقتصر على جس النبض أو سبر الأرض ان صح التعبير، فان الأبوين من جهتهما لم يذكرا للبنات الا افتراضات غامضة وتخمينات مبهمة؛ فحصلا في مقابل ذلك من البنات على تأكيد غامض مبهم هو أيضا، لكنه مواس معز، بأن الكبرى ألكسندرا قد لا ترفض، أن ألكسندرا، على كونها ذات طبع صلب وخلق ثابت، فتاة عاقلة دمثة لينة سهلة المعاشرة؛ ولقد ترتضى أن تتزوج توتسكى، فاذا تعهدت بأن تتزوجه برت بعهدها ولم تخلف الوعد أنها لا تنشد حياة براقة ساطعة، ولا خوف معها من مصاعب ومتاعب، ولا خوف معها من انقلاب مباغت وبالعكس: أنها تستطيع أن تجعل الحياة ناعمة وادعة يرفرف عليها الهدوء والسلام وهي فتاة جميلة، وان لم تكن ساطعة التألق هل كان يمكن توتسكى أن يمى نفسه بأكثر من هذا؟ ومع ذلك ظلت القضية تتقدم بخطى بطيئة وتلمس متوجس، فكان توتسكى والجنرال، بفضل اتفاق ودي، يتجنبان أن يقوما الآن بأية خطوة رسمية حاسمة وكان الأبوان نفساهما ما يزالان لا يكاشفان البنات بالأمر صراحة حتى لقد كان يمكن أن يلاحظ المرء أن بينهما شيئا من الخلاف في الرأي فان الجنرالة، بصفتها أما، قد أخذت تظهر شيئا من عدم الرضى، وكان ذلك أمرة على جانب كبير

من خطورة الشأن وهناك عدا ذلكظرف معقد شائك كان يعرض المشروع كله للاخفاق اخفاقا حاسما ان أصل هذا الظرف المعقد الشائك، على حد تعبير توتسكى يرجع عهده إلى زمن بعيد، إلى ثمانية عشر عاما خلت فعلى مقربة من احدى الأراضي التي يملكها اتانازى ايفانوفتش، وهي أراض تقع في أحد أقاليم وسط روسيا، كان يعيش ملاك صغير فقير الحال تقريبا وكانت حياة هذا الرجل سلسلة من المصائب والنوازل، سلسلة تبلغ من التابع والاتصال أنها تشبه أن تكون حكاية من الحكايات أو قصة من القصص هو ضابط محال على التقاعد، سليل أسرة عريقة النبالة، لعلها تفوق في رفعة المحتد أسرة توتسكى كان اسمه فيليب ألكسندروفتش باراشكوفه وقد استطاع أخيرة، وهو غارق في الديون مرهق برهن عقاراته، استطاع بالعمل الشاق والجهد المضني، وبشغل يشبه أن يكون في قسوته ومشقته شغل فلاح، أن يعود إلى استثمار أرضه الصغيرة استمارة مناسبة وكان أيسر نجاح يحققه، يبث فيه شجاعة خارقة، ويعيد اليه أملا كبيرة، حتى امتلأ ثقة وطمأنينة وتفاؤلا؛ وذهب ذات يوم إلى مركز الاقليم ليقابل أحد دائنيه الكبار، وليبرم معه اتفاقا أو ينتهى معه إلى تسوية في حدود الامكان فلما كان اليوم الثالث من اقامته بمركز الاقليم رأي عميد قريته يصل إلى المركز على حصان، محترق الخدين واللحية، ويبلغه أن أملاكه قد شب فيها الحريق بالأمس في

وضح النهار، فهلكت امرأته، لكن أولاده نجوا وسلموا لم يستطع باراشكوف أن يصمد لهذا المصاب الجديد، رغم أنه ألف ضربات القدر، فقد عقله وجن، ثم مات بحمى دماغية بعد شهر واحد وقد بيعت أراضيه المحترقة وبيع فلاحوه المبعثرون لسداد ديونه أما ابنتاه الصغيرتان، وعمراهما ست سنين، فقد تكرم آتانازى ايفانوفتش توتسكى فكفلهما تربت البنتان أولا مع أولاد وكيل توتسكى، وهو موظف محال على التقاعد، رب أسرة كبيرة العدد، ألمانية فوق ذلك ولم تلبث ناستاسيا أن أصبحت وحيدة، لأن أختها الصغرى ماتت بمرض السعال الديكى أما توتسكى الذي كان يعيش في الخارج، فلم يلبث أن سيهما كلتيهماه وبعد خمس سنين، مر أتانازى ايفانوفتش بالمنطقة، فخطر بباله أن يزور أراضيه هنالك، فاذا هو يلاحظ في منزله الريفي، مع أسرة وكيله الألماني، فتاة حلوة عذبة لذيذة في الثانية عشرة من عمرها، فتاة فارهة ماهرة، ذكية لطيفة، تبشر بأنها ستكون في المستقبل بارعة الجمال فاتنة الحسن لقد كان توتسكى في هذا المجال رجلا ذا خبرة وتجربة، لا يخطىء ظنه ولا يخيب فأله ولم يقض في أراضيه هذه المرة الا بضعة أيام، لكنه قد اتسع وقته مع ذلك لأن يتخذ اجراءاته فحدث تغير كبير في تنشئة الفتاة وتعليمها: جيء لها بمربية سويسرية هي امرأة محترمة متقدمة في السن، لها خبرة في التربية والتعليم، مثقفة، قادرة على أن تعلم، عدا

اللغة الفرنسية، علومة شتى. سكنت المربية السويسرية في المنزل الريفي، وسار تعليم الصغيرة ناستيا بخطى سريعة فما انقضت أربع سنوات حتى انتهت دراسة ناستيا، وسافرت المربية، فجاءت عندئذ سيدة هي ملائكة لها أطيان تجاور أرضا يملكها توتسكى في اقليم ناء جاءت هذه السيدة فأخذت ناستيا تنفيذا الأوامر اتانازى ايفانوفتش، وعملا بسلطات خولها اياها ان في تلك الأرض الصغيرة التي يملكها توتسكى جناح أن يكن صغيرة فانه حديث البناء مؤثث تأثينا جميلا فيه ذوق، وفيه أناقة وكان من المصادفات التي شبه العمد أن تلك القرية نفسها كان اسمها هذا الاسم الموحى: أو ترادنويى أخذت السيدة الفتاة إلى ذلك المسكن الهاديء رأسا، ولما كانت دارها هي قريبة من ذلك المسكن، وكانت أرملة لا ولد لها، فقد أقامت مع الفتاة وكان في خدمة ناستيا هنالك امرأة تتولى أعمال الانفاق الانفاق والحساب، وخادم شابة لكنها ذات تجربة وخبرة، وكان المسكن (الشاليه) يضم أدوات موسيقى، ومكتبة مختارة تناسب الفتيات، ولوحات، وصورة محفورة على الخشب، وأقلامة، ومناقش، وألوانا؛ وكان يضم كذلك كلبة سلوقية جميلة وبعد أسبوعين وصل اتانازى ايفانوفتش بنفسه ومنذ ذلك اليوم أصبح يؤثر تلك القرية الصغيرة المعزولة التائهة في السهوب ايثارة عظيمة فكان يأتيها كل صيف، يقضى فيها شهرين، أو ثلاثة أشهر في بعض الأحيان وانقضى

على هذا النحو زمن طويل هو أربع سنين هادئة وادعة سعيدة، في جو من ترف البذخ وحسن الذوق وفي ذات يوم من مطالع الشتاء، بعد نحو أربعة أشهر من احدى اقامات آتانازي الصيفية في أوترادنويى، وهي اقامة لم تطل في تلك المرة أكثر من خمسة عشر يوما، جرت شائعة أو قل سمعت ناستاسيا فيلييوفنا شائعة تقول ان توتسكى على وشك أن يتزوج ببطرسبرج فتاة جميلة غنية نبيلة المحتد، أي أن يتزوج زواجا يناسبه وقد اتضح فيما بعد أن الشائعة غير صحيحة من بعض النواحي: فالزواج لم يكن الا فكرة أو مشروعا، وما يزال كل شيء غامضا مبهما ومع ذلك ولد هذا الحادث اضطرابا كاملا وبلبلة تامة في حياة ناستاسيا فيليبوفا وسرعان ما برهنت على أنها تملك ارادة حازمة، وعزيمة قوية، وصلابة لم تكن في الحسبان؛ فاذا هي تترك مسكنها الريفي الصغير بلا تـردد، وسافر إلى بطرسبرج، وتمضي على الفور وحيدة إلى توتسكى. ذهل توتسكى، وأراد أن يوضح لها الأمور وأن ينتحل لنفسه الأعذار لكنه أدرك منذ الكلمات الأولى تقريبا أن عليه أن يغير تغيرة تامة، طريقة كلامه ونبرة صوته، وموضوعات حديثه الممتعة الأخاذة التي أصابت حتى ذلك الحين نجاحا كبيرة، وأن يغير منطقه نفسه، أن يغير كل شيء، كل شيء أن امامه الآن امرأة أخرى لا تشبه المرأة التي كان قد عرفها حتى ذلك الحين والتي تركها في شهر تموز (يوليه) بقرية أو تراديويى. لقد

اتضح قبل كل شيء أن هذه المرأة الجديدة تعرف وتفهم أشياء كثيرة، أشياء تبلغ من الكثرة أن المرء يتساءل أين عساها حصلت مثل هذه المعارف وكيف استطاعت أن تكون أراء واضحة هذا الوضوح كله هل يمكن أن يكون ذلك قد تم لها في مكتبتها التي هي مكتبة فتيات؟ وكأن هذا كله لم يكن كافية أيضا، فهي تفهم الشئون القضائية كذلك أكمل الفهم، وفي ذهنها تصورات واضحة وضوحا كبيرة ان لم يكن عن المجتمع كله، فعن الطريقة التي تجرى بها بعض الأمور فيه ثم أن طبعها الآن ليس طبعها في الماضي لقد زايلها ذلك النوع من الحشية، لقد تحررت من ذلك الرجل المبهم الغامض الذي تتصف بمثله بنات المدارس الداخلية، وتحررت من تلك الاندفاعات الساذجة الحلوة التي يلطفها في بعض الأحيان حزن وقلق وخوف يمضي إلى حد ذرف الدموع لا، ان أمام توتسكى الآن امرأة لم يسبق أن تصورها في هذه الصورة، امرأة غريبة عجيبة، تضحك مقهقهة بأعلى صوتها، وتمطره بوابل من سخريات مسمومة، امرأة تعلن له صراحة بأنها لم تشعر نحوه في يوم من الأيام بعاطفة غير عاطفة الاحتقار العميق الذي يبلغ مبلغ التقزز الباعث على الغثيان، وهو تقزز ملأ نفسها بعد انقضاء شعور الدهشة الأولى فورة ان هذه المرأة الجديدة تعلن له أنها لا يهمها في شيء أن يتزوج حالا أية امرأة، ولكنها مع ذلك قد جاءت بدافع الشر وحده تحول بينه وبين هذا الزواج، لا لشيء الا

لأنها تجد في ذلك مسرة، فلا يمكنها الا أن تستجيب لنداء هذه المسرة قالت له هب ذلك تسلية على حسابك لقد آن لى أخيرة أن أضحك أنا أيضا بهذه الألفاظ انما عبرت عن نفسها على الأقل قد لا تترجم هذه العبارات كل ما في قرارة فكرها ولكن بينما كانت ناستاسيا فيليبوفنا الجديدة هذه تضحك ضحكة مجلجلا وهي تبسط حججها وتبدى أسبابها، كان آتانازى ايفانوفتش يدرس الموقف بينه وبين نفسه، ويحاول أن يضع شيئا من النظام والترتيب في خواطره وأفكاره. ودامت هذه الدراسة مدة طويلة، فقد أنفق فيها آتانازى ايفانوفتش قرابة أسبوعين، ولكنه في ختام هذين الأسبوعين كان قد عزم أمره واتخذ قراره يجب ألا ننسى أن آتانازى ايفانوفتش كان عمره في ذلك الأوان نحو خمسين عاما، وكان رجلا مهيبة رصينة، وكان ذا وضع اجتماعى قوى راسخ، وكان مركزه في المجتمع الراقي يقوم على أسس متينة مضمونة كان اتانازى ايفانوفتش يحب ويقدر، أكثر من أي شيء في العالم، شخصه وراحته ورخاءه ودعته، كما يليق ذلك برجل له مثل تلك المزايا المالية فأي اضطراب يعكر الصفو، بل أى قلق يسير يعتري مجرى الأمور، كان شيئا لا يمكن أن يقبله أو أن يحتمله تنظيم للحياة ساهم عمره كامله في اقامته وترسيخه وسرعان ما أوحت إلى توتسكى تجربته الواسعة وحصافة رأيه وصدق حكمه أنه أمام امرأة فريدة قادرة على أن تحقق وعيدها

وتنفذ تهديدها، لا سيما وأنها لا تحرص على شيء في هذا العالم، وأنها لا سيل اذن الى اغرائها لا، لا واضح أن الأمر هنا أمر آخر تماما ان ههنا نوعا من اختلاط عاطفى واستياء خيالى روائي ليس له سبب واضح ولا موضوع معين، ان ههنا رغبة في الاحتقار لا يرتوي لها ظمأ ولا تقف عند حد، أي ان ههنا شيئا سخيفا كل السخف، شيئا فظا غليظا جافية لا يمكن قبوله في المجتمع الراقي لمهذب، شيئا هو بالنسبة إلى رجل شريف كريم بلية من عند الله كان يمكن طبعا أن تعين توتسكى ثروته وعلاقاته، فتبيح له بسهولة أن يقوم بعمل من تلك الأعمال الخبيثة الصغيرة، البريئة كل البراءة، التي يمكن أن تخرجه من المأزق وتخلصه من الورطة وكان واضحا من جهة أخرى أن ناستاسيا فيليبوفنا لا تقدر أن تفعل أي شيء ضده ولو من الناحية القانونية القضائية مثلا؛ لا ولا تستطيع أن تثير فضيحة ذات بال، لأن من السهل على اتانازى ايفانوفتش أن يجعلها تخفق لا محالة، ولكن ذلك كله انما يصدق اذا تصرفت ناستاسيا فيليبوفنا تصرف جميع الناس في أمور كهذه الأمور، ولم تبتعد كثيرا عن القاعدة ولكن نفاذ البصيرة وسداد الرأي وحصافة الحكم انما خدمت آتانازى ايفانوفتش في هذا المجال: فلقد استطاع أن يحزر أن ناستاسيا فيليوفنا تدرك هي نفسها ادراكا كاملا أنها عاجزة من الناحية القانونية القضائية، واستطاع أن يحزر أن في ذهنها شيئا

آخر غير هذا، وذلك ما كان يفضحه سطوع عينيها وبريق نظراتها انها لعدم حرصها على شيء البتة ولعدم حرصها حتى على شخصها لا بد أن يكون توتسكى على جانب كبير من الذكاء ونفاذ البصيرة ليدرك في تلك اللحظة أن ناستاسيا أصبحت منذ مدة طويلة لا تحفل بشخصها البتة ولا تقيم لمصيرها أي وزن؛ لا بد التوتسكى الريبي المستهتر المستخف الذي لا يصدق شيئا ولا يؤمن بشى غير مباهج الحياة الاجتماعية، لا بد له خاصة من كثير من الذكاء ونفاذ البصيرة ليؤمن بأن عاطفة ناستاسيا تلك جده لا هزل)، أقول أن ناستاسيا فيليبوفنا، لعدم حرصها على شيء البتة، ولعدم حرصها حتى على شخصها كانت قادرة على ألا تحجم عن تحطيم حياتها تحطيمة لا رجعة عنه، وعن تدمير وجودها بأسوأ الأساليب، ولو اقتضى الأمر أن تذهب إلى سيبيريا، سجينه، لا لشيء الا التلذذ باهانة وايذاء الرجل الذي تكرهه كرها يفوق طاقة الإنسان على الكره.

ان آتانازى ايفانوفتش لم يخف في يوم من الأيام أنه جبان بعض الجبن، وكان يسمى هذا الجبن محافظة لذلك كان لا بد أن يروعه أن يتصور أن يقتل أمام الهيكل، أو أن يقع له حادث آخر من هذا النوع على مرأى من الناس، حادث غير مستحب وغير لائق على أن اغتياله أو أصابته بجرح أو تلقيه بصقة في وجهه أمام الملأ أو وقوع أي

حادث له أخر من هذا النوع لم يكن يهمه وقوعه بقدر ما كانت تهمه طريقة وقوعه وصورة حدوثه على هذا النحو الذي لا يمكن أن يعد طبيعية ولا يمكن أن يعد لائقة مهذبا وبهذا نفسه انما كانت تهدده ناستاسيا فيديوفنا، ولو تهديدة مضمرة حتى الآن كان يعلم أنها تعرفه معرفة عميقة، وأنها ستعرف أين تهوى عليه بضربتها واذ أن ذلك الزواج كان ما يزال فكرة أو مشروعة، فان أتانازى ايفانوفتش خضع وتراجع وأذعن واستسلم أمام ناستاسيا فيليل بوفنا AE وهناك أمر آخر سهل عليه اتخاذ هذا القرار ان من الصعب على المرء أن يتصور مدى الاختلاف بين ناستاسيا فيليبوفنا الجديدة وبين ناستاسيا فيليبوفنا القديمة، حتى من ناحية الجسد آن ناستاسيا لم تكن في الماضي الا بنية حلوة جدا، أما الآن آه ان توتسكى قد ظل مدة طويلة لا يغفر لنفسه أنه نظر اليها أربع سنين دون أن يراها حق رؤيتها صحيح أن انقلابا في صلاتهما يبلغ ذلك المبلغ من المباغتة والمفاجأة لا بد أن يكون له شأن في هذا ولكن توتسكى قد تذكر لحظات خطرت بباله فيها أفكار غريبة حين كان ينظر إلى عينيها فكأنه يوجس في أعماقها سرا خفية مظلمة لا يدري ما هو كانت تلك النظرة تحدق اليه، وتثبت عليه، وكأنها تعرض له لغزة أو أحجية أو طلسمة وكثيرا ما خطف بصره، في أثناء السنتين الأخيرتين، انكفاء لون ناستاسيا فيليبوفنا: كانت في بعض الأحيان تشحب شحوبة

رهيبة؛ والشيء الغريب أن هذا كان يزيدها جمالا كان توتسكى، وهو في هذا يشبه أمثاله من السادة العجائز العابثين اللاهين القاصفين، كان في الماضي ينظر نظرة ازدراء إلى استيلائه السهل هذا على فتاة بسيطة غير ذات خبرة؛ ولكنه كان قد غير رأيه قليلا في الآونة الأخيرة ومهما يكن من أمر، فانه قد قرر منذ الربيع الماضي أن يقف على ناستاسيا فيليوفنا مهرة سخية، وأن يسرع في تزويجها برجل محترم واسع الصدر رحب الفكر، له مركز في اقليم آخر آه ما أفظع استهزاء ناستاسيا فيليبوفنا الآن بتلك الفكرة، وسخرها منها أما الآن فان آتانازى ايفانوفتش، وقد فتنه جدة الموقف وأغوته، قال لنفسه ان في امكانه أن يستمر هذه المرأة الشابة من جديد، فقرر أن يجعل اقامتها ببطرسبرج، وأن يحيطها بالترف والرخاء والبذخ ذلك عدا أن في وسعه أن يفتخر في بعض الأوساط باستيلائه على امرأة كهذه المرأة، وأن يستمد من ذلك اعتزازة ومباهاة وظهورة لقد كان آتانازى ايفانوفتش يحرص كثيرة على هذا النوع من المجد انقضت خمس سنين على اقامة ناستاسيا فيديوفنا ببطرسبرج، وتوضحت في أثناء ذلك الوقت أمور كثيرة ان وضع آتانازى ايفانوفتش ليس فيه مايطمئنه وأسوأ ما في الأمر أنه وقد خاف مرة، استبد به الخوف حتى أصبح لا يستطيع التخلص منه كان خائفة، حتى دون أن يعرف كثيرا مم هو خائف: كل ما هنالك أنه كان يخشى ناستاسيا فيليبوفناه وفي خلال

بعض الوقت، أثناء السنتين الأولين، أخذ يظن أن ناستاسيا فيليبوفنا تحاول أن تتزوجه كان يفسر صمتها عن رغبتها هذه بأنه كبرياء شديدة منها، وكان مقتنعة بأنها تنتظر أن يفاتحها في الأمر، نافدة الصبر. ذلك تصور غريب في الواقع غير أن آتانازى ايفانوفتش قد أصبح كثير الظنون والهواجس فكان اذا ساورته هذه الفكرة يتجهم وجهه، وتأخذ تدور في رأسه خواطر تقيلة حتى اذا اقتنع فجأة، في ذات يوم من الأيام، بمناسبة حادث من الحوادث، أنه لو عرض عليها أن يتزوجها الرفضت أن تزوجه، دهش دهشة شديدة، بل شعر بشيء من الأسف والحسرة (ذلك هو قلب الانسان ، ولم يسم بهذه الحقيقة الا بعد مدة طويلة تفسير واحد بدا له معقولا: هو أن كبرياء هذه المرأة الخيالية الشاذة، قد بلغ من الحدة والغلو أنها تفضل أن تعبر عن احتقارها دفعة واحدة برفض، على أن تضمن لنفسها وضعة مستقرة ببلوغ مرتبة لا تأملها وأسوأ ما في الأمر أن ناستاسيا فيليبوفنا أصبحت تسيطر على الموقف مزيدا من السيطرة شيئا بعد شيء لقد قاومت كل اغراء من نوع مادى، مهما تكن ضخامته، وهي رغم قبولها ما أحيطت به من ترف وبذخ تعيش حياة متواضعة، ولم تكد تدخر شيئا من مال خلال هذه السنوات الخمس وقد تجرأ أتانازى ايفانوفتش فعمد إلى حيلة بارعة كل البراعة لطيفة كل اللطف لتحطيم سلاسلها وفك أغلالها، فحاول بمعاونات ذكية

حاذقة، على نحو خفي محكم لبق، أن يفتنها بمغريات مثالية ولكن لا الأمـراء، ولا الفرسان، ولا سكرتيرو السفارات، ولا الشعراء، ولا الروائيون، حتى ولا الاشتراكيون، أمكن أن يؤثروا فيها أي تأثير لكأن قلبها من حجر، ولكأن عواطفها قد جفت وماتت إلى الأبد كانت تعيش حياة أميل إلى الانزواء، تقرأ وتطالع وتدرس وتهوى الموسيقى كانت علاقاتها قليلة، وكانت تتصرف بايثارها إلى نساء طاعنات في السن سخيفات من زوجات الموظفين وكانت تعرف ممثلتين، وتعرف عددا من عجائز طيبات أخريات وكانت تتردد على أسرة كثيرة الأولاد هي أسرة معلم طيب من معلمي المدارس الابتدائية، وكان أفراد هذه الأسـرة يبادلونها الحب ويتهجون بزياراتها وكثيرا ما كان يجتمع عندها في المساء، خمسة أشخاص من معارفها أو ستة، وقلما يزيد العدد عن ذلك وكان توتسكى نفسه يحضر سهراتها حضورة مطردة وكان الجنرال ايبانتشين قد استطاع في الآونة الأخيرة، بعد شيء من المشقة، أن يظفر بزيارة بيت ناستاسيا فيليوفنا وفي الوقت نفسه، تمكن موظف صغير اسمه فردشتينكو أن يتعرف عليها بدون أي عناء أنه نوع من مهرج سيء التربية قليل الـذوق دعى خفة الظل وروح الدعابة ويميل إلى الشراب والسكر وكانت ناستاسيا تستقبل كذلك شابة غريبة اسمه بتسين، هو فتى متواضع مرتب يعتنى بهندامه، كان فقيرة بائسة فلما تخلص من الفقر والبؤس أصبح مرابية وفي آخر

أونة تعرفت ناستاسيا على جبريل آرداليونتش يجب أن نذكر أخيرا أن س معة عجيبة كانت تحيط بناستاسيا فيليوفنا ان جميع الناس يعرفون جمالها، ولكن لا شيء غير ذلك، وما من أحد كان يمكنه أن يتباهي بأنه حظي منها بشيء، ولا كان هنالك أحد يمكن أن يروي عنها أية قصة فهذه السمعة وما تمتاز به ناستاسيا من ثقافة، ومن رشاقة، ومن فكر، ذلك كله قد أوحي إلى اتانازى ايفانوفتش خطة ما وفي تلك الفترة من الزمن انما يقع التدخل النشيط الفعال الذي قام به الجنرال ايبانتشين في القصة كلها حين سأل توتسكى صاحبة الجنرال بكثير من اللطف والمودة أن يسدي اليه النصيحة التي يسديها صديق الى صديقه، في أمر زواجه باحدى بناته، فانه قد فتح له قلبه بصدق كامل وصراحة تامة، فقال أنه عزم أمره على ألا يحجم عن استعمال « أية وسيلة من الوسائل، في سبيل الحصول على حريته، وانه لن يعد نفسه في أمان ولو وعدته ناستاسيا فيليبوفنا نفسها بأنها ستدعة هادئة في المستقبل، وان الأقوال أصبحت لا تكفه فلا بد له من ضمانات أكيدة وكفالات تامة وناقش الرجلان الأمر، فقررا أن يعملا متكاتفين اتفقا أولا على أن يستعملا ألطف الأساليب، وأن يضربا على أنبل أوتار النفس الإنسانية أن صح التعبيرفذهبا إلى ناستاسيا فيليبوفنا، وأسرع توتسكى تكلم عما في موقفه من سوء لا يطاق أقر بأنه آثم مذنب في كل أمر من الأمور،

ولكنه اعترف صراحة بأنه من حيث هو رجل شديد الشبق عاجز عن السيطرة على نفسه، لا يستطيع أن يشعر بندامة فيما يتعلق بالخطيئة الأولى التي ارتكبها وقال ان في نينه أن يتزوج، وانها تملك بين يديها مصير هذا الزواج المناسب إلى أقصى حد، وانه يستنجد بشهامتها ونبل قلبها وتكلم الجنرال هو أيضا، بصفته أبا، فقال كلاما معقولا متزنة، تحاشي فيه أن يستدر العطف والحنان ولكنه ذكر أنه يعترف لها كل الاعتراف بحقها في تقرير مصير أتانازى ايفانوفتش، ولم يفته مع ذلك أن يبرز مذلته في كثير من الكياسة ذاكرة أن مصير ابنته، وربما مصير ابنتيه الأخريين، رهن بما تتخذه هي من قرار فلما سألت ناستاسيا فيليوفنا مستفهمة عما يراد منها على وجه الدقة،، اعترف توتسكى، صادقة ذلك الصدق نفسه، بأنها قد بلغت من تخويفه وترويعه منذ خمس سنين أنه أصبح لا يستطيع أن يشعر بطمانينة كاملة وأمـان تام الا اذا وافقت ناستاسيا فيليبوفنا هي نفسها على زواجه وأسرع يضيف إلى ذلك أن هذا الذي يوحي به الأن يكون سخيفا لولا أنه مستند إلى اسباب قوية ومدعم ببواعث متينة فلقد لاحظ بوضوح كامل وعرف معرفة محققة أن شابا من أسرة طيبة جدا ومحترمة جدة، شابة تعرفه وتستقبله في دارها، هو جبريل آردالیونتش ايفولجين نفسه، موله بحبها منذ مدة طويلة، ويتمنى أن يحظى بعطفها ولو دفع نصف حياته ثمنا لذلك؛ وهذه الاعترافات

انما أسر بها جبريل آر داليونتش منذ زمن طويل اليه هو، آنتانازى ايفانوفتش، صادقا مخلصا، بكل ما يحمله له من صداقة، وبكل ما يزخر به قلبه الشاب من اندفاع وحرارة؛ كما ان ايفان فيدوروفتش، حامي الفتى، يعرف الأمر منذ مدة هو أيضا؛ ومن حق آتانازى ايفانوفتش أن يظن، الا اذا أخطأ ظنه، أن عواطف الفتى لا تجهلها ناستاسيا فيليوفنا أيضا، حتى لقد خيل اليه أنها تظهر بعض الرضى عنها وبعض الترحيب بها وطبيعى انه يصعب عليه أن يتحدث في هذا الأمر أكثر مما يصعب ذلك على أي انسان آخره ولكن اذا شاءت ناستاسيا فيليبوفنا أن تصدق أنه، عدا مصلحته الأنانية ورغبته في تنظيم حياته، قد يريد لها الخير، فلا بد أن تدرك أن عزلتها تبدو له منذ مدة طويلة غريبة وأليمة وهو واثق بأن هذه العزلة ليست الا ظلمات كثيفة، وأنها ناشئة عن الكفر بامكان أن يجدد المرء حياته ولكنه مؤمن بأن حياتها يمكن أن تتبعث انبعاثة رائعة بالحب والأسرة اللذين سيضفيان عليها معنى جديدة وأضاف اتانازى ايفانوفتش يقول ان مواهب قد تكون لامعة تضيع عندها، وان رضاها هذا عن حزنها ويأسها، أى هذا النوع من الرومانسية، لا يتفق والحس السليم ولا يناسب ما تتحلى به نفس ناستاسيا فيليبوفنا من نبل بعد أن كرر مرة أخرى أن الكلام في هذا الأمر يشق على نفسه أكثر من أي انسان آخر، ختم حديثه قائلا انه لا يملك الا أن يأمل ألا تستقبل

ناستاسيا فيليوفنا بالاحتقار والازدراء رغبته الصادقة في أن يكفل لها مستقبلها بأن يقدم اليها رأس مال مقداره خمسة وسبعون ألف روبل وأضاف معلقة ان هذا المبلغ مكتوب لها في وصية، فلا داعي إلى أن تعده تعويض أو شيئا من هذا القبيل ولا داعي على كل حال إلى ألا يصدق المرء وألا يغفر هذه الرغبة الانسانية في تخفيف عذاب الضمير، الخ، الخ، الخ الخلاصة أن آتانازى ايفانوفتش قال كل ما يحسن أن يقال في مثل هذه الأحوال ولقد تكلم اتانازى ايفانوفتش مدة طويلة ببلاغة وفصاحة، وأشار عرضة وهذا أمر هام جدة إلى أن هذه هي المرة الأولى التي يجيء فيها على ذكر مبلغ الخمسة وسبعين ألف روبل، فما من أحد على الاطلاق، سمع عن هذا قبل الآن، حتى ولا ايفان فيدوروفتش. وتكلمت ناستاسيا فيليبوفنا فأذهل جوابها الرجلين فلا شيء فيها الآن مما كان يسود كلامها من سخرية وعداوة وكره، ولا شيء من تلك الضحكة التي كانت ذكراها وحدها تجد توتسكى رعبا، بالعكس:

ـ أن المرء ليحس بأنها تكاد تكون سعيدة من قدرتها أخيرة على أن تجرى مع أحد الناس حديثا فيه اخلاص وصراحة، وفيه مودة وصداقة واعترفت بأنها كانت تتمنى منذ مدة طويلة أن تحصل على نصيحة من صديق، وأن الكبرياء وحدها هي التي منعتها من طلب

النصح حتى الآن أما وقد تكسر الجليد، فلا شيء يمكن أن ينهجها وأن يسعدها أكثر من ذلك لقد بدأت ناستاسيا فيديوفنا كلامها وهي تبتسم ابتسامة حزينة، ثم ضحكت من كل قلبها حين قالت انها لن تثير زوبعة كالزوبعة التي أثارتها في الماضى؛ وانها على كل حال قد غيرت رأيها في أمور كثيرة منذ مدة طويلة، وانها رغم أن قلبها لم يتغير، لا تملك الا أن تعترف بالأمر الواقع، فما حدث قد حدث، وما مضى قد مضى، حتى انها ليدهشها بقاء هذا الرعب في نفس اتانازى ايفانوفتش إلى الآن ثم اتجهت بالكلام إلى ايفان فيدوروفتش فقالت له، باحترام عميق، انها قد سبق أن سمعت عن بناته، وأنها تمحضهن منذ مدة طويلة أصدق الاعتبار وأعمق الاحترام، وانها لتشعر بسعادة واعتزاز متى تصورت أن في وسعها أن تنفعهن في شيء ولقد كان صحيحا كذلك أن حياتها، في تلك الآونة، كانت شاقة كالجة، كالحة» إلى أبعد الحدود لقد حزر آتانازى ايفانوفتش أحلامها نعم، انها تود لو تنبعث، ان لم يكن بالحب فبالحياة في أسرة مع الشعور بغاية جديدة لكنها لا تكاد تستطيع مع ذلك أن تقول شيئا عن موضوع جبريل ارداليونتش صحيح أنها يبدو لها أنه يحبها، وصحيح أنها تشعر من جهتها بأنه كان يمكنها أن تحبه لو آمنت بمتانة تعلقه وقوة ارتباطه، ولكن هبه صادقة، فانه ما يزال شابة صغيرة، فمن الصعب اتخاذ قرار وعلى كل حال، فان ما يعجبها فيه أكثر من أي

شيء آخر هو أنه يعمل وأنه يعول أسرة بكاملها وقد سمعت عنه أنه شاب نشيط، فال، عزيز النفس، ذو أنفة، طموح، تواق إلى الارتقاء كما سمعت أن نينا ألكسندروفنا ايفونا، أم جبريل آر داليونتش، امرأة جديرة بالاعجاب، خليقة بالاحترام من جميع النواحي، وأن أخته باربارا آرداليونوفا فتاة نشيطة فالة ممتازة هي أيضا لقد كلمها ب ين كثيرة عنهم؛ وهي تعرف أن الأسرة كلها تحمل أنواع الشقاء مرحة متفائلة؛ وهي تود أن تتعرف على هذه الأسرة، ولكن بقي عليها أن تعرف هل تحسن هذه الأسرة استقبالها، وهل ترحب بها الخلاصة أنها على وجه الاجمال لا تعارض فكرة هذا الزواج، لكنها ترى أن الأمر يستحق مع ذلك تفكير جديا، فهي تمنى لهذا ألا تستحث على الإسـراع كثيرة أما فيما يتعلق بالخمسة وسبعين الف روبل، فان آتانازى ايفانوفتش قد أخطأ حين تحرج من الكلام عليها فهي تعرف قيمة المال حق معرفتها، وهـي لذلك تقبل هـذه الهدية مغتبطة وشكرت الأنانازى ايفانوفتش أيضا أنه كان رقيق الشعور فلم يقل عن هذا الأمر كلمة واحدة لا للجنرال ولا لجبريل ارداليونتش ولكنها تساءلت لماذا لا يطلع جبريل على ذلك سلفا هو أيضا؟ فانها لن تشعر بأي خجل من هذا المال حين تصبح عضوا في الأسرة ثم أنها لا تنوي أن تعتذر لأي انسان عن أي شيء، وتحرص على أن يعرف هذا وهي لن تقبل أن تتزوج جبريل آرداليوتش الا حين تقتنع بأنه لا

يضمر أية فكرة سيئة عنها، لا هو ولا أسرته ومهما يكن من أمر، فهي لا تشعر بأنها آثمة في شيء، وهي تود أن يطلع جبريل آر داليونتش على ظروف حياتها أثناء هذه السنين الخمس بمدينة بطرسبرج، وعلى صلاتها باتانازى ايفانوفتش وعلى الثروة التي استطاعت أن تجنيها؛ وهي أخيرة أن قبلت هذا المال، فلا تقبله ثمنا لعارها الذي لا تحس أنها مسئولة عنه، وانما تقبله تعويضا عن تحطيم حياتها وقد بلغت من الحماسة والحرارة والحميا أثناء تدفق لسانها بهذا الكلام كله (وذلك طبيعى جدة على كل حال) أن الجنرال ايبانشين شعر بارتياح كبير، واعتبر القضية منتهية أما توتسكى، المروع الذعور إلى الآن، فانه لم يصدق هذا الكلام تصديقة تامة، وظل يخشى أن يكون تحت الأزهار أفعى ومع ذلك بدأت المباحثات بين الصديقين فكانت النقطة التي تعتمد عليها حيلتهما، أعني امكان أن توله ناستاسيا فيلسوفنا بحب جانبا، كانت هذه النقطة توضح وتتأكد شيئا بعد شيء، حتى أن توتسكى نفسه كان يصل في بعض الأحيان إلى الاعتقاد بحظ من النجاح وفي أثناء ذلك جرى حديث بين ناستاسيا فيليبوفنا وبين جانيا، حديث لم يتبادلا فيه الا كلاما قليلا، فكأن حياء ناستاسيا وخفرها كانا يصدانها عن الكلام؛ ومع ذلك قبلت حبه وارتضته، لكنها أصرت على أن تعلن له أنها لا تريد أن ترتبط بأي عهد، وأنها الى أن يتم الزواج اذا تم تحتفظ لنفسها

بحرية أن تقول لا حتى آخر لحظة؛ ومنحت جانيا هذه الحرية نفسها على كل حال وسرعان ما علم جانيا علم اليقين، بفضل مصادفة مواتية، أن اعتراض أسرته كلها على هذا الزواج، واعتراضها على شخص ناستاسيا فيليبوفنا نفسها، وهو اعتراض كانت تفضحه مشاجرات متكررة، كانت ناستاسيا فيليوفنا تعرفه بجميع تفاصيله ومع ذلك لم تكلمه عنه في يوم من الأيام، مع أنه كان يتوقع أن تفاتحه فيه كل يوم على أن هناك أشياء كثيرة أخرى ينبغي أن نقولها عن الظروف والأحداث التي أثارها مشروع الزواج هذا، والتي أثارتها المباحثات بين الصديقين، ولكننا قد استبقنا منذ الآن أمور كثيرة، لا سيما وأن بعض الظروف نم تكن تبدو في ذلك الأوان الا شائعات غامضة جدا من ذلك ما قيل من أن توتسكى قد علم، لا أدري من أين، أن ناستاسيا فيليبوفنا أصبحت لها علاقات سرية غير محددة المعالم ولا واضحة الغايات بالآنسات ايبانتشين؛ وهي شائعة لا يمكن أن يصدقها العقل وفي مقابل هذا صدق توتسكى رغم ارادته شائعة أخرى أخذت تسبب له في الليل احلاما ثقيلة وكوابيس مرهقة: لقد أكد له بعضهم أن ناستاسيا فيليوفنا كانت على علم كامل بأن جانيا لن يتزوجها الا في سبيل المال وحده، وانه امرؤ حقير النفس، أسود القلب، شديد الطمع، قليل الصبر، حسود، لا يحب الا نفسه، ولا يسعى الا وراء مصلحته؛ وقيل ان ناستاسيا قد علمت كذلك أن

جانبا أن كان قد سعى إلى الظفر بها في الماضي عاشقة مولها، فانه منذ اليوم الذي قرر فيه الصديقان أن يستغلا غرامه لمصلحتها ببيعه ناستاسيا فيليبوفنا زوجة شرعية له، قد أخذ يكرهها كرها شديدة ويبغضها بغضة قوية فكأنها جاثوم أو كابوس؛ ثم اختلطت الشهوة والكراهية في نفسه اختلاطة عجيبة، حتى اذا قرر أخيرة، بعد تردد طويل أليم، أن يتزوج هذه « المرأة الفاسدة،، كان في قرارة نفسه قد حلف لينتقمن منها شر انتقام، وليجعلها تدفع ثمن ذلك كله غالية باهظة وقيل ان ناستاسيا فيديوفنا كانت على علم بكل شيء، وأنها كانت تدر في الخفاء أمرة وقد بلغ توتسكى من الخوف أنه أصبح لا يطلع ايبانتشين على هواجسه وعلى ما يحس به من نذر الشؤم ومع ذلك كان في بعض اللحظات يسترد رباطة جأشه ويستعيد تفاؤله ونشاطه وانتعاشه، كما يقع هذا لكل انسان ودلك ما حدث له، مثلا، حين وعدت ناستاسيا فيلسوفنا اصدقاءها أخيرة بأن تعلن لهم كلمتها الأخيرة في مساء الاحتفال بعيد ميلادها غير أن هناك شائعة أخرى هي أغرب الشائعات وأبعدها عن أن يصدقها العقل، شائعة تتعلق بالمحترم ايفان فيدوروفتش نفسه، كانت تأكد شيئا بعد شيء وا أسفاه كان ذلك كله يبدو من النظرة الأولى جنونا محضة لقد كان من الصعب على المرء أن يصدق أن رجلا مثل ايفان فيدوروفتش، يمكنه في ختام حياته المشرفة الكريمة، مع ما يملكه من سلامة

الحس ورجاحة العقل وسعة التجربة وغنى الخبرة وما إلى ذلك، أن يقع هو نفسه في غرام ناستاسيا فيليبوفنا، وأن تبلغ نزوته هذه حدا يشبه أن يكون حد الوله العنيف والهوى الجارف ماذا كان يأمل؟ إن من الصعب على المرء أن يجيب عن هذا السؤال ولعل ايفان فيدوروفتش كان يعول على على التواطؤ مع جانبا ولقد كان توتسكى، على كل حال، يشتبه في وجود نوع من الاتفاق المضمر بين الجنرال وجانيا، وهو اتفاق قائم على فهم متبادل ومن المعروف أن الرجل الذي يستسلم لهوى جارف، ولا سيما اذا كان متقدمة في السن، قد يعمى عماوة كاملة، فاذا هو يرى أملا حيث لا أمل، واذا هو يفقد سداد الرأي وصدق الحكم فقدة تامة، واذا هو يتصرف تصرف صبى غر مهما يكن عظيم الذكاء كان معروفا أن الجنرال قد هيأ لعيد ميلاد ناستاسيا فليوفنا عقدة من اللؤلؤ كلفه مبلغا ضخمة، وانه كان يعول على هذه الهدية كثيرة، رغم علمه بأن ناستاسيا فيليبوفنا امرأة زاهدة في المنفعة وكان في عشية عيد الميلاد محمومة من شدة الاضطراب، ولكنه استطاع أن يحسن اخفاء عواطفه بحذق وبراعة وعن ذلك العقد من اللؤلؤ انما كانت الجنرالة ايبانتشين قد سمعت الناس يتحدثون صحيح أن اليزابت برو كوفيفنا قد استطاعت منذ مدة طويلة أن تدرك خفة زوجها وطيشه، حتى لقد ألفت فيه هذه الخفة وهذا الطيش واعتادت عليهما بعض الاعتياد ولكن لم يكن في

وسعها طبعا أن تدع لحادث خطير كهذا الحادث أن يتم ان حكاية اللؤلؤ هذه تهمها إلى أبعد حد وقد أدرك الجنرال الأمر في الوقت المناسب أنه منذ الليلة البارحة قد سمع بضع كلمات ذات دلالة، وهو يوجس أن مناقشة حاسمة ستقوم اليوم لهذا السبب كان الجنرال، في هذا الصباح الذي تبدأ فيه قصتنا، لا يشعر بأي رغبة في أن يتناول طعام الإفطار مع الأسرة ولذلك كان قد قرر، حتى قبل وصول الأمير، أن ينصرف من البيت بحجة العمل وكانت كلمة الانصراف تعني عند الجنرال في بعض الأحيان الفراركان لا يطمع في أكثر من أن يقضى النهار، ولا سيما السهرة، بدون حادث ينص عليه صفوه وفجأة وصل الأمير في هذا الوقت المناسب قال الجنرال لنفسه وهو يدخل على زوجته الله أرسله، كانت الجنرالة شديدة الاعتزاز بنبل محتدها ففي وسعك أن تتخيل انفعالها حين علمت، دون أي تمهيد، ان ذلك الأمير ميشكين نفسه، الرجل الأخير من سلالة أسرتها، الذي سبق أن سمعت عنه أشياء غامضة، ليس الا شابا مسكينا أبله، يكاد يكون معوزا، ويضطره فقره الى قبول مساعدة أو معونة وقد حرص الجنرال على أن يوقظ في نفس زوجته انفعالا قويا وأن يبعث فيها اهتماما شديدا، ليصرفها عن الموضوع الذي كان يشغل بالها، ويتحاشي بذلك أن تخوض في موضوع عقد اللؤلؤ وحين تكون الجنرالة في حالات قصوى، فانها تحملق بعينيها، وترد جسمها إلى

وراء، وتأخذ تنظر إلى أمام زائفة الهيئة لا تقول كلمة واحدة هي امرأة فارعة القوام؛ في سن زوجها؛ شعرها أسمر قد ملأه الشيب لكنه ما يزال كثيفا؛ أنفها محدودب قليلا؛ وجهها ضامر نحيل أصفر؛ خداها خاسفتان؛ شفتاها رقيقتان منضمتان؛ جبينها عال لكنه ضيق؛ عيناها شهباوان واسعتان لهما في بعض الأحيان تعبير لا يتوقعه المرء البتة وقد ألفت منذ القديم أن تعتقد أن لنظرتها تأثير كبيرة، ثم بقيت لها هذه القناعة إلى الأبد أن أستقبله؟ تريد مني أن أستقبله الآن؟ فورا؟ كذلك قالت الجنرالة محملقة بكل ما أوتيت من قوة، محدقة إلى ايفان فيدوروفتش النشيط الذي كان يتحرك حولها أسرع الزوج يجيبها موضحا لا حاجة بك إلى كثير من الاحتفال ومن التقيد بالمراسم معه، اذا كنت تريدين أن تريه يا عزيزتى انه لطفل حقا، بل انه ليثير بعض الشفقة أنه مصاب بنوبات مرض لا أدري ما هو لقد وصل الآن من سويسرا مرتديا ثيابا غريبة كأنها على الزى الألماني، وليس معه قرش واحد، حتى ليكاد يذرف دموعا أعطيته خمسة وعشرين روبلا، وآمل أن أجد له عملا كتابيا صغيرا وأرجو كن، يا سيداتى، أن تطعمنه، فانه ليخيل إلى أنه فوق ذلك جائع جدا تابعت الجنرالة كلامها تقول بتلك اللهجة نفسها : انك لتدهشني جائع وذو نوبات؟ نوبات ماذا؟ أوه النوبات لا يصاب بها في أحيان كثيرة؛ ثم انه يكاد يكون طفلا، رغم أنه مثقف قال الجنرال ذلك ثم التفت

نحو بناته مرة أخرى وأضاف نويت يا سيداتى أن أجرى له امتحانا صغيرا ليس ضارا أن نعرف ما هو قادر عليه قالت الجنرالة متحيرا أعمق التحير، وهي لا تنفك تجيل عينيها متنقلة بهما من زوجها إلى بناتها ومن بناتها إلى زوجها امتنان؟ آه عزيزتي لا تولى هذا الأمر شأنا كبيرا، ولا تقيمي له أي وزن الخلاصة: افعلى ما يحلو لك لقد قام في ذهني أن أستقبله استقبالا لطيفة، وأن أدخله إلى الأسرة، لأن ذلك بدا لي عملا حسنا وفعلا طيبا أن تدخله الينا؟ آت من سويسرا ما قيمة أن يكون آتيا من سويسرا؟

ـ على كل حال، لن يكون الا ما تريدين ولئن تكلمت في هذا الأمر، فلأن الشاب يحمل اسم أسرتك، وقد يكون قريبا لك؛ هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فانه لا يعرف حقا أين يمكنه أن يوسد رأسه حتى لقد اعتقدت أن أمره سيعنيك بعض الشيء، لأنه واحد من السلالة على كل حال قالت البنت الكبرى، الكسندرا طبعا يا ماما، اذا كان في وسعنا أن نستقبله بلا احتفال أو كلفة أو تقيد بالمراسم، وما دام جائعا بعد رحلة طويلة ذلك الطول، فلماذا لا ندعوه إلى أن يطعم معنا؟ لا سيما إذا كان لا يعرف إلى أين يذهب وهو فوق ذلك طفل حقيقى فيما يبدو، حتى يمكن أن يلعب المرء لعبة كولان مايار، لعبة كولان مايار،؟ ما هذا الكلام؟ قاطعتها آجلايا تقول بشيء من الحزن

أو ماما كفاك تظاهر، أرجوك فلم تستطع البنت الثانية، ذات الطبع الضاحك، أن تكظم مرحها، فاذا هي تنفجر مقهقهة وقالت آجلايا جازمة أرسل اليه أن يجيء يا بابا فرن الجنرال الجرس وأصدر أمره بادخال الأمير قالت الجنرالة بحزم ولكن على شرط أن نعقد حول عنقه منشفة حين يجلس إلى المائدة نادوا فيدور أو نادوا مافرا ليكون أحد وراءه يراقبه أثناء تناوله الطعام أهو هادىء على الأقل حين توافيه تلك النوبات؟ ألا يحرك يديه باشارات؟ بالعكس انه مهذب لطيف يتقن آداب المجتمع ويتقيد بها كل ما هنالك أنه قد يكون بسيطا ساذجا في بعض الأحيان ها هو ذا بنفسه على كل حال أقدم اليك الأمير ميشكين، آخر من يحمل اسم هذه السلالة، ولعله قريب لنا، فاستقبليه بما يجب له من عاطفة سيهيأ الافطار يا أمير، فشرفنا أما أنا فأرجوك أن تعذرني لأنني مستعجلة جدا، حتى لقد تأخرت قالت الجنرالة بهيئة وقور لا نجهل المكان الذي تستعجل الذهاب اليه مستعجل جدا، مستعجلة جدا يا عزيزتي، حتى لقد تأخرت؟ ناولنه دفاتركن، يا سيداتى، ليكتب لكن شيئا انه خطاط ذو موهبة نادرة لقد خط لى منذ برهة في مكتبى عبارة: ان المطران بافنوس قد مهر هذا بتوقيعه إلى اللقاء، إلى اللقاء قالت الجنرالة بافنوس؟ مطران؟ وبينما كان زوجها يتقهقر إلى وراء، صرخت تقول ملحة محتدة احتدادا متزايدا يشوبه قلق انتظر إلى أين أنت ذاهب؟

من هو بافنوس هذا؟ نعم نعم يا عزيزتي، كان في الزمان القديم مطران بهذا الاسم ولكن الكونت ينتظرني منذ مدة طويلة، وهو الذي حدد لي الساعة يا أمير، إلى لقاء قريب وانسحبت الجنرالة مسرعة قالت اليزابت برو كوفيفنا مغتاظة وهي تنقل نظرتها الحانقة نحو الأمير أنا أعرف أي كونت يعني ثم أضافت تقول محاولة أن تتذكر وقد لاح في وجهها تبرم واحتقارهيه ما هي المسألة؟ من هو ذلك المطران؟ حاولت ألكسندرا أن تدخل بينما كانت أجلايا تخبط بقدمها الأرض نافذة الصبر وقالت ماما فقالت الجنرالة جازمة لا تقاطعيني يا ألكسندرا أنا أيضا أريد أن أعرف اجلس هنا يا أمير، على الكرسي الذي يقع قبالتي لا بل اجلس هنا، في الشمس؛ اقترب من الضوء لأراك رؤية أوضح طيب والآن حدثني عن ذلك المطران بدأ الأمير يتكلم وقد ظهر في وجهه الانتباه والجد هو المطران بافنوس بافنوس؟ عجيب هيه ثم ماذا؟ كانت الجنرالة تلقي هذه الأسئلة نافدة الصبر دون أن تحول عنه بصرها، وكانت تصاحب كل كلمة من كلمات جواب الأمير بهزة من رأسها. قال الأمير عاش المطران بافنوس في القرن الرابع عشر، وكان يرأس صومعة للنسك على نهر الفولجا في الاقليم الذي يسمى الآن اقليم كوستروما وقد اشتهر بحياته التقية الورعة، وذهب مرارة إلى بلاد التتار لحل أمور مختلفة ففي مناسبة من تلك المناسبات ذيل احدى الوثائق بتوقيعه،

وقد رأيت أنا نسخة منها، فأعجبني الخط، فتعلمت محاكاته ومنذ قليل حين أراد الجنرال أن يرى خطى ليجد لى عملا، كتبت عدة عبارات بأحرف مختلفة، فكانت احدى هذه العبارات آن المطران بافنوس قد وقع هذا بخط يده ، وقد كتبتها على طريقة باغنوس في الخط، فأعجب الجنرال بها كثيرا، والـى هذا انما أشـار منذ هنيهة قالت الجنرالة: يا آجلايا، تذكرى: بافنوس؛ بل سجلي، فأنا أنسى كل شيء لكني أعترف بأني كنت أتوقع شيئا أهم من هذا أين ذلك التوقيع؟ أظن أنه بقي على المنضدة في مكتب الأمير هاتونى به حالا لكنني أستطيع أن أخطة لك مرة أخـرى اذا ششت قالت ألكسندرا طبعا يا ماما؛ والأفضل أن نأكل الآن، فاننا جميعا جياع قالت الجنرالة طيب تعال يا أمير: أنت جائع جدا؟ نعم، بدأت أشعر الآن بجوع؛ واني لأشكرك أجزل الشكر حسن جدا أنك مؤدب مهذب؛ واني لألاحظ أنك لست غريبا إلى الحد الذي أرادوا أن يصلوا اليه في تصوير غرابتك تعال، اجلس هنا، قبالتي، لأستطيع أن أنظر اليك كذلك قالت له متحركة منشغلة مهتمة، حين صاروا جميعا في قاعة الطعام ألكسندرا، آديلائيد، اهتما بالأمير؟ ألا تريان أنه ليس مريض إلى الحد الذي كنا في غير حاجة إلى المنشفة قل لي يا أمير: هل كانوا يعقدون منشفة حول رقبتك؟ نعم، أظن، في الماضي، حين كان عمري سبع سنين أما الآن فقد تعودت أن أضع المنشفة على ركبتي

هذا ما يجب ونوباتك؟ قال الأمير مدهوشا بعض الدهشة نوباتى؟ أصبحت الآن نادرة مع ذلك لا أدري يقال ان المناخ هنا لن يكون مناسبة لحالتي الصحية قالت الجنرالة مخاطبة بناتها وهي ما تزال تصاحب كل كلمة من كلمات الأمير بهزة من رأسها انه يجيد الكلام لم أكن أتوقع ذلك اذن لم يكن كل ما قيل الا أكاذيب وترهات باطلة، كالعادة ثم عادت تخاطب الأمير فقالت له كل يا أمير، وقص علينا أين ولدت وأين نشأت وترعرعت وتربيت أريد أن أعرف كل شيء أن أمرك يهمني كثيرا شكرها الأمير، وأخذ يكرر ما سبق أن رواه مرارا في تلك الصبيحة من النهار أخذ يكرره وهو يأكل بشهية كبيرة ازداد ارتياح الجنرالة ورضاها شيئا بعد شيء وكانت البنات أيضا تصغي إلى حديث الأمير بانتباه واستعرضت القرابة، فاتضح أن الأمير يعرف شجرة النسب معرفة جيدة، ولكنهم رغم جميع الجهود لم يتمكنوا من العثور على أي قرابة تربط الأمير بالجنرالة كل ما هنالك أنهم يستطيعون أن يتصوروا أنه قد كان بين الأسلاف الأبعدين قرابة غامضة القرابة التي تكون بين أبناء الأعمام وقد سرت الجنرالة كثيرا بالخوض في هذا الموضوع الصعب، لأنها رغم كل رغبتها، فلما أتيح لها قبل اليوم أن تتحدث عن أجدادها، لذلك نهضت عن المائدة منتعشا انتعاشا كبيرا قالت الأفضل أن نمضي إلى قاعة الاجتماع، فستحمل القهوة الينا هناك وأضافت تشرح للأمير وهي تجره هي

غرفة مشتركة لنا جميعا،أنا يسقط الشغل من بين يدي، ولا أفلح في انجاز شيء ها نحن أولاء وصلنا اجلس يا أمير، قرب المدفأة، واقصص علينا أريد أن أعرف كيف تحكي أريد أن أتأكد من ذلك، فاذا رأيت الأميرة العجوز بيلو كونسكايا حدثتها عنك أريد أن تثير اهتمام الجميع فهيا تكلم قالت أديلائيد التي كانت في أثناء ذلك قد ركزت حاملة لوحاتها وتناولت فراشها وصحن ألوانها وأخذت تنقل عن صورة مطبوعة منظرا طبيعيا كانت قد بدأت تصويره منذ مدة طويلة، قالت ماما، يصعب على الانسان كثيرا أن يحكي ويقص في ظروف كهذه الظروف التي تحيطين بها الأمير وجلست الكسندرا وآجلايا احداهما إلى جانب الأخرى على أريكة صغيرة، وقد عقدت كل منهما يديها على صدرها، واستعدت للاصغاء إلى الحديث ولاحظ الأمير أن انتباه الجميع منصرف اليه منصب عليه قالت آجلايا ما كنت لأحكي شيئا أو لأقص شيئا لو أمرت بهذا أمرا على هذا النحو فقالت الجنرالة لماذا؟

ـ أي شيء خارق في هذا؟ ما عسى يمنعه من الكلام؟ ان له لسانا أريد أن أعرف كيف يجيد الحديث اقصص ما تشاء قل لنا هل أعجبتك سويسرا، صف لنا انطباعك الأول هناك سوف ترين: انه سيبدأ، وسيجد الحديث أيما اجادة بدأ الأمير الكلام فقال كان

انطباعي الأول قويا جدا فقاطعته الجنرالة النافذة الصبر، متلفتة إلى بناتها قائلة لهن هل رأيتن؟ هل رأيتن؟ لقد بدأ فأوقفتها ألكسندرا قائلة دعيه يتكلم على الأقل يا ماما وهمست تقول لأختها آجلايا قد يكون هذا الأمير مكارا كبيرا، لا أبله البتة فأجابتها آجلايا تقول هذه حقيقة أكيدة لاحظتها منذ مدة وانها لدناءة منه أن يمثل دور الأبله هل يظن أنه يجني من ذلك نفعا ما؟ استأنف الأمير كلامه فقال كان انطباعي الأول قويا جدا حين أخذوني من روسيا واجتزنا مدنا ألمانية، كنت لا أزيد على أن أنظر صامتا، وكنت لا ألقى أي سؤال ما زلت أذكر هذا وقد حدث ذلك في أعقاب نوبات من مرضى عنيفة جدا أليمة جدا وقد ألفت، في أوان النوبات، حين يكثر تعاقبها، أن أصبح في حالة انصعاق، فأفقد ذاكرتي فقدانا تاما، وينقطع مجرى المنطق في أفكاري، رغم أن فكرى يظل يعمل فلا يتسلسل في ذهنى أكثر من فكرتين أو ثلاث أو ذلك هو على كل حال الانطباع الذي بقى في نفسي حتى اذا هدأت النوبة رجعت سليما معافى، قويا كقوتى الآن أذكر أنني أحسست حينذاك بحزن لا يطاق، حتى لقد استبدت بى رغبة في البكاء كنت لا أزيد على أن أشعر بدهشة وقلق لقد فجأني كثيرا أن كل شيء حولى كان أجنبيا نعم، لقد أصبحت في الخارج فهمت ذلك ان هذا الخارج، كله يهوى بي إلى قاع الحزن واليأس ثم لم أخرج من تلك الظلمات خروجا كاملا ما زلت أذكر

هذا الا في المساء، بمدينة بال، عند وصولنا إلى سويسرا وان نهقة حمار في ميدان السوق هي التي أيقظتني من انصعاقى لقد أثرت نهقة الحمار في نفسي تأثيرا قويا، وأعجبتني اعجابا شديدا، لا أدري لماذا؟ وفي الوقت نفسه كان كل شيء في رأسي يضيء. قالت الجنرالة حمار؟ غريب ولكن لا لا غرابة ان بيننا نحن معشر النساء من يقعن في غرام حمار أضافت الجنرالة هذه الجملة الأخيرة، وهي تنظر شبه غاضبة إلى الفتيات، اللواتي كن يضحكن وأردفت تقول وذلك شيء تكلمت عنه أساطير اليونان الأقدمين أكمل كلامك يا أمير تابع الأمير حديثه فقال ومنذ ذلك الوقت أصبحت أحب الحمير حبا عظيما أصبح هذا عندي عاطفة حقيقية صادقة وأخذت أجمع معلومات عن الحمير لم أكن قد رأيت حمارا قبل ذلك اليوم؛ وسرعان ما عرفت أن الحمار حيوان مفيد جدا، وأنه قوى نشيط صبور قنوع ذو مقاومة وجلد وبواسطة هذا الحمار أخذت سويسرا كلها تعجبني، فأنهى ذلك حزني هذا كله غريب حقا، ولكن دعنا ولننتقل إلى موضوع آخر ما الذي يضحكك يا أجلايا، وأنت يا أديلايد؟ لقد تحدث الأمير عن الحمار فأجاد الحديث هو رآه بنفسه، فماذا رأيت أنت؟ أنت لم تسافرى يوما إلى الخارج قالت أديلائيد سبق أن رأيت حمارا يا ماما وأضافت أجلايا وأنا قد سمعت حمارا وأخذت البنات الثلاث تضحك وضحك الأمير أيضا قالت الجنرالة هذا منكن شر وسوء

اعذرهن يا أمير، فانهن بنات طيبات القلب، واني لأشاجرهن دائما، لكنني أحبهن هن طائشات العقل مجنونات قال الأمير ضاحكا لماذا؟ لو كنت في مكانهن لما فوت الفرصة أيضا على كل حال، أنا أعشق الحمار: الحمار شخص طيب مفيد قالت الجنرالة وأنت يا أمير، هل أنت طيب؟ أسألك عن هذا من باب حب الاستطلاع. وأخذ الجميع يضحكون من جديد وهتفت الجنرالة تقول أنا أقصد ذلك الحمار اللعين، ولم يخطر الأمير ببالى ثق يا أمير انني لم أعقد أي مقارنة؟ هكذا ساعدها الأمير في اتمام جملتها، وأضاف يقول وهو ما يزال يضحك لم يساورني أي شك في هذا قالت الجنرالة حسن جدا أنك تضحك انني أدرك من هذا أنك شاب طيب جدا أجاب الأمير يتفق لى ألا أكون كذلك قالت الجنرالة على نحو غير متوقع وأنا أيضا طيبة؛ بل قل ان شئت اني طيبة دائمة، وذلك عيبى الوحيد، لأن على الانسان ألا يكون طيبا على الدوام انني كثيرا ما أغضب منهن، ومن ايفان فيدوروفتش خاصة، ولكن المؤسف المحزن هو أننى لا أكون في لحظة من اللحظات طيبة كطيبتي أثناء الغضب منذ برهة، قبل وصولك، كنت قد غضبت فتظاهرت بأنني لا أفهم شيئا ذلك يحدث إلى أحيانا كما يحدث للأطفال لقد لقنتنى آجلايا درسا شكرا لك على هذا الدرس يا آجلايا على كل حال، ما أسخف هذا كله ترهات في ترهات ما أنا بالغبية إلى الحد الذي يبدو على، أو إلى الحد

الذي تريد أن توهم به بناتى ان لى ارادة قوية وعزيمة صلبة، ولست أتحرج كثيرة تعالى إلى هنا يا آجلايا وقبلينى ثم قالت الجنرالة حين قبلتها آجلايا على يدها بكثير من العاطفة وكفاك عواطف سخيفة ثم التفتت إلى الأمير تقول له واصل حديثك يا أمير قد تتذكر شيئا يشوق الحديث عنه أكثر مما يشوق الحديث عن ذلك الحمار قالت آجلايا ما زلت لا أفهم كيف يستطيع المرء أن يحكي شيئا على هذا النحو لو طلب الى ما يطلب اليه لما وجدت شيئا أقوله ولكن الأمير سيجد ما يقوله، لأن الأمير ذكي إلى أبعد حدود الذكاء؛ هو أذكى منك عشر مرات على الأقل، أو اثنتي عشرة مرة 0 أرجو أن تدر كى هذا من الآن برهن لهن على صحة قولى يا أمير، وأكمل أما الحمار فنستطيع فعلا أن ندعه الآن وشأنه هيه، ماذا رأيت في الخارج، عدا ذلك الحمار؟ قالت ألكسندرا كان الحديث عن الحمار ذكيا جدا كذلك لقد وصف لنا الأمير حالته المرضية وصفا شائقا، وذكر لنا كيف استرد حبه للأشياء على أثر صدمة خارجية لقد طالما اشتقت أن أعرف كيف يفقد الانسان عقله وكيف يمكن أن يسترده، ولا سيما حين يتم ذلك على نحو مباغت صاحت الجنرالة تقول أليس كذلك؟ أرى الآن أنه يتفق لك أيضا أن تكوني ذكية في بعض الأحيان والآن كفي ضحكا أظن يا أمير أنك توقفت عن الكلام حين وصلت إلى وصف الطبيعة السويسرية، فماذا عن الطبيعة بسويسرا؟ قال الأمير

وصلنا إلى لوسيرن، وقادوني في نزهة على البحيرة كنت أحس أن هذا جميل، ومع ذلك كنت منقبض الصدر سألت ألكسندرا لماذا؟ فأجاب الأمير: أنا نفسي لا أفهم علة ذلك اني أشعر دائما بانقباض في صدرى، وتمتلىء نفسي قلقا حين أرى منظرا من هذا النوع أول مرة على كل حال، كان هذا يحدث أيام كنت ما أزال مريضا أما أنا فكان يسعدني أن أرى ذلك كله اني لأتساءل هل ستعزم أمرنا على السفر إلى الخارج في يوم من الأيام لقد أصبحت منذ عامين لا أجد موضوعا للوحة أرسمها: وصف الجنوب والشرق منذ زمن طويل يا أمير، هلا وجدت لي موضوع لوحة ارسمها قال الأمير لست في هذا المجال على شيء من خبرة يخيل إلى أنه ليس على الرسام الا أن ينظر ويرسم أنا لا أحسن النظر قاطعتهما الجنرالة قائلة ما بالكما تتكلمان في ألغاز؟

ـ لست أفهم مما تقولان شيئا ما هذا الذي تزعمينه؟لست أحسن النظر، ان لك عينين فما عليك اذن الا أن تنظري واذا لم تستطيعي أن تنظري هنا، فلن تتعلمي في الخارج أن تنظرى الأفضل أن تقول لنا يا أمير كيف كنت تنظر أنت؟ قالت آديلائيد هذا أفضل ان الأمير قد تعلم في الخارج كيف يحسن النظر لا أدري كثيرا أنا لم أزد هنالك على أن أسترد صحتى لا أدري هل تعلمت أن أنظرعلى كل حال

كنت سعيدا طوال الوقت هتفت آجلايا كنت سعيدا؟ أنت تعرف كيف تكون سعيدا؟ فكيف تستطيع أن تقول اذن انك لم تتعلم أن تنظر؟ لا بد أن تكون قادرا على أن تعلمنا ما تعلمت؟ قالت أديلائيد وهي ما تزال تضحك نعم، علمنا ما تعلمت قال الأمير وهو يشاركهن الضحك لا أستطيع أن أعلم أحدا شيئا انني طوال الوقت الذي قضيته في الخارج تقريبا، قد عشت في تلك القرية السويسرية الصغيرة، ولم أكن أتركها الا في القليل النادر لأقوم برحلة قصيرة فماذا أستطيع أن أعلمكن؟ كل ما ظفرت به في البداية هو أنني استطعت ألا أشعر بملل وسام وتحسنت صحتى تحسنا سريعا وبعد ذلك أصبح كل يوم من الأيام ثمينا في نظري، أثمن فأثمن، وكنت أدرك ذلك ادراكا تاما كنت أرقد في المساء سعيدا جدا، وأستيقظ في الصباح أشد سعادة أيضا أما سبب ذلك فلا أدري كيف أعبر عنه سألته ألكسندرا هل بلغت من السعادة أنك أصبحت لا تتوق إلى شيء في غير ذلك المكان؟ بلى في البداية شعرت بذلك النوع من النداء، فكنت أحس من ذلك بقلق وغم كنت أفكر في المستقبل، وأتمنى أن أستشرف مصيري وكنت في بعض اللحظات اضطرب اضطرابا كبيرا ان هناك لحظات من هذا النوع كما تعلمين، ولا سيما في العزلة كان في تلك القرية الصغيرة شلال صغير نحيل يشبه أن يكون خيطا من ماء، يسقط من علو شاهق، ويكاد يكون عموديا، وهو أبيض مزبد صاخب انه يسقط من

علو شاهق جدا، ولكن المرء لا يشعر بالارتفاع الذي يسقط منه ان المسافة تبلغ نصف فرسخ علوا، ولكن المرء يحسها خمسين خطوة كنت أحب أن اسمع صوت سقوط الماء ليلا وفي تلك اللحظات انما كان يزداد اضطرابى وفي بعض الأحيان أيضا، أثناء النهار، على مكان ما من الجبل، كنت أتوقف وحيدا بعد صعود طويل من حولى أشجار صنوبر ضخمة قديمة تفوح منها رائحة الراتينج وفي بعيد، على مستوى أدني، تلوح قريتنا الصغيرة التي لا تكاد ترى والشمس تسطع والسماء زرقاء والصمت مطبق فهناك كنت أحس أحيانا ذلك النداء نحو المجهول، وأقدر أنى لو مضيت إلى أمام قدما، وأوغلت إلى بعيد، إلى بعيد، وتجاوزت ذلك الخط الذي تلتقي عنده الأرض بالسماء، فسأجد جوابا عن كل شيء، وسرعان ما تتكشف لى حياة جديدة، أكثف كثافة وأعنف عنفا وأحر حرارة من الحياة عندنا ألف مرة وكنت أحلم بمدينة كبرى مثل نابولي، ملأى بالقصور، وبالصخب، وبالحركة، وبالحياة ما أكثر الأشياء التي حلمت بها ليس هناك شيء لم أحلم به وبعد ذلك خيل إلى أن المرء يستطيع حتى في السجن أن يجد حياة عريضة واسعة قالت آجلايا هذه الفكرة الأخيرة المحمودة سبق أن قرأتها في كتاب مختارات حين كنت في الثانية عشرة من عمرى وقالت آديلائيد هذا كله فلسفة أنت فيلسوف جئت تعلمنا الحكمة قال الأمير مبتسما قد تكونين على حق ربما كنت فيلسوفا بالفعل؛ ومن

يدري؟ لعلني أنوي أن أعلمكن الحكمة أيضا هذا جائز، جائز جدا استأنفت آجلايا كلامها فقالت فلسفتك لا تختلف، على كل حال، عن فلسفة أولامبي نيقولاي فناء أرملة الموظف التي تجيء الينا من حين إلى حين متطفلة ان المشكلة الكبرى عندها هي السعر الرخيص والقدرة على العيش بأقل نفقة، فهى لا تحسن الكلام الا عن كوبكات لاحظ أنها تملك مالا انها ماكرة جدا ذلك بعينه هو شأن حياتك العريضة الواسعة في السجن، ولعله أيضا شأن سنى سعادتك الأربع التي قضيتها في تلك القرية بائعة مدينة نابولي، ربما مع تحقيق شيء من ربح، وان لم يتجاوز الربح كوبكات قال الأمير أما عن الحياة في السجن، فمن الجائز ألا يكون كلامي صحيحا كل الصحة فانما أنا سمعت هذا الكلام من رجل قضى في السجن قرابة اثنتي عشرة سنة انه أحد المرضى الذين كان يعالجهم طبيبى. كان هذا الرجل يصاب أحيانا بنوبات، وكان كثير الحركة والاضطراب والتخبط، حتى لقد حاول أن ينتحر كانت حياته في السجن حزينة، أؤكد لكن ذلك ولكن لا شك أنها كانت تساوي أكثر من كوبكات، مع أنه لم يكن له علاقات الا بعنكبوتة وبشجرة صغيرة نبتت تحت نافذته على اني أفضل أن أقص عليكن قصة لقاء آخر تم لي في العام الماضي ان في الأمر الذي سأحكيه لكن الآن شيئا غريبا جدا، غريبة بندرة حدوثه هو رجل اقتيد مع رجال آخرين محكوم عليهم بالاعدام، اقتيد معهم إلى

المكان الذي سيتم فيه تنفيذ الحكم، وقرىء عليهم قرار المحكمة باعدامهم رميا بالرصاص لجريمة سياسية وبعد نحو عشرين دقيقة تلى عليهم قرار آخر يعفو عنهم، فيلغى حكم الاعدام ويبدله بحكم بالسجن مع الأشغال الشاقة ولكن في الفترة التي انقضت بين تلاوة الحكم الأول وتلاوة الحكم الثاني، أي خلال العشرين دقيقة أو الربع ساعة على الأقل، عاش الرجل في يقين مطلق بأنه ميت لا محالة بعد بضع لحظات ما كان أشد رغبتى الرهيبة في أن اسمعه يصف المشاعر التي أحس بها أثناء ذلك حتى لقد أخذت ألقى عليه الأسئلة تلو الأسئلة مرارا كان يتذكر كل شيء بوضوح خارق، ويؤكد أنه لن يستطيع ان ينسى تلك الدقائق في يوم من الأيام على مسافة عشرين خطوة من سقالة الاعدام التي وقف قربها الناس والجنود، كانت قد دقت في الأرض أعمدة ثلاثة، اذ كان هنالك عدة رجال محكوم عليهم بالاعدام اقتيد الثلاثة الأول نحو تلك الأعمدة، وشدوا اليها، وألبسوا لباس المحكوم عليهم بالاعدام وهو نوع من جلباب طويل أبيض؛ وعصبت أعينهم حتى لا يروا البنادق وبعد ذلك جاءت تقف، قبالة كل عمود، زمرة الجنود التي ستطلق رصاص الاعدام ان الرجل الذي أحدثكن عنه هو الثامن في الترتيب فكان عليه اذن ان يذهب إلى العمود في الفوج الثالث وجاء كاهن يبارك الرجال المحكوم عليهم بالاعدام ولم يبق لهم من الحياة الا خمس دقائق يعيشونها قال لي

الرجل ان هذه الدقائق الخمس قد بدت له طويلة طولا لا نهاية له، غنية غنى لا ينضب بدا له أنه خلال هذه الدقائق الخمس سيعيش حيوات تبلغ من الكثرة أنه ليس في حاجة، بعد، إلى التفكير في اللحظة الأخيرة، حتى لقد رتب أموره واتخذ اجراءاته على هذا الأساس، فحدد الزمان الذي سيودع فيه رفاقه ووقف عليه دقيقتين، وعين دقيقتين أخريين للتجمع على نفسه مرة أخيرة، وترك الوقت الباقي لالقاء نظرة على ما حوله وانه ليتذكر تذكرا واضحا أنه تقيد بهذا التوزيع للوقت تقيدا تاما كان سيموت وهو في السابعة والعشرين من عمره، مليئا بالصحة والعافية، زاخرا بالنشاط والقوة وانه ليتذكر أنه حين ودع رفاقه ألقى على كل منهم سؤالا لا علاقة له بالحالة الراهنة، حتى انه اهتم اهتمام كبيرا بسماع أجوبتهم حتى اذا فرغ من التوديع، جاء دور الدقيقتين اللتين نذرهما للتجمع على نفسه، من أجل التأمل كان يعلم سلفا ما الذي سيفكر فيه كان يريد أن يتصور بأقصى سرعة ممكنة وبأكبر وضوح ممكن ما سيحدث هو الآن هنا، هو الآن حي؛ وبعد ثلاث دقائق سيصبح شيئا آخر،سيصبح شخصا آخر أو شيئا آخر، ولكن ماذا يصبح؟ وأين؟ كان يقدر أنه سيعرف ذلك كله خلال هاتين الدقيقتين وفي مكان غير بعيد، كانت تقوم كنيسة تلتمع قبتها المذهبة تحت أشعة الشمس انه يتذكر الآن شدة تحديقه إلى تلك القبة والى الأشعة التي كانت تنعكس عليها حينذاك كان لا يستطيع أن

ينتزع نفسه من تأمل تلك الأشعة: كان يتراءى له أن تلك الأشعة هي طبيعته الجديدة، وأنه بعد ثلاث دقائق سيندمج فيها وينصهر معها ان تلك الحالة من عدم اليقين ومن النفور تجاه المجهول الذي سيحين حينه كانت رهيبة فظيعه ولكنه قال انه لا شيء كان أشق على نفسه عندئذ من هذه الفكرة التي كانت تدور في خاطره: ليتني أستطيع ألا أموت ليت الحياة ترد إلى ما أعظم الأبدية التي سأنعم بها اذا أمكن ذلك لأحيان كل دقيقة دهرا، ولأحصين جميع الدقائق لا أضيع منها واحدة، ولا أبدد منها واحدة وقال ان هذه الفكرة قد صارت آخر الأمر إلى نوع من جنون حتى أصبح لا يتمنى الا أن يطلق عليه الرصاص صمت الأمير فجأة وكان الجميع يتوقعون أن يستمر وأن يستخرج من كلامه نتيجة يختمه بها سألته آجلايا هل انتهيت؟ فقال الأمير وكأنه يخرج من حلم نعم انتهيت ولكن لماذا رويت هذا كله؟

ـ هكذا تذكرته في سياق الحديث قالت ألكسندرا ولكنك أنهيت الكلام انهاء مباغتا جدا لعلك كنت تنوى يا أمير أن تستخرج منه نتيجة هي أنه ليس في الحياة لحظة تقاس قيمتها بكوبكات، وان خمس دقائق من الحياة تساوى كنوز الأرض كلها في بعض الأحيان؟ هذا كله كلام محمود ولكن اسمح لي: أن ذلك الصديق الذي روي لك تلك الأهوال قد خفف الحكم عليه من حكم بالإعدام إلى حكم

بالسجن مع الأشغال الشاقة، أليس كذلك؟ معنى هذا أنه قد وهبت له تلك الحياة التي لا نهاية لها،، فكيف استعمل ذلك الغني كله من بعد؟ هل عاش يحسب الدقائق فلا يضيع منها دقيقة واحدة؟ لا لقد ذكر لي الحقيقة هو نفسه لأني سألته في هذا الموضوع انه لم يعش بهذه الطريقة أبدا، بل بدد دقائق كثيرة هذه اذن تجربة قاطعة: ليس في وسع الانسان حقا أن يعيش حياته حاسبة ولا بد أن لهذا علة وسبب قال الأمير طبعا، لا بد أن يكون لهذا علة وسبب ويخيل إلى أيضا لكني لا أستطيع مع ذلك أن أصدق سألته آجلايا هل معنى هذا أنك تتصور أن تحيا حياة فيها من الذكاء والحكمة ما ليس في حياة الآخرين؟ نعم خطر ببالى هذا في بعض الأحيان ولا يزال يخطر ببالك؟ نعم أقدر أنى أستطيعه بهذا أجاب الأمير وهو يبتسم تلك الابتسامة الخجلى العذبة نفسها، ناظرا إلى أجلايا ولكنه لم يلبث أن أخذ يضحك وهو ينظر اليها من جديد مرحا قالت اجلايا منزعجة بعض الانزعاج يا له من تواضع قال الأمير ما أعظم شجاعتكن أن تضحكن بينما أنا قد أقلقتني هذه القصة اقلاقا بلغ من القوة التي حلمت بها في نومى، ولا سيما تلك الدقائق الخمس ونظر الأمير إلى البنات مرة أخرى بانتباه وجد وسألهن مضطربا على حين فجأة، مع استمراره في التحديق إلى أعينهن أأنتن غاضبات مني؟ فصاحت الفتيات الثلاث يسألنه مدهوشات ولماذا نغضب لأن طريقتي في

الكلام تشبه طريقة القاء درس فأخذن يضحكن قال الأمير اذا كنتن قد غضبتن، فلا تغضبن بعد الآن أنا أعرف أني عشت أقل مما عاش الآخرون، واني أفهم الحياة أقل مما يفهمها الآخرون ولا بد أن طريقتي في الكلام غريبة واضطرب الأمير اضطرابا تاما قالت آجلايا بقسوة والحاح: ما دمت تقول انك كنت سعيدا، فلقد عشت أكثر من الآخرين لا أقل منهم فعلام الاعتذار والمواربة؟ ولا يقلقنك خاصة أنك تبدو كمن يلقي درسا؛ فان هذا لم يكن فيه أي انتصار أن المرء يستطيع بمثل تصوفك أن يملأ بالسعادة حياة طولها مائة سنة وسواء أأروك تنفيذ حكم بالإعدام أم مدوا اليك اصبعا صغيرا، فانك تستخرج من الأمرين كليهما فكرة فلسفية وتطل راضية سعيدة فما أسهل الحياة هكذا تدخلت الجنرالة التي ظلت تدرس وجوه المتحادثين مدة طويلة فقالت ما لي أراك غاضبا حانقا دائما؟ ثم انني لا أفهم أيضا عم تتكلمين أية اصبع صغيرة تقصدين؟ ما هذا الهذر كله؟ أن الأمير يقول كلاما حسنا، وان يكن حزينا بعض الشيء فلماذا تحاولين أن تثبطى همته وتدخلى اليأس إلى قلبه؟ لقد كان يضحك حين بدأ يتكلم، ثم هاهو ذا الآن مبهوت مصعوق لا بأس يا ماما وانها لخسارة يا أمير أنك لم تشهد تنفيذ حكم بالاعدام في يوم من الأيام، والا سألتك عن بعض الأمور أجاب الأمير شهدت تنفيذ حكم بالاعدام صاحت آجلايا رأيت اعداما؟ كان على أن أقدر ذلك

هذا يزيد الطين بلة فما دمت قد شهدت اعداما فكيف تستطيع أن تدعي أنك كنت سعيدا طوال ذلك الوقت؟ ألم أكن على حق؟ وسألت أديلائيد أكانت تنفذ في قريتكم أحكام بالاعدام اذن؟ شهدت اعداما بمدينة ليون كنت قد سافرت إلى ليون مع شنايدر وتم الاعدام يوم وصولنا عادت آجلايا تقول مصرة ملحة فماذا؟ هل أعجبك المشهد كثيرا؟ هل استخرجت منه تعاليم نافعة؟

ـ قال الأمير بل لم يعجبني البتة، حتى انني مرضت بعده قليلا لكنني أعترف بأني كنت أنظر إلى المشهد مشدودا اليه شدا قويا فكأنى لا أستطيع أن أحول بصري عنه قالت آجلايا معترفة أنا أيضا ما كان لى أن أستطيع أن أحول عنه بصرى لو أتيح لي أن أشهده الناس هنالك لا يحبون للنساء أن تجيء لترى هذه المشاهد، حتى انهم يتحدثون عن أمثال هاته النساء في الجرائد ذلك لأنهم يرون أن هذا ليس من شأن النساء، فكأنهم يريدون أن يقولوا أن هذا من شأن الرجال وحدهم وأن يبرروه يا للمنطق العجيب لا شك أنك تشاطرهم رأيهم قالت أديلانيد مقاطعة اقصص علينا حادثة تنفيذ الحكم بالإعدام قال الأمير مضطربا ما كنت لأتمنى أن أفعل هذا، اليوم واكفهر وجهه فتدخلت آجلايا اللاذعة مرة أخرى تقول: لكأن حديثك الينا في هذا الأمر يشق على نفسك ويحدث لك لا

بل لأنني عن ذلك الاعدام نفسه انما تحدثت منذ هنيهة إلى من تحدثت عنه؟ إلى خادمكم، بينما كنت أنتظر أن أستقبل قالت النساء الأربع تسأله أي خادم؟ ذلك الذي يمكث في حجرة المدخل رجل شائب أحمر الوجه، كنت في حجرة المدخل أنتظر أن يستقبلني ايفان فيدوروفتش قالت الجنرالة غريب وقالت آجلايا الأمير رجل ديموقراطي ولكن ما دمت قد قصصت الأمر على ألكسي، فانك لا تستطيع أن تضن به علينا وعادت آديلائيد تقول انني أحرص على سماع هذه القصة حرصا مطلقا قال الأمير وهو يلتفت اليها وينتعش قليلا الحق أن الأمير كان يتحمس بسرعة واضحة وثقة تامة منذ قليل، خطر ببالى فعلا، حين سألتني عن موضوع اللوحة ترسمينها، خطر ببالي فعلا أن تصورى وجه رجل محكوم عليه بالاعدام، وذلك في الدقيقة التي تسبق سقوط النصل القاطع على عنقه، أي بينما هو ما يزال واقفا على المقصلة قبل أن يضطجع على اللوح سألت أديلايد كيف؟ الوجه والوجه وحده؟ أن هذا ليكون موضوعا غريبا شاذا أين اللوحة في هذا؟ قال الأمير مصرا بحرارة لا أدري، ولكن لم لا؟ لقد رأيت في مدينة بال، منذ مدة غير طويلة، لوحة مماثلة وددت كثيرا لو أحدثك عنها وسأفعل ذلك في يوم من الأيام لقد أثرت في نفسي تأثير كبيرا قالت أديلائيد : ستحدثنا حتما عن اللوحة التي رأيتها بمدينة بال، ولكن فيما بعد أما الآن فاشرح لى لوحة الاعدام

تلك هل تستطيع أن تصفها كما تتخيلها؟ كيف يرسم ذلك الوجه؟ أيرسم الوجه وحده، هكذا؟ وكيف هو، ذلك الوجه؟ بدأ الأمير يتكلم فقال بكل ما يملك من سلامة الطوية وحسن الارادة، تقوده ذكرياته ما عدا ذلك فورا حدث ذلك قبل الموت بدقيقة ففي اللحظة التي وضع فيها قدمه على المقصلة بعد أن اجتاز السلم، في تلك اللحظة التفت نحوي، فرأيت وجهه وفهمت كل شى ولكن كيف السبيل الى وصف هذا بكلمات؟ اني لأتمنى كثيرا أن يتاح لك أنت أو أن يتاح لرسام آخر تصوير ذلك الوجه الأفضل أن تكوني قد رأيت بعينيك ولقد قدرت أنا منذ تلك اللحظة أن هذه اللوحة يمكن أن تكون مفيدة ويجب على المرء أن يطلع على كل ما سبق ذلك، كل ما سبقه، كله كان الرجل يعيش في السجن، وكان يقدر أنه سعيش أسبوعين على الأقل، قبل أن ينفذ فيه الحكم كان يعول على أن الاجراءات الشكلية طويلة،وعلى أن الأوراق سترسل إلى جهة أخرى فلا تعود منها قبل انقضاء أسبوع، ولكن اتفق أن اختصرت الاجراءات لسبب من الأسباب كان نائما في الساعة الخامسة من الصباح الوقت نهاية تشرين الأول (اكتوبر) وفي الساعة الخامسة من الصباح يكون ظلام وبرد دخل رئيس السجانين مع الحرس بغير ضجة ولا ضوضاء، ولمس كتفه لمسة خفيفة نهض الرجل على كوعه ورأى النور، فقال يسأل ماذا جرى؟، فقيل له الاعدام في الساعة العاشرة، كان لا يزال

النوم في عينيه، ولم يشأ أن يصدق أذنيه، وحاول أن يناقش، فقال ان الأوراق لا يمكن أن تصل قبل أسبوع آخر ولكنه حين استيقظ تماما كف عن النقاش وصمت ذلك ما روى هناك وقال الرجل ولكن هذه قسوة، هكذا، على حين فجأة، دفعة واحدة ثم صمت من جديد، وأصبح لا يريد أن يقول شيئا انقضت ثلاث ساعات أو أربع في الاستعدادات الكاهن، الافطار الذي يشتمل على خمرة ولحم وقهوة أليس هذا استهزاء؟

ـ لو فكرنا في الأمر مليا لرأينا أنه قسوة ومع ذلك يفعله هؤلاء لبساطة قلوبهم موقنين يقينا تاما أنه رأفة انسانية ثم بدأ تنظيف الرجل هل تعلمين ما هو التنظيف الذي يؤخذ به رجل محكوم عليه بالاعدام؟ ثم اقتيد خلال المدينة إلى المقصلة أظن أن المرء، هناك أيضا، حين يقتاد الى المقصلة، لا بد أن يعتقد أن حياة لا نهاية لطولها ما تزال أمامه يخيل إلى أنه لا بد أن يقول لنفسه أثناء الطريق حتماً ما زالت حياة طويلة أمامي بقيت ثلاثة شوارع ثم ذلك الشارع الآخر الذي فيه دكان خباز على اليمين ما يزال هناك وقت قبل أن تصل إلى دكان الخباز وفي كل جهة من حوله جمهور وصرخات وضوضاء وآلاف الوجوه والاف النظرات ان عليه أن يحتمل ذلك كله، وأن يحتمل خاصة هذه الفكرة: هؤلاء ألوف من الناس لن يعدم منهم

واحد، أما أنا فأعدم على كل حال، هذا كله يسبق الدقيقة الفاصلة ولكن ها هو ذا السم الذي يؤدي إلى المقصلة، وها هو ذا الرجل يقف أمام هذا السم فيأخذ يبكي فجأة انه مع ذلك رجل يزخر فحولة وقوة هو واحد من قطاع الطرق فيما يظهر كان الكاهن يجلس قربه طوال الطريق على العربية، ولا ينفك يكلمه أغلب الظن أن الرجل لا يسمع من كلام الكاهن شيئا لقد بدأ يصغي اليه في البداية، ولكنه منذ سمع الكلمات الأولى أصبح لا يفهم نعم، لا بد أن الأمور جرت على هذا النحو وها هو ذا يصعد السلم أخيرا أن أرجلهم موثقة فهم لا يستطيعون أن يتقدموا الا بخطى صغيرة كان الكاهن، ولعله رجل ذكى، قد كف عن تكليمه، فهو لا يريد الآن أن يمد اليه الصليب ليقبله كان الرجل منذ وصل إلى السلم قد اصفر اصفرارا شديدا، أما الآن، على المقصلة، فقد أصبح اصفراره كالبياض ولعل ساقيه كانتا لا تستطيعان حمله؛ أنهما متصلبتان كالخشب؛ ولا بد أنه كان يشعر بغثيان، كأن شيئا كان يعبث بحلقه هل أحسست بشيء من هذا يوما حين كنت تخافين، أو في لحظات مرعبة يحتفظ فيها المرء بوعيه كاملا، ولكنه يصبح بغير قدرة البتة؟ يخيل إلى أن الانسان، حين يداهمه هلاك لا سبيل إلى تحاشيه، كانهيار منزل فوقه مثلا، انما يشعر عندئذ برغبة لا تقاوم في أن يقعد مغمضا عينيه، وليحدث ما يحدث في مثل هذه اللحظات من الضعف والوهن انما كان الكاهن

يبادر، بحركة سريعة ودون كلام، فيقرب الصليب من شفتي الرجل لتقبيله، وهو صليب صغير من فضة، ذو أربعة أفرع، يقر به مرارا ود كثير، في كل لحظة فمتى لامس الصليب الشفتين فتح الرجل عينه وارتد إلى الحياة لحظات قليلة واستأنفت ساقاه السير كان يقبل الصليب في نهم وشراهة، بسرعة شديدة، كأنه يستعجل التزود بشيء ما، كيفما اتفق، ولكني لا أصدق أن يكون قادرا في تلك الدقيقة على أن يشعر بعاطفة دينية وظل الحال على هذا المنوال إلى أن رقد الرجل على لوح الخشب الذي تسقط عليه سكين المقصلة هناك أمر غريب: ان من النادر أن يغمى على المرء أثناء هذه الثواني الأخيرة بالعكس: الدماغ يحيا عندئذ حياة أشد، وأنشط، بل وأقوى، كآلة مندفعة في عملها انني أتخيل قرعات الخواطر التي تقرع الرأس وتظل ناقصة، وربما كانت غريبة بل ومضحكة لماذا الرجل الذي ينظر الى كان له ثؤلولا في جبينه والجلاد: ان أحد أزرار سترته صدىء وفي مثل هذه اللحظات يعرف المرء كل شيء، ويتذكر كل شيء هناك نقطة وحيدة لا يمكن نسيانها ولايمكن تجنبها بأغماء، وحول هذه النقطة انما يدور كل شيء تصوري أن الأمر يظل على هذا النحو إلى آخر ربع ثانية، حين يكون الرأس قد أصبح تحت السكين، فالرجل ينتظر ويعلم، انه يسمع انزلاق الحديد فجأة فوقه ذلك أنه يسمعه حتما، ولا يستطيع الا أن يسمعه لو كنت أنا الشخص

الذي ينفذ فيه الاعدام لتعمدت أن أتنصت، ولسمعت صوت انزلاق الحديد قد لا يدوم هذا الا معشار ثانية، ولكن المرء يسمع الصوت حتما تصوري أن هناك من يدعون أن الرأس، بعد انقطاعه وسقوطه، ربما ظل يعلم خلال ثانية أنه انقطع وسقط يا له من احساس وماذا لو دام هذا الاحساس خمس ثوان؟ ارسمى المقصلة بحيث لا يرى الناظر على المستوى الأول، الا تلك الدرجة الأخيرة التي يضع عليها الجاني قدمه انه يضع قدمه على هذه الدرجة، فنرى في اللوحة رأسه، ووجهه الأصفر، والصليب الذي يمده اليه الكاهن وهو ينظر، وهو يعرف كل شيء أن اللوحة هي ذلك الصليب وذلك الرأس نعم تلك هي اللوحة أما رأس الكاهن، ورأس الجلاد، ورأسا مساعديه، ورؤوس بعض المشاهدين، تحت، وكذلك أعينهم أما كل ذلك فيمكن أن يضاف إلى اللوحة خلفية أو ملحقات أو نوعا من ضباب هكذا أتخيل أنا تلك اللوحة، صمت الأمير، ونظر إلى المستمعات قالت الكسندرا وكأنها تخاطب نفسها ليس في هذا شيء من تصوف طبعا واقترحت آديلانيد والآن أقصص علينا كيف وقعت في الغرام فنظر اليها الأمير مدهوشة؛ فقالت آديلانيد بنوع من التسرع اسمع يجب عليك أيضا أن تحدثنا عن لوحة مدينة بال تلك؛ أما الآن فأريد أن أسمعك تقص علينا حكاية وقوعك في الغرام لا تدافع عن نفسك، فلقد وقعت في الغرام ثم انك متى قصصت شيئا، كففت عن أن

تكون فيلسوفا وسألته آجلايا فجأة انك متى فرغت من حكاية شيء تشعر فورا بالخزي والعار مما قلته فلماذا؟ قالت الجنرال مقاطعة بلهجة حازمة وهي تلقى على أجلايا نظرة استياء: هذا غباء منك أخيرة فقالت ألكسندرا مؤيدة نعم، هذا خروج على العقل فقالت الجنرالة ملتفتة نحو الأمير لا تصدقها يا أمير انها تفعل ذلك عامدة بدافع الخبث والمكر ليست قليلة الأدب الى هذا الحد لا تذهبن بك الظنون كل مذهب اذا رأيتهن ينا كدنك هذه المناكدة لا شك أن في رءوسهن أفكار مبينة، ولكنهن يحببنك منذ الآن أنا أعرف وجوههن قال الأمير ملحا على هذه الأقوال أنا أيضا أعرف وجوههن. قالت أديلانيد باستطلاع وفضول كيف؟ وقالت البنتان الأخريان مشوقتين أيضا ماذا تعرف من وجوهنا؟ لكن الأمير ظل صامتا جادة وانتظرت البنات جميعا جوابه ثم قال في رفق وجد سأحكي لكن هذا فيما بعد صاحت آجلايا أنت تريد حتما أن تستثير فضولنا وأن تدعنا فيه ليلة ياللتعاظم والتفاخم وأسرعت آديلائيد تقول طيب ولكن ما دمت من علماء الفراسة، فلا بد أنك كنت في يوم من الأيام عاشقا مغرما لم يخطىء اذن ظني فاقصص علينا قصة عشقك قال الأمير بذلك الصوت العذب الرصين نفسه أنا لم أكن عاشقا وانما وانما كنت سعيدا بطريقة أخرى كيف؟ بماذا؟ طيب سأحكي لكن بذلك تمتم الأمير وقد بدا عليه شرود الفكر

الفصل الثالث

بدأ الأمير يتكلم فقال: لم في نظراتكن إلى من شدة الاستطلاع ما يدل على أنكن قد تغضبن اذا أنا لم ألب رغبتكن في ارواء هذا الاستطلاع ثم أسرع يقول مبتسما لا، لا، كنت أمزح كان هناك كان هناك أطفال، وكنت أقضى وقتى كله مع الأطفال، معهم وحدهم هم أطفال القرية، هم كل العصبة التي تذهب إلى المدرسة ليس معنى هذا أنني عنيت بتعليمهم، فلقد كان يعلمهم معلم هو جول تيبو جائز انني كنت أعلمهم قليلا، ولكن المهم أني كنت أقضى وقتى كله معهم، وفي ذلك انما أنفقت السنين الأربع التي أمضيتها هناك لم أكن في حاجة إلى أي شيء آخر وكنت أقول لهم كل شيء، ولا أخفى عنهم شيئا وقد أصبح آباؤهم وأمهاتهم وأسرهم يحقدون على آخر الأمر، لأن الأولاد أصبحوا لا يستغنون عني، فهم دائما حولي أما المعلم فقد أصبح عدوى الأكبر كان لى أعداء كثيرون، بسبب الأطفال حتى أن شنايدر نفسه أخذ يلومنى فما الذي كانوا يخشونه هذه الخشية كلها؟ ان في وسع المرء أن يقول للطفل كل شيء، كل شيء لشد

ما أدهشني دائما مدى جهل الكبار بالصغار، بل ومدى جهل الآباء بأبنائهم أنفسهم. ما ينبغي أن نخفي عن الأطفال شيئ بحجة أنهم صغار، وأنهم لم يأزف الحين الذي يجب فيه أن يعلموا يا لها من فكرة مؤسفة ضارة أن الأطفال يدركون بسهولة عظيمة أن آباءهم يرونهم أصغر سنا من أن يستطيعوا الفهم، مع أنهم في الواقع يفهمون كل شيء أن الكبار يجهلون أن الطفل يستطيع حتى في أخطر ظرف أن يسدى بنصيحة رائعة وحين ينظر اليك هذا الطائر الصغير الجميل، حين ينظر اليك سعيدا واثقا، فهل تستطيع أن تغشه دون أن تشعر بالخزي؟ اني اسميهم طيور صغيرة، لأن الطيور خير ما في العالم أريد أن أقول أن الناس حقدوا على في القرية، بسبب شيء معين على وجه التخصيص أما المعلم تيبو، فقد كان حقده غيرة وحسدا كان في أول الأمر لا يزيد على أن يهز رأسه ويدهش حين يرى أن الأطفال يفهمون عني فهما واضحا ذلك الوضوح كله، مع أنهم لا يكادون يفهمون شيئا مما كان يعلمهم ثم أخذ يسخر مني ويتهكم على، حين قلت له اننا لا نملك، لا أنا ولا هو، أي شيء نعلمهم اياه، وأنهم هم الذين يستطيعون بالأحرى أن يعلمونا شيئا ما كيف أمكنه أن يغار مني وأن يشهر بى مع أنه كان يعيش هو نفسه مع الأطفال؟ ان المرأ لتبرأ نفسه وتشفي حين يعيش مع الأطفال كان يوجد في مصح شنايدر مريض من المرضى كان انسانا شقيا كل الشقاء بائسة

كل البؤس ان شقاءه يبلغ من الهول والفظاعة أنه قد لا يكون له شبيه أو نظير كان يعالج هناك معالجة مجنون ولكنني أعتقد أنه لم يكن مجنونا، وانما كان انسانا يتألم ألما رهيبا لا أكثر فذلك هو مرضه كله ليتكن تعلمن ماذا أصبح الأطفال عنده آخر الأمر ولكن الأفضل أن أحدثكن عن هذا المريض فيما بعد أما الآن فسأحكى لكن كيف بدأ هذا كله كان الأطفال في البداية لا يحبونى ذلك أنني كنت كبيرا جدا، وكنت أخرق جدا وأنا أعلم أنني لست وسيم الطلعة وهنالك عامل آخر هو أني أجنبي كان الأطفال في البداية يستهزئون بى، بل انهم رموني بالحجارة حين رأوني أقبل ماريا ولم أكن قد قبلتها من قبل الا مرة واحدة على كل حال وهنا لاحظ الأمير ابتسامات تلم بأفواه الفتيات اللواتي كن يصغين إلى حديثه، فأسرع بوقف التبسم قائلا لا، لا تضحكن لم يكن ذلك حبا ليتكن تعرفن مدى تعاسة تلك المخلوقة، اذن لرثيتن لحالها مثلي كانت من قريتنا وكانت أمها امرأة عجوزة دبت فيها الشيخوخة وأضناها الهرم وقد أذن لها عمدة القرية بأن تحول احدى نوافذ كوخها الحقير إلى بسطة تعرض عليها ما تبيعه من بريم وخيط وتبغ وصابون بقروش قليلة تكاد تقيم بها أودها وتمسك عليها رمقها كانت الأم مريضة متورمة الساقين دائما، فهي تظل قابعة وراء النافذة طول الوقت وكانت ابنتها ماريا، وهي في نحو العشرين من عمرها، ضعيفة هزيلة نحيلة لقد أضواها مرض السل منذ مدة

طويلة، ولكن ذلك لم يكن يمنعها من القيام بأعمال الخدمة المضنية القاسية طوال اليوم في دور مختلفة كانت تغسل الأرض وتنظف أواني المطبخ، وتكنس الأحواش، وتعتني بالبهائم في الحظائر وقد أغواها فرسى هو مندوب محل تجاري كان مارا بالقرية فأخذها معه ثم لم يلبث أن تركها في عرض الطريق بعد أسبوع واحد، ومضى في سبيله، فعادت إلى البيت، بعد أن تسولت واستجدت طوال الطريق، عادت رثة الأسمال، قذرة الهيئة مثقبة الحذاءين لقد ظلت تسير على قدميها أسبوعا كاملا، وتنام حيث يتاح لها أن تنام، فأصابها أثناء ذلك برد، وكانت قدماها مجرحتين مقرحتين، وكانت يداها متورمتين متشققتين ثم أنها لم تكن جميلة في يوم من الأيام، باستثناء عينيها الطيبتين العذبتين البريئتين وكانت تصمت صمتا رهيبا ذات مرة، في الماضي، أخذت تغني فجأة أثناء عملها اني لأتذكر الآن أن جميع الناس قد دهشوا عندئذ وسخروا منها هه ماريا تغني؟ فخجلت ماريا خجلا شديدا واضطربت اضطرابا كبيرا، ومنذ ذلك اليوم صمتت إلى الأبد في ذلك الأوان كان الناس ما يزالون يعاملونها معاملة لطيفة، ولكنها حين عادت مريضة ممزقة لم يشعر أحد نحوها بأي عطف أو شفقة ما أقساهم في مثل هذه الظروف ما أفظع ما تتصف به آراؤهم الراسخة وأفكارهم السابقة من عنف لا رحمة فيه ولا رأفة أمها نفسها كانت أول من استقبلها بغضب واحتقار قالت لها: لقد لطخت

شرفي بالعار كانت الأم أول من أسلمها للناس يعيرونها ويخزونها فحين عرف سكان القرية أن ماريا رجعت، تواعدوا جميعهم تقريبا على أن يلتقوا في البيت الحقير الذي تسكنه العجوز: شيوخ وأطفال ونساء وفتيات: جمهور كبير شره متعجل كانت ماريا مستلقيه على الأرض، عند قدمي العجوز، جائعة، رثة الثياب وكانت تبكى فلما رأت جميع هؤلاء الناس أخفت وجهها في شعرها المنفوش وتسطحت مزيد من التسطح كان الجميع ينظرون اليها نظرتهم إلى بهيمة نجسة دنسة العجائز يقرعونها ويشتمونها، والشباب يسخرون منها، والنساء يحقرنها ويؤنبنها وينظرن اليها باشمئزاز وتقزز نظرتهم إلى دودة عنكبوت لقد سمحت الأم بهذا كله، وكانت تهز رأسها مؤيدة محبذة كانت منذ ذلك الحين قد تفاقم مرضها تفاقما شديدا حتى لكأنها تحتضر وقد ماتت فعلا بعد شهرين كانت تعلم أنها ستموت قريبا، ولكنها إلى أن ماتت لم تفكر في أن تصالح ابنتها حتى أنها أصبحت لا تكلمها، وصارت تجبرها على أن تبيت عند المدخل، ولا تكاد تطعمها وكانت الأم في حاجة دائمة إلى وضع قدميها المريضتين في ماء ساخن، فكانت ماريا تهيىء لها ذلك كل يوم، وتعتني بها، والعجوز تقبل هذه العناية صامتة، فلم تقل لماريا كلمة لطيفة في لحظة من اللحظات لكن ماريا كانت تتحمل كل شيء وبعد ذلك، حين تعرفت إلى ماريا، لاحظت أنها هي نفسها كانت تؤيد وتحبذ المعاملة التي عوملت

بها، وتعد نفسها أحقر الناس طرا وحين أصبحت الأم لا تستطيع أن تنهض، أصبحت عجائز القرية تأتي اليها لتعتني بها واحدة بعد واحدة، كما جرت العادة بذلك ومنذ ذلك الوقت أصبح لا يطعم أحد ماريا قط، وأصبح الناس في القرية يطردونها، وأصبح الجميع يرفضون أن يعهدوا اليها بعمل، حتى لكأنهم يبصقون عليها، وصار الرجال كأنهم لا يعدونها امـرأة فهم ينطقون في حضورها كلمات بذيئة فاحشة ولكنهم في بعض الأحيان، في القليل النادر، حين يكونون سكارى يوم الأحد، يرمون لها على الأرض دريهمات قليلة ليضحكوا، فتجمعها ماريا صامتة وكانت منذ ذلك الحين قد أخذت تبصق دما وصارت أسمالها آخر الأمر قطعة ممزقة، حتى أصبحت تستحي أن تظهر للناس في القرية وكانت منذ عودتها قد أخذت تمشي حافية القدمين وفي ذلك الأوان خاصة انما اندفع الأطفال وهم عصبة يبلغ عددهم قرابة أربعين طفلا اندفعوا يهاجمونها بضراوة، حتى ليرمونها بالوحل طلبت ماريا من الراعي أن يسمح لها بحراسة الأبقار، ولكن الراعي طردها ومع ذلك أخذت تتبع القطيع إلى المرعى كل صباح، من تلقاء نفسها دون أن يأذن لها الراعي بذلك واذ لاحظ الراعى أنها تنفعه في عمله كثيرا، أصبح لا يطردهاء حتى انه أصبح يعطيها بقايا غدائه من الجبن والخبز أحيانا وكان يعد ذلك احسانا منه ونعمة كبرى يمن بها عليها وحين ماتت أمها لم يخجل الكاهن من أن يذل ماريا وأن يهينها

على مسمع ومرأى من جميع الناس كانت ماريا واقفة وراء التابوت باطمارها البالية تبكى وكان الناس قد توافدوا ذرافات لينظروا اليها سائرين وراء النعش ففي تلك اللحظة قال الكاهن، وهو رجل ما يزال شابا ولا يطمح إلى شيء الا أن يكون واعظا كبيرا، قال وهو يومىء إلى ماريا هذه هي التي كانت سبب وفاة تلك المرأة المحترمة وهذا خطأ، فالعجوز مريضة منذ سنتين ها هي ذي أمامكم لا تجرؤ أن ترفع عينيها لأن الله قد دمغها إلى الأبد، ها هي ذي حافية القدمين ممزقة الأسمال، عبرة لجميع أولئك الذين يفقدون الفضيلة ومن هي؟

ـ هي ابنتها نفسها وهلم جرا وهلم جرا تصورن أن هذا الصغار من جهة الكاهن قد أرضي جميع الناس تقريبا الا أن شيئا قد حدث في تلك اللحظة، هو أن الأطفال قد تحزبوا لماريا، لأنهم في ذلك الأوان كانوا قد انحازوا جميعا الى صفى وأخذوا يحبون ماريا اليكن تفصيل ما حدث: كنت قد أردت أن أصنع شيئا لماريا كانت ماريا في حاجة ماسة إلى شيء من مال، ولكنني لم أكن أملك هنالك قرشا واحدا لم أكن أملك الا دبوسا له فص من ماس فلما مر بالقرية بائع مقايض يتنقل من قرية إلى قرية، بعته الدبوس بثمانية فرنكات لا شك أن الدبوس تساوى قيمته أربعين فرنكا وأخذت أبحث عن ماريا، وحدي، مدة طويلة فالتقيت بها أخيرا وراء سور القرية في ممر بين

الجبال قرب شجرة فأعطيتها الثمانية فرنكات، وأوصيتها بأن تحرص عليها لأنني لا أملك غيرها ثم قبلتها وطلبت منها ألا يذهب بها الظن إلى أنني أطمع منها في سوء، ولم أقبلها لأني مغرم بها، بل لأني أرثي لحالها وأرأف بها كثيرا، وقلت لها انني لم أعدها في يوم من الأيام آثمة بل تعيسة كنت أرغب رغبة قوية في مواساتها وتعزيتها، وفي اقناعها بأنها يجب عليها ألا تشعر بالمذلة تجاه الآخرين، ولكنها لم تفهم عني حتما؛ وقد أحسست أنا بذلك على الفور، رغم أنها ظلت صامتة طول الوقت تقريبا، مطرقة إلى الأرض، خافضة عينيها، خجلى إلى أبعد حدود الخجل فلما فرغت من كلامى قبلت يدي، فأردت أن أقبل يدها توا، لكنها انتزعت يدها بقوة وفي تلك اللحظة انما فاجأتنا عصبة الأطفال وقد علمت فيما بعد أنهم كانوا يراقبوني منذ مدة طويلة أخذ الأطفال يصفرون صفيرا عاليا ويصفقون بأيديهم تصفيقا قويا، ويضحكون ضحكا مجلجلا، بينما كانت ماريا تهرب راكضة حاولت أن أكلمهم، لكنهم رموني بالحجارة وفي ذلك اليوم نفسه علم جميع الناس بالنبأ، علمت به القرية كلها وسقط هذا كله مرة أخرى على رأس ماريا فأخذوا يحتقرونها مزيدا من الاحتقار؛ حتى لقد سمعت أنهم يريدون معاقبتها، ولكن الأمر لم يتجاوز حدود الكلام ولله الحمد غير أن الأولاد لم يتركوا لها بعد ذلك اليوم راحة أصبحوا يطاردونها أكثر مما كانوا يطاردونها في أي يوم من الأيام

قبل ذلك، وأخذوا يرمونها بالوحل وصارت حين يلاحقونها تحاول أن تهرب منهم، ولكن سرعان ما كانت أنفاسها تنقطع بسبب مرض السل الذي يعيث في صدرها صاروا لا يتركونها، وأخذوا يقذفونها بأنواع السباب والشتائم حتى لقد اضطررت مرة أن أقتتل معهم وحاولت بعد ذلك أن أكلمهم وصرت أحدثهم كل يوم، في كل مناسبة فكانوا يقفون ليصغوا إلى كلامي مع استمرارهم في اطلاق الشتائم صراخا عاليا حدثتهم عن مدى الشقاء الذي تعانيه ماريا فما هي الا فترة قصيرة حتى أخذوا يكفون عن اهانتى، وتعودوا أن ينصرفوا صامتين وتوصلنا أخيرا إلى أن نتبادل الحديث لم أخف عنهم شيئا، بل حكيت لهم كل شيء، فكانوا ينصتون إلى بكثير من الاهتمام، وسرعان ما أخذوا يرثون لحال ماريا، ويشفقون عليها حتى لقد صار بعضهم يحيونها تحية لطيفة اذا التقوا بها عابرين. تلك عادة هناك: يحيى الناس بعضهم بعضا اذا تلاقوا، سواء أكانوا متعارفين أم غير متعارفين تخيلن دهشة ماريا في ذات يوم حملت اليها طفلتان طعاما، ثم جاء تا ترويان لي ذلك قالتا ان ماريا أخذت تبكى، وانهما الآن تحبانها كثيرة ولم تنقض مدة قصيرة حتى أخذ جميع الأطفال يحبونها، وحتى أخذوا يحبونني أنا أيضا في الوقت نفسه اصبحوا يجيئون إلى أحيانا كثيرة، ويطلبون منى دائما أن أحكي لهم شيئا ما أظن انني كنت أجيد الحكي، فانهم كانوا يحبون كثيرا أن يستمعوا لي

ثم أصبحت لا أدرس ولا أقرأ لا أستطيع أن أحكي لهم بعد ذلك ما درست وما قرأت وعلى هذا النحو انما انقضت السنين الثلاث الأخيرة من حياتي هناك وفيما بعد، حين أخذ على الناس ومنهم شنايدر أنني أكلم الأطفال الصغار كما لو كانوا أشخاصا كبارا، دون أن أخفي عنهم شيئا، كنت أجيبهم جميعا بأن من العار أن نكذب على الأطفال، وبأن الأطفال يعرفون كل شيء حتى دون أن نحدثهم عنه، مهما نحاول اخفاءه عنهم، وبأن ما نخفيه عنهم قد يتعلمونه تعلما فاسدا، أما أنا فأطلعهم عليه بطريقة مناسبة وحسب الانسان أن يتذكر طفولته هو حتى يدرك صحة ما أقول لكنني لم أفلح في اقناعهم وكنت قد قبلت ماريا قبل موت أمها بنحو خمسة عشر يوما ولكن حين ألقى الكاهن خطبته، كان جميع الأطفال قد انحازوا إلى صفى وأسرعت أقص عليهم وأشرح لهم ما فعله الكاهن فغضبوا جميعا عليه، حتى أن بعضهم بلغوا من غضبهم عليه أنهم كسروا له زجاج بيته بالحجارة وقد أوقفتهم عن ذلك، مبرهنا لهم على أن عملهم هذا شر ولكن أهل القرية كانوا قد علموا بكل شيء وعندئذ انما أخذوا يتهموني بأننى أضل الأولاد عن الطريق القويم؛ وعلموا بعد ذلك أن الأولاد أصبحوا يحبون ماريا، فقلقوا قلقا شديدا ولكن ماريا كانت قد سعدت كثيرا وبلغ أهل القرية من القلق أنهم حظروا على أولادهم أن يقابلوا ماريا، ولكن الأولاد كانوا يلحقون بها خفية

إلى حيث توجد مع القطيع في مكان بعيد يقع على مسافة نصف فرسخ من القرية تقريبا، فبعضهم يحمل اليها حلوى، وبعضهم يجيء لا لشيء الا أن يعانقها ويقول لها أحبك يا ماريا ثم يعودون إلى القرية راكضين ركضة سريعة غير أن ماريا أوشكت أن تصبح مجنونة من هذه السعادة المباغتة فانها ما كانت لتجرؤ أن تحلم بمثل هذا الانقلاب في يوم من الأيام والحق أنها أصبحت مضطربة فرحة في آن واحد أما الأطفال، ولا سيما البنات، فقد كانوا يحبون خاصة أن يذهبوا اليها ليقولوا لها انني أحبها، وانني أحدثهم عنها كثيرا وحكوا لها أنهم مني انما علموا كل شيء عنها، وانهم الآن يحبونها ويرثون لحالها ويشفقون عليها، وانهم سيظلون كذلك دائما؛ وكانوا بعد ذلك يجيئون إلى بوجوه فرحة وهيئات منهمكة ليقولوا لي أنهم رأوا ماريا وان ماريا تسلم على وكنت أذهب في المساء إلى الشلال ان هناك ركنا تخفيه أشجار الحور عن القرية اخفاءا تاما فالى هناك كان يجيء الأطفال في المساء ليلتقوا بي، حتى أن بعضهم كان يجيء خفية وسرا أعتقد أن حبي الماريا كان يسعدهم أكبر السعادة؛ وكان هذا في الواقع هو الأمر الوحيد الذي كذبت عليهم فيه طول مدة اقامتى هناك فانني لم أحاول أن أبدد أوهامهم شارحا لهم انني لا أحب ماريا، أي أنني لست عاشقا لها مغرما بها، وانما أنا أرثي لحالها، وأرأف بها كنت ألاحظ أنهم يفضلون أن يكون الأمر على نحو

ما تصوروا وقـرروا كذلك سكت وتركت لهم أن يظنوا أنهم حزروا الحقيقة وكانت قلوب هؤلاء الصغار تبلغ من رقة العاطفة والحنان أنهم بدا لهم، فيما بدا لهم من أمور، أنه اذا كان صديقهم ليون يحب ماريا هذا الحب كله، فلا يجوز أن تظل ماريا رئة الثياب الى هذا الحد، ولا أن تمشي حافية القدمين وتصورو أنهم جاءوها بحذاءين وجوربين، بل جاءوها ايضا بثوب أما كيف استطاعوا ذلك، فهذا ما لا أفهمه لقد تكاتمت العصبة كلها على انفاذ الأمر فإذا سألتهم لم يزيدوا على أن يضحكوا، وكانت البنات تصفق بأيديها وتقبلني وكان يتفق لي في بعض الأحيان ايضا أن أرى ماريا خفية لقد تفاقم مرضها تفاقما شديدا، فلا تكاد تستطيع أن تمشي ثم أصبحت أخيرا لا تنفع الراعي في شيء، لكنها ظلت تتبع القطيع كل صباح، وتجلس منتحية منزوية كان هنالك صخرة تهبط هبوطا عموديا وفيها ما يشبه أن يكون مصطبة ناتئة، فكانت ماريا تجلس في القاع على الصخرة مختفية من جميع الجهات، وتلبث على هذه الحال لا تكاد تتحرك، من الصباح حتى ساعة عودة القطيع الى القرية لقد أوهنها السل حتى صارت في أغلب الأحيان تغمض عينيها وتستند إلى الصخرة وتغفو غفوة ضعيفة وهي تتنفس بكثير من العناء وقد بلغ وجهها من الهزال أنه أصبح أشبه بهيكل عظم؛ وكان العرق يتصبب على جبينها وصدغيها على هذه الحال كنت أجدها دائما وكنت لا

أجيئها الا للحظة قصيرة، فقد كنت أنا أيضا أحرص على أن لا يراني أحد فما أن أظهر لها حتى تنتفض وتفتح عينيها وتهرع تقبل يدي أصبحت لا أسحب يدي حين تقبلهما، فقد لاحظت أن تقبيل يدي يسعدها وكانت ترتجف وترتعش وتبكي ما ظللت قريبا منها هناك صحيح أنها حاولت أحيانا أن تتكلم، ولكن كان يصعب على المرء أن يفهم عنها كانت في بعض الأوقات كالمجنونة، من فرط انفعالها الرهيب واندهاشها المذهل وكان الأطفال يصحبونني أحيانا وقد ألفوا في مثل تلك الأحوال أن يقفوا غير بعيد، ليقوموا بمهمة الحراسة ويحمونا مما لا أدري كان ذلك يبهجهم كثيرا حتى اذا انصرفنا بقيت ماريا وحيدة من جديد، لا تتحرك،مغمضة العينين، مسندة رأسها إلى الصخرة لعلها كانت تحلم وفي ذات صباح لم تقو على أن تتبع القطيع، ولبثت في بيتها الصغير الحالى وسرعان ما علم الأطفال بذلك، فجاءوا يزورونها في النهار، كلهم تقريبا كانت مستلقية على سريرها وحيدة تماما وانقضى يومان لا يعتني بها أثناءهما الا الأطفال مناوبة حتى اذا عرف أهل القرية بعد ذلك أن ماريا تحتضر، جاءت عجائز تسهر عليها يبدو أن الناس في القرية قد أخذوا يشفقون على ماريا آخر الأمر أو هم أصبحوا، على الأقل، لا يحرمون على أولادهم أن يروها، ولا يؤنبونهم اذا هم رأوها وكانت ماريا طوال الوقت في حالة غفو، الا أن نومها كان مضطربا، وكان يمزق صدر ها

سعال رهيب وكانت العجائز تطرد الأولاد، الا أن الأولاد يهرعون إلى النافذة ولو لحظة قصيرة ليقولوا: تحية ياصديقتنا الطيبة ماريا ، فكانت ماريا ما ان تراهم أو تسمعهم حتى تنتعش، فاذا هي تحاول أن تنهض على كوعها دون أن تستجيب لنهى العجائز، واذا هي تحييهم بهز رأسها وتشكرهم واستمر الأولاد على أن يأتوها بحلوى، لكنها أصبحت لا تكاد تأكل من حلواهم شيئا أؤكد لكن أنها بفضل الأولاد انما ماتت سعيدة وبفضل الأولاد انما نسيت شقاءها الأسود، كأنها حصلت على غفران خطاياها، ذلك أنها ظلت الى النهاية تعتقد أنها آثمة كبيرة كان الأولاد يتدافعون على نافذتها تدافع العصافير تلطم الزجاج بأجنحتها، ويصيحون قائلين لها كل صباح نحن نحبك يا ماريا وماتت ماريا بسرعة وكنت أظن أنها ستعيش زمنا أطول من ذلك كثيرا عشية موتها، عند غروب الشمس، ذهبت أعودها لا بد أنها عرفتنى صافحتها مرة أخيرة ما كان أشد يبوس يدها وفي الغداة جاء من يقول لي ان ماريا ماتت وأصبح يستحيل عندئذ ضبط الأطفال غمروا تابوتها بالأزهار ووضعوا على رأسها اكليلا وفي الكنيسة، امتنع الكاهن في هذه المرة عن ذكر سوءاتها ومهما يكن أمر، فان الذين حضروا الدفن كانوا قلة قليلة هم عدد من الفضوليين، ولكن الأطفال هرعوا جميعا حين وجب حمل النعش واذ كانوا لا يقوون على حمله فقد حاولوا أن يساعدوا وأن يعاونوا وركضوا وراء

النعش، وكانوا جميعا يبكون ومنذ ذلك الحين أصبح قبر ماريا ضريحا يحج اليه الأطفال فهم في كل سنة يغمرونه بالأزهار، وقد زرعوا حوله أشجار ورد ولكن منذ دفنت ماريا أخذ أهل القرية يضطهدوني في أمر الأولاد وكان الكاهن والمعلم أكبر المحرضين على اضطهادى حرموا على الأولاد أن يرونى، وحتى شنايدر وعد بأن يسهر على تنفيذ ذلك لكننا كنا نستطيع أن يرى بعضنا بعضا، فنتخاطب بالاشارات من بعيد ثم سويت الأمور من بعد، غير أن ما حدث كان حسنا جدا:

ـ فبفضل تلك الاضطهادات، اقتربت من الأطفال مزيدا من الاقتراب حتى انني في السنة الأخيرة تصالحت تقريبا مع المعلم والكاهن أما شنايدر، فكان يكلمنى كثيرا، ويناقش مذهبى، الشئوم في معاملة الأولاد أي مذهب؟ لقد أطلعني شنايدر أخيرا على فكرة غريبة جدا كانت قد خطرت بباله حدث هذا قبيل سفري مباشرة فقال لي انه مقتنع اقتناعا تاما بأنني أنا نفسي طفل حقا، طفل من جميع النواحى، واني ليس لي من صفات الرجل البالغ الراشد الا القامة والوجه، أما من ناحية النفس والطبع والتكوين وربما الذكاء، فما أنا بالرجل البالغ الراشد، وانني قد أظل على هذه الحال ولو عشت ستين عامة ضحكت من كلامه ذاك فلا شك أنه لم يكن

على حق والا ففي أي شيء يمكن أن أعد طفلا؟ هناك شيء واحد صحيح، هو انني لا أحب صحبة الكبار فعلا؛ لقد لاحظت هذا في نفسي منذ مدة طويلة وما زلت لا أحب صحبة الكبار، ولا أحسن أن أكون معهم ومهما يظهروا لي من طيب ونبل، فانني أظل أشعر بضيق ما بقيت معهم، حتى اذا استطعت أن أتركهم وأن أمضى إلى رفاقى أحسست بارتياح وغبطة؛ ورفاقى هم دائما أطفال، لا لأنني أنا نفسى طفل، بل لأنهم يجتذبونني لا أكثر انني منذ بداية اقامتي في تلك القرية، أثناء نزهاتي التي أقوم بها في الجبل وحدى حزينا، كنت اذا التقيت أحيانا، ولا سيما عند الظهر، ساعة الخروج من المدرسة، بتلك العصبة الصاخبة من الأطفال الذين يركضون حاملين حقائبهم وألواحهم، صارخين، ضاحكين، لاعبين، كنت أشعر بنفسي كلها تتجه اليهم وتندفع نحوهم على حين فجأة لا أدري كيف أفسر هذا وكيف أعلمه، ولكنني ما التقيت بهم مرة الا شعرت بسعادة قوية تملأ قلبي وتغمر نفسي كنت أتوقف وأضحك سعادة حين أرى سيقانهم الصغيرة المتحركة النشيطة المتواثبة دائما، وحين أرى هؤلاء الصبية والبنات يركضون، وحين أراهم يضحكون أو يبكون ذلك أن بعضهم يكونون قد اتسع وقتهم أثناء الطريق من المدرسة إلى المنزل، الآن يتضاربوا ويبكوا، ثم يتصالحوا ويستأنفوا لعبهم كنت عندئذ أنسي حزني وبعد ذلك، طوال تلك السنين الثلاث، أصبحت لا أستطيع حتى أن

أفهم كيف ولماذا يمكن أن يشعر البشر بالضجر والسأم، أو بالحزن والأسى لقد كان مصيري كله مع الأطفال ولم أفكر يوما في أن أترك تلك القرية، ولا خطر ببالي ساعة أننى أستطيع أن أعود إلى روسيا في يوم من الأيام كان يخيل إلى أنى يقيم هناك إلى الأبد، لكني فهمت أخيرا أني لاأستطيع أن أكون عالة على شنايدر؛ وفي ذلك الأوان أنما حدث أمر يبلغ من خطورة الشأن، فيما يظهر، أن شنايدر نفسه استحثني على الرحيل، وكتب إلى هنا باسمي سوف أرى ما هو الأمر، وسوف أطلب النصح ولعل مصيري يتغير بذلك تغيرا تاما، ولكن المسألة ليست هنا، وليس هذا أهم شيء فانما الشيء الهام أن حياتى قد تغيرت تغيرا كاملا منذ الآن لقد تركت هناك أشياء كثيرة، أشياء كثيرة جدا لقد زال كل شيء قلت لنفسي وأنا في القطار: أنا الآن ذاهب إلى الناس، وربما كنت لا أعرف شيئا غير أن حياة جديدة قد بدأت قررت أن أنفذ مهمتى بشرف واستقامة، وثبات وصلابة انني أقدر أن حياتي مع الناس ستكون شاقة ومملة فقررت أن أكون مهذبا مع الجميع، وأن أكون صريحا لا شك في أنهم أن يطالبوني بأكثر من ذلك وربما عدوني طفلا هنا أيضا لا بأس ثم ان جميع الملأ يعدونني أبله اني لأتساءل لماذا يعدونى كذلك؟ صحيح اني مرضت في الماضي حتى صرت أشبه بأبله ولكن في أي شيء أنا الآن أبله، ما دمت أدرك أنهم يعدوني ابله؟ حين أدخل إلى مكان ما،

أحدث نفسي قائلا: انهم يعدونى ابله، وأنا مع ذلك ذكى، ثم هم لا يخطر لهم هذا على بال كثيرا ما تدور هذه الفكرة في رأسي حين تلقيت بمدينة برلين رسائل صغيرة استطاعوا أن يرسلوها إلى من هناك، أدركت أخيرا مدى ما يحملونه لي من حب ان الرسالة الأولى تثير كثيرا من الألم دائما ما كان أشد حزنهم حين صحبوني إلى محطة القطار كانوا قد بدأوا يستعدون لرحيلي منذ شهر قائلين ليون مسافر، ليون مسافر إلى الأبد أصبحنا نلتقى قرب الشلال في كل مساء، ونأخذ نتحدث عن فراقنا المرتقب، ونكون أحيانا مرحين كمرحنا في السابق، لكنهم تعودوا حين يتركوني ليذهبوا إلى النوم، أن يضمونى بأذرعهم ضمة قوية فيها كثير من المحبة والحنان، وذلك أمر لم يكونوا يفعلونه من قبل وكان بعضهم يجيئون فرادى، خفية عن الآخرين، ليقبلوني على مهلهم دون رقيب وفي يوم رحيلى، جاءوا جمهرة واحدة ليصحبوني إلى المحطة ان المحطة تبعد عن القرية مسافة فرسخ، كانوا يكبحون شعورهم ويكظمون عاطفتهم فيمسكون عن البكاء، غير أن بينهم من كانوا لا يفلحون في ذلك فاذا هم ينشجون بأصوان عالية، ولا سيما البنات سرنا بخطى سريعة حتى لا نصل متأخرين، لكن واحدا منهم انفصل عن الآخرين فجأة، وارتمى على في منتصف الطريق، وطوقني بذراعيه الصغيرتين، وأخذ يقبلني، فاستوقف بذلك موكبنا كله وحين ركبت وتحرك القطار

صاحوا يودعوني بصوت واحد، ولبثوا في أماكنهم إلى أن اختفى القطار عن أبصارهم اختفاء تاما وكنت أنا أيضا أنظر اليهم اسمعنى حين دخلت الى هنا منذ قليل، فرأيت وجوهكن اللطيفة أنا الآن أنعم النظر في الوجوه كثيرا شعرت بفرح في قلبي لأول مرة منذ الكلمات الأولى ولا أكتمكن انني قلت لنفسي منذ برهة لعلنى خلقت انسان محظوظا بالفعل اني أعرف أن المرء لا يلتقي كثيرا بأناس يمكن أن يحبهم من أول وهلة ومع ذلك ما كدت أترك القطار حتى التقيت بكن أنا أعلم أن على الانسان أن يخجل من التحدث عن عواطفه إلى جميع الناس؛ ومع ذلك أراني أحدثكن عن عواطفى؛ اننى لا أحس تجاهكن أي شعور بالخجل أو العار انني غير اجتماعي، وقد لا أزوركن مرة أخرى الا بعد مدة طويلة فلا تسئن تفسير ذلك، ولا يذهبن بكن الظن خاصة إلى انني لا أحرص عليكن، أو أن شيئا قد صدر عنكن فآذاني لقد طلبتن مني أن أصف لكن ما رأيته في وجوهكن يسرني أن أفعل هذا فأما أنت يا آديلائيد ايفانوفنا،فان لك وجها سعيدا هو أقرب وجوهكن الثلاث الى القلب وعدا أنك جميلة جدا، فان المرء يقول لنفسه حين ينظر اليك ان لها وجه أخت طيبة انك تواجهين الناس ببساطة ومرح، لكنك تحسنين أيضا سبر القلوب ذلك ما يوحيه الى وجهك وأما وجهك أنت يا ألكسندرا ايفانوفنا، فانه هو أيضا جميل محبب إلى القلب، ولكن ربما كنت تخفين حزنا مستترا ليس هناك أي

شك في أنك طيبة القلب، لكنك لست فرحة ان في وجهك شيئا يذكر بوجه مادونا،هولباين بمدينة درسدن هذا عنك أنت ترى هل حزرت؟ أنت التي تعتقدين انني أحزر وأما أنت يا اليزابت برو كوفيفنا قال ذلك وهو يلتفت فجأة نحو الجنرالة فانى لا أحس احساسا بل أوقن يقينا أنك طفلة حقيقية، طفلة في كل شيء، طفلة في الخير وفي الشر على السواء، وذلك رغم كل سنك هل غضبت لأنني أقول لك هذا؟ انك لتعرفين رأيي في الأطفال وشعورى نحوهم ولا يذهبن بكن الظن إلى اننى حدثتكن عن وجوهكن بمثل هذه الصراحة لأننى بسيط ساذج فحسب، فربما كانت لى فكرة أبيتها.

الفصل الرابع

حين صمت الأمير، كان الجميع ينظرون اليه فرحين، حتى آجلايا، ولكن الفرح كان واضحا في وجه اليزابت برو كوفيفنا خاصة هتفت تقول هذا هو الامتحان فيا أيتها الأنسات، أنتن اللواتى كنت تقدرن أن تحمينه حمايتكن لفتى صغير مسكين، ها هو ذا قد تكرم عليكن فأبهجكن، ثم تحفظ فلم يعد بالمجيء اليكن الا نادرة ها نحن أولاء جميعا غبيات وانه ليسعدني ذلك لكن أغبانا وأدعانا إلى الضحك منه والسخرية به انما هو ايفان فيدوروفتش مرحي يا أمير منذ حين، كان قد صدر أمره بامتحانك أما ما قلته عني من النظر في وجهى، فهو الحقيقة بعينها أنا طفلة وأنا أعرف ذلك وكنت أعرف ذلك قبل أن تعرفه أنت لقد أحسنت الافصاح عن رأيي بكلمة واحدة انني أجد طبعك شبيها بطبعي من جميع النواحى، واني لسعيدة بهذا نحن كقطرتي ماء تشابها، مع فرق واحد هو أنك رجل وأنني امرأة، وأنى لم أكن بسويسرا يوما ذلك هو الفرق كله هتفت آجلايا تقول لا تتعجل كثيرة ماما لقد قال الأمير منذ هنيهة أنه في جميع ما أسر به الينا كان يبيت فكرة، وانه لم يتكلم عبثا ولهوا وقالت الأختان ضاحكتين

نعم، نعم لا تسخرن با عزيزاتى قد يكون أمكر منكن ومن الثلاث مجتمعات لسوف ترين ولكن لماذا لم تقل شيئا عن آجلايا يا أمير؟ ان آجلايا تنتظر، وأنا أيضا أنتظر ان أقول شيئا الآن سأقول فيما بعد لماذا؟ يخيل إلى أنك لاحظتها ملاحظة كافية نعم نعم لاحظتها كثيرا أنت آية من آيات الجمال يا أجلا يا ايفانوفنا انك تبلغين من الجمال أن المرء لا يجرؤ أن ينظر اليك قالت الجنرالة ملحة أهذا كل شيء؟ وطبيعتها؟ يصعب على المرء أن يقضى في الجمال برأي لم أتهيأ لهذا بعد الجمال لغز تدخلت أديلائيد قائلة معنى هذا أنك تلقي على أجلايا لغزا أو أحجية حاولي أن تحزرى يا آجلايا ولكن أليست جميلة يا أمير؟ أجاب الأمير بحرارة وهو ينظر إلى آجلايا معجبا جميلة جمالا خارقا تكاد تكون في مثل جمال ناستاسيا فيليبوفنا، رغم أن وجهها مختلف جدا نظرت النساء الأربع بعضهن إلى بعض مدهوشات وسألته الجنرالة من؟

ـ ناستاسيا فيليبوفنا؟ أين رأيت ناستاسيا فيليبوفنا؟ أية ناستاسيا فيليوفنا؟ منذ قليل كان جبريل آر داليونتش يرى ايفان فيدوروفتش صورتها كيف؟ حمل إلى ايفان فيدوروفتش صورتها؟ ليريه الصورة ان ناستاسيا فيليبوفنا قد أهدت اليوم صورتها إلى جبريل آرداليونتش، فجاء بها هنا إلى الجنرال ليريه اياها صاحت الجنرالة تقول: أريد أن

أرى الصورة أين هي تلك الصورة؟ اذا كانت قد أهدتها اليه هو، فلا بد أنه محتفظ بها، ولا بد أنه الآن في حجرة المكتب أنه يأتي للعمل هنا في جميع أيام الأربعاء ولاينصرف قبل الساعة الرابعة احضروا جبريل آردالیونتش حالا بل لا تحضروه فلست أموت شوقا إلى رؤيته يا أمير، يا صديقى، هلا تلطفت فذهبت إلى حجرة المكتب، فأخذت تلك الصورة منه، ثم جئتني بها إلى هنا قل له، من فضلك، انني أريد أن أرى الصورة قالت أديلائيد بعد أن خرج الأمير لا بأس به لكنه بسيط مسرف في البساطة ليلا فقالت ألكسندرا مؤيدة نعم، مسرف في البساطة قليلا، حتى ليصبح من ذلك مضحكة بعض الشيء لا الأولى ولا الثانية كان يبدو عليها أنها تفصح عن كل رأيها، وتعبر عن كل ما يخالج نفسها قالت آجلايا ومع ذلك عرف كيف يحسن التصرف حين تحدث عن وجوهنا مدحنا جميعا وسرنا جميعا، حتى ماما صاحت الجنرالة تقول لا تتخابثي هو لم يمدحني، ولكن أنا التي شعرت بأننى مدحت.سألت أديلائيد هل تظنين أنه كان يحاول أن يحسن التصرف ويصل إلى الهدف؟ يخيل إلى أنه ليس بسيطا إلى الحد الذي يظن فيه قالت الجنرالة غاضبة ها هي ذي تعيد الكرة في رأيي أنا أنكن أدعى منه إلى الضحك عليكن صحيح أنه ساذج قليلا، لكنه يعرف ماذا يريد أقول هذا بأنبل معاني هذا التعبير هو مثلي تماما قال الأمير يحدث نفسه نادما وهو ذاهب إلى حجرة المكتب:

لاشك أني أخطأت اذ جئت على ذكر تلك الصورة ولكن لعلنى أحسنت اذ تكلمت عنها مع ذلك. أن فكرة غريبة قد أخذت تومض في ذهنه، وان لم تكن بعد واضحة كل الوضوح آن جبريل آردااليونش ما يزال في حجرة المكتب، غارقا في أوراقه كان يبدو عليه أنه يستحق فعلا الرواتب التي كان يتقاضاها من شركة الأسهم واضطرب الى أقصى حدود الاضطراب حين طلب منه الأميرالصورة وروى له كيف علموا هناك بوجودها وصاح يقول غاضبا حانقا مقهورا آه أه ما كانت حاجتك الى تلك الثرثرة كلها؟

ـ ثم تمتم يقول من بين أسنانه انت لا تعرف شيئا انت ابله قال الأمير متأسف قلت ما قلته دون تفكير، أثناء الحديث قلت أن أجلايا تكاد تكون في مثل جمال ناستاسيا فيليبوفنا سأله جانيا أن يقص عليه الأمر بالتفصيل، ففعل الأميرفالقى عليه جانيا نظرة ساخرة ودمدم يقول أنت مغرم بناستاسيا فيليبوفنا طبعا ولكنه لم يكمل كلامه، وشرد فكره ان واضحا أنه قلق وذكره الأمير بأن الجنرالة تطلب منه الصورة قال جانيا فجأة، كأن فكرة مباغتة قد وافته اسمع يا أمير هناك معونة ضخمة أحب أن أطلبها منك ولكنني حقا لا أدري اضطرب جانيا ولم يكمل كلامه كان يبدو نهبا لصراع داخلى، وكان يلوح عليه التردد في اتخاذ قرار انتظر الأمير صامتا وعاد جانيا

بروز الأمير بنظرة ثابتة فاحصة متفرسة ثم بدأ يتكلم ثانية فقال: يا أمير انني الآن لسبب من الأسباب سبب غريب كل الغرابة بل سبب مضحك لست مسئولا عنه وهذا على هامش المسألة على كل حال أقول انني الآن فيما أظن مؤاخذ قليلا هناك لذلك قررت أن أغيب مدة من الوقت الا اذا دعيت لكنى مع ذلك في حاجة قصوى إلى أن أكتم أجلايا ايفانوفنا لقد كتبت بضعة أسطر كان جانبا يحمل بيده ورقة مطوية، ولكني لا أدري كيف أوصلها اليها فهل لك يا أمير أن تحمل هذه الورقة إلى أجلايا ايفانوفنا فورا، ولكن إلى أجلا يا ايفانوفنا وحدها، أي دون أن يرى أحد ذلك؟ هل تفهمني؟ ليس الأمر أمر سر كبير ليس هناك أي شيء يمكن أن ولكن هل تصنع لي هذا؟ أجاب الأمير لا يسرني هذا كثيرا فألح جانيا قائلا آه أمير المسألة بالغة الخطورة بالنسبة إلى وقد تجيني آجلايا صدقنى اذا كنت أتجه اليك واستعين بك فلأن المسألة بالغة الخطورة من ذا الذي يمكنني أن أكلفه بايصال الرسالة اليها سواك أن المسألة ذات خطورة رهيبة، بالنسبة إلى كان وجه جانبا يعبر عن خوف بلغ من الفظاعة والهول أن الأمير لم يرفض وأجاب يقول وهو ينظر إلى جانيا نظرة اشفاق: طيب سأنقلها فقال جانيا ضارعا وقد اطمأن روعه: ولكن يجب ألا يلاحظ أحد واني لأعتمد على عهد الشرف الذي تقطعه على نفسك يا أمير، أليس كذلك؟ قال الأمير لن أرى الرسالة أحدا أفلت من

جانيا لفرط تعجله قوله ليست الورقة مختومة، ولكن ثم أمسك عن اتمام كلامه خجلا مضطربا فأجابه الأمير ببساطة لن أقرأها وأخذ الصورة، وخرج من حجرة المكتب فلما أصبح جانيا وحيدا، أمسك رأسه بيديه، وقال يحدث نفسه كلمة واحدة منها تكفي فربما أقطع عندئذ صلتى به كان من شدة انفعاله أثناء الانتظار، لا يستطيع أن يعود إلى أوراقه، وأخذ يذرع الغرفة من ركن إلى ركن وكان الأمير يمشى شارد اللب لقد أدهشه ادهاشا مزعجا أن يكلف بهذه المهمة بل ان مجرد تصوره رسالة يبعث بها جانيا إلى آجلايا كان يسوءه لكنه قبل أن يصل إلى الصالون قاطعا اليه حجرتين، توقف فجأة كمن تذكر شيئا ما، وألقي نظرة على ما حوله، ثم اقترب من النافذة التماسا لمزيد من الضوء، وأخذ ينعم النظر في صورة ناستاسيا فيليوفنا كان كمن يحاول أن يحزر شيئا يختبيء في هذه الصورة وقد خطف انتباهه منذ قليل لم يتر كه ذلك الشعور الذي قام في نفسه حينئذ، ولكنه يحاول الآن أن يتثبت منه، فيما يظهر ان هذا الوجه الخارق بجماله وبشيء آخر، يخطف الأن انتباهه بمزيد من القوة ان فيه كبرياء وعجبا، وان فيه احتقار وازدراء، بل يكاد يكون فيه كره وبغض، غير أنه يعبر في الوقت نفسه عن ثقة وبراءة وسذاجة غريبة حتى أن هذا التضاد نفسه يوقظ في النفس شيئا من العطف والشفقة ثم ان هذا الجمال الذي يبهر الأبصار لا يكاد يطاق: جمال

الوجه الشاحب ذى الحدين الخاسفين قليلا، والعينين الساطعتين انه جمال غريب تأملها الأمير لحظة، ثم ثاب إلى نفسه، فألقي نظرة حواليه؛ وها هو ذا يقرب الصورة من شفتيه بحركة سريعة فيقبلها حين دخل الأمير الصالون بعد قليل كان وجهه هادئا كل الهدوء ولكنه قبل ذلك ما أن صار في قاعة الطعام قبل الصالون بحجرتين حتى كاد يصطدم عند الباب بأجلايا، داخلة لقد كانت وحيدة قال لها وهو يمد اليها الرسالة رجانى جبريل آرداليونتش أن أنقل اليك هذا فتوقفت آجلايا، وتناولت الورقة، وألقت على الأمير نظرة غريبة لم يكن في هذه النظرة أي اضطراب أو خجل كل ما هنالك شيء قليل من دهشة؛ حتى أن هذه الدهشة هي دهشة من الأمير وحده فكأن آجلايا كانت بهذه النظرة تطالب الأمير بأن يشرح لها كيف وجد نفسه مقحما في هذه القضية، وتطالبه بذلك في هدوء وتعال وارتسم على وجهها أخيرا شيء من سخرية، وابتسمت ابتسامة خفيفة ومرت تأملت الجنرالة صورة ناستاسيا فيليبوفنا خلال مدة من الوقت صامتة، مع شيء من الاحتقار؛ وكانت ممسكة بالصورة أمامها مادة ذراعها إلى مسافة بعيدة مسرفة في البعد ودمدمت تقول أخيرا: نعم، هي جميلة، بل هي جميلة جدا لقد رأيتها مرتين، ولكن من بعيد ثم اتجهت إلى الأمير فقالت له اذن هذا هو نوع الجمال الذي تحبه؟ فأجاب الأمير بشيء من الجهد نعم هذا

هو أقصد هل هو هذا بعينه؟ نعم هو بعينه؟ لأي سبب؟ دمدم الأمير يقول رغم ارادته تقريبا، كأنه يكلم نفسه ولا يجيب أحدا: في هذا الوجه ألم كبير وعذاب عظيم قالت الجنرالة على كل حال قد لا يكون هذا عندك الا هذيان ورمت الصورة على المائدة بحركة كبيرة متعالية فتناولت ألكسندرا الصورة، واقتربت منها أديلائيد، وأخذت البنتان تنعمان النظر فيها معا وفي تلك اللحظة عادت آجلايا هتفت آديلائيد تقول فجأة وهى تنظر إلى الصورة بشراهة من فوق كتف أختها يا لها من قوة فسألتها اليزابت برو كوفيفنا بخشونة أين؟

ـ أية قوة؟ فقالت أديلائيد بحرارة: ان جمالا كهذا الجمال لهو قوة ان جمالا كهذا الجمال يمكن أن يقلب العالم وعادت إلى مسند لوحتها شاردة الذهن مفكرة لم تلق اجلايا على الصورة الا نظرة عابرة، فجئت عينيها، ومطت شفتها السفلى، ومضت تجلس منزوية عاقدة ذراعيها على صدرها دقت الجنرالة الجرس، فدخل خادم فقالت له ادع جبريل آردااليونتش هو في حجرة المكتب فهتفت ألكسندرا تقول ماما فقالت الجنرالة حاسمة، مانعة كل جواب أريد أن أقول له كلمة كفي كان واضحا أنها مهتاجة والتفتت إلى الأمير فقالت له هل ترى يا أمير؟ لم يبق عندنا هنا الا أسرار، لا شيء الا الأسرار يظهر أن هذا لا غنى له يا للغباوة وذلك في أمر يقتضي منتهى الصراحة والوضوح

والصدق والاستقامة هناك مشروعات زواج وليست تعجبني هذه المشروعات أسرعت ألكسندرا توقفها عن الكلام من جديد قائلة ماما ماذا جرى لك؟ ماذا تريدين يا ابنتي العزيزة؟ أهي ترضيك أنت، هذه المشروعات؟ لا مانع أن يسمع الأمير فنحن أصدقاء أنا وهـو، على الأقل صديقان أن الله يبحث عن الأخيار أما الأشـرار وأصحاب النزوات، فما أكثرهم ولا سيما أصحاب النزوات أولئك الذين يقررون اليوم شيئا ويفعلون في الغد شيئا آخر هل تفهمين عنى يا ألكسندرا ايفانوفا؟ هن يقلن، يا أمير، أنني غريبة الأطوار، في حين أنى أستطيع أن أميز الأمور ذلك أن العبرة بالقلب، أما ما عدا ذلك فسفاسف صحيح أن الذكاء لازم أيضا، بل قد يكون الذكاء أهم شيء لا تضحكى ساخرة يا أجلايا، فأنا لا أتناقض فان الحمقاء التي لها قلب وليس لها ذكاء، لا تقل شقاء عن حمقاء لها ذكاء وليس لها قلب هذه حقيقة قديمة فأنا الحمقاء التي لها قلب وليس لها ذكاء؛ وأنت الحمقاء التي لها ذكاء وليس لها قلب؛ وذلك هو السبب في أننا كلتينا شقيتان، وفي أننا كلتينا نتألم ونتعذب لم تستطع اديلائيد أن تكبح جماح نفسها، بعد أن كانت بين جميع الحاضرات أكثر هن احتفاظا بمزاحها المرح الفرح، فقالت ما الذي يشقيك ياماما؟ فقالت الجنرالة حاسمة يشقيني أولا أن لي بنات متفيهقات كثيرا ولما كان هذا كافيا فلا داعي إلى أن أفيض في الكلام على ما عداه

كفى ثرثرة سنرى كيف تحسنان التصرف كلتاكما ولست أعد آجلايا بما تملكان من قوة فكر وسنرى هل ستستطيعين، أنت يا ألكسندرا ايفانوفنا المدهشة، أن تكوني سعيدة مع صاحبك السيد النبيل

واذ رأت جانيا داخلا، صاحت تقول وهذا عرس آخر وحيا جانبا، فأجابته دون أن تدعوه إلى الجلوس صباح الخير هيه اذن ستزف؟ فتمتم جبريل آرداليونتش يقول مبهوتا مصعوقا الا أزف؟ كيف هذا؟ كيف أزف؟ لقد اضطرب اضطرابا فظيعا أقصد ستتزوج؟ ذلك ما أسألك عنه، اذا كان هذا التعبير يرضيك أكثر فكذب جبريل آرداليونتش قائلا وقد احمر وجهه من الخجل لا لن لن وألقى نظرة سريعة على أجلايا التي كانت ما تزال منتحية، ثم أشاح وجهه بسرعة كانت آجلايا تنظر اليه بهدوء وبرود، دون أن تحول عنه بصرها، وكانت تراقب اضطرابه ألحت اليزابت برو كوفيفنا اللجوج تسأله لا؟ تقول لا؟

ـ يكفي سأتذكر أنك في صباح يوم الأربعاء قد أجبت عن سؤالى بقولك: لا في أي يوم نحن؟ ألسنا في يوم الأربعاء؟أجابت آديلائيد أظن أنه يوم الأربعاء يا ماما لا أحد يعرف الأيام والتواريخ في أي يوم من أيام الشهر نحن؟ قال جانيا في اليوم السابع والعشرين في السابع والعشرين؟ هذا تاريخ مناسب من بعض النواحي طيب استودعك

الله عندك أعمال كثيرة فيما أظن، وأنا يجب على أن أرتدي ثيابي لأخرج استرد هذه الصورة وانقل تحيتي إلى أمك المسكينة نينا ألكسندروفنا إلى اللقاء يا أمير، يا صديقى، يا صديقي زرني كثيرا أما أنا فانني ذاهبة إلى العجوز بيلو كونسكايا خصيصا لأكلمها عنك واسمع يا عزيزى: انني أومن صادقة بأن الله أنما أرسلك من سويسرا الى بطرسبرج من أجل أن قد تعمل شيئا آخر، ولكنك بعثت الى هنا من أجلى أنا خاصة الله هو الذي شاء ذلك إلى اللقاء يا عزيزانى ألكسندرا، تعالى إلى يا صديقتي خرجت الجنرالة وتناول جانيا الصورة من على المائدة مضطربا طائش العقل ممتلىء النفس حقدا، ثم التفت نحو الأمير وهو يبتسم ابتسامة مصطنعة أنا عائد إلى بيتى يا أمير فاذا كنت ما تزال تنوي أن تقيم عندنا فسأقودك إلى هناك، فانك لا تعرف العنوان قالت آجلايا وهي تنهض عن مقعدها: لحظة يا أمير عليك أن تكتب شيئا في دفتري الألبوم با با يدعي أنك خطاط سأجيئك بالدفتر قالت أديلائيد إلى اللقاء يا أمير أنا أيضا منصرفة وصافحت الأمير مصافحة قوية، وأبتسمت له ابتسامة فيها لطف ومودة ومحبة، وخرجت دون أن تلقى على جانيا نظرة واحدة قال جانيا وهو يصرف بأسنانه ويهرع نحو الأمير أنت الذي ثرثرت فجئت على ذكر زواجى يا لك من ثرثار وقح بهذا جمجم جانيا متعجلا بصوت خافت، وقد استعر وجهه سخطة وحقا،

والتمعت عيناه خبثا وشرا فأجابه الأمير بأدب هاديء أؤكد لك أنك مخطىء لقد كنت أجهل كل الجهل أنك ستتزوج لقد سمعت ايفان فيدوروفتش يقول منذ قليل ان كل شيء سيتقرر هذا المساء في منزل ناستاسيا فيلسوفنا، وهذا ما نقلته اليهن أنت كاذب أني لهن أن يعلمن النبأ بغير ذلك من ذا الذي كان يمكن أن يبلغهن النبأ سواك؟ ألم تشر العجوز إلى هذا اشارة مباشرة أنت أقدر مني على أن تعرف من عساه أطلعهن على النبأ، اذا كنت تعرف حقا أنه قد كان ثمة اشارة أما أنا فلم أقل كلمة واحدة قاطعه جانبا يسأل محموما هل نقلت رسالتى؟ ماذا كان الجواب؟ ولكن آجلايا دخلت في تلك اللحظة نفسها، فلم يتسع وقت الأميرالأن يجيب قالت أجلا يا وهي تضع دفترها على المائدة اليك الدفتر يا أمير فاختر منه صفحة واكتب لي شيئا هذه ريشة جديدة كل الجدة لا ضير في أن تكون من معدن؟ لقد سمعت أن الخطاطين لا يستعملون ريشة من معدن كانت وهي تكلم الأمير كأنما لا تلاحظ حتى وجود جانيا ولكن بينما كان الأمير يهيىء الريشة ويختار صفحة ويستعد للكتابة، دنا جانبا من المدفأة التي كانت تقف آجلايا قربها على يمين الأمير، وتمتم يقول في أذنها تقريبا، بصوت مختلج متقطع: كلمة، كلمة واحدة منك، فأنجو التفت الأمير بحركة سريعة ونظر اليهما كليهما كان يقرأ في وجه جانبا كرب كبير ويأس هائل لكأنه نطق بتلك الكلمات دون تفكير، كمن يلقي

بنفسه في الماء تأملته آجلايا بضع لحظات بتلك الدهشة الهادئة نفسها التي ظهرت عليها منذ قليل أمام الأمير؛ فكانت هذه الدهشة، وهذه البلبلة اللتان يبدو أنهما ناشئتان عن أن الفتاة لا تفهم شيئا البتة مما يقال لها، كانتا أشد هولا وأفظع وقعا في نفس جانبا من أعمق احتقار وأكبر ازدراء سأل الأمير ماذا يجب أن أكتب؟ فقالت آجلايا وهي تلتفت اليه سأملى عليك أأنت مستعد؟ اكتب أنا لا أصلح للمساومات والآن ضع التأريخ، وأرني الكتابة مد الأمير اليها الدفتر فنظرت فيه وقالت عظيم ان لك خطا رائعا هذا جميل حقا شكرا الى اللقاء يا أمير ثم أضافت وقد تذكرت شيئا ما لحظة أخرى تعال سأهدى اليك تذكارا.

فتبعها الأمير، ولكن آجلايا وقفت منذ صارت في حجرة الطعام، مدت اليه رسالة جانبا وقالت له اقرأ هذا تناول الأمير الرسالة، ونظر الى آجلايا متحيرا فقالت آجلايا أنا أعرف على وجه اليقين أنك لم تقرأها، وانك لا يمكن أن تكون نجي هذا الرجل وحامل أسراره اقرأ انني أصر على أن تقرأ كان يبدو أن الرسالة كتبت على عجل قرأ الأمير: اليوم يتقرر مصيرى، تعلمين كيف اليوم سأضطر أن أقطع على نفسي وعدا لا نكول عنه ليس لي أي حق في اهتمامك بي، ولست أحمل أي أمل غير أنك نطقت كلمة في ذات يوم، كلمة واحدة، فأنارت

تلك الكلمة ظلام حياتى الحالك، وأمست منارة لي قولى لى كلمة أخرى كتلك الكلمة، فتنقذيني من الضياع قولى فقط: اقطع كل صلة، فأفعل ذلك في هذا اليوم نفسه آه هل يكلفك باهظا أن تقولى لى ذلك؟ انني اذ أطلب منك هذه الكلمة لا ألتمس الا علامة اكتراث وشفقة، لا شيء غير ذلك، لا شيء، لا شيء انني لا أجرؤ أن اسمح لنفسي بأي أمل، لأنني لا أستحق، لكنني بعد كلمة واحدة منك سأرتضى فقري من جديد، وسأحتمل حالتي اليائسة فرحا سأستأنف الكفاح، وسيسعدني أن أكافح، وسأبعث بالكفاح بعثة آخر، فأزخر بقوى جديدة ابعثي إلى بكل الشفقة تلك وحدها لا شيء الا الشفقة، أحلف لك ولا يغضبك تهور رجل يائس، رجل يغرق فيتجرأ أن يقوم بجهد أخير ليتقى الهلاك فلما فرغ الأمير من القراءة قالت آجلا يا بلهجة قاسية يزعم هذا الرجل أن كلمة اقطع كل صلة، لا يمكن أن تعرضني لشيء ولا يمكن أن تلزمني بشيء؛ وما هذه الرسالة، كما رأيت، الا نوع من تأكيد مكتوب لاحظ مدى سذاجته في الاسراع إلى وضع خط تحت بعض الكلمات، ومدى الغلظة في ظهور فكرته المبيتة ونيته المخبأة وراء ذلك وهو يعلم على كل حال أنه لو قطع كل صلة من تلقاء نفسه، بمحض ارادته، دون أن ينتظر تشجيعا مني، وحتى دون أن يكلمني في هذا الأمر، ودون أن يستطيع أن يعقد على أي أمل، لكان من الممكن أن تتحسن عواطفى نحوه، ولكان من الممكن أن أغدو صديقة له وهو

يعلم ذلك حق العلم على كل حال لكنه رجل دنس النفس هو يعلم ذلك لكنه يطلب ضمانا. انه لا يستطيع أن يبنى عمله على الثقة انه يريد أن أعطيه أملا، في مقابل المائة ألف روبل أما عن الكلمة التي يزعم في رسالته أني نطقت بها فأنارت حياته، فذلك كله كذب واختلاق وقح كل ما هنالك أنني شعرت نحوه بشيء من الشفقة في يوم من الأيام لكنه رجل وقح لا حياء فيه، فسرعان ما قدر أن في وسعه أن يعقد أملا لقد فهمت أنا ذلك فورا وهو منذ ذلك اليوم يحاول أن يوقعني في الفخ، وهذا بعينه ما حاوله في هذا النهار أيضا ولكن كفي الآن خذ رسالته هذه، وأعدها اليه متى خرجتما من الدار، لا قبل ذلك وما هو الجواب الذي ينبغي أن أحمله اليه؟ لا جواب، طبعا ذلك خير جواب اذن أنت تنوي أن تقيم في قال الأمير ان ايفان فيدوروفتش نفسه هو الذي نصحني بهذا منذ قليل فكن منه اذن على حذر انني أنبهك لن يغفر لك ارجاع هذه الرسالة التي سترجعها اليه صافحت آجلايا يد الأمير مصافحة خفيفة، وخرجت كان وجهها مقطبا مكفهرا حتى انها لم تبتسم له وهي تحيه برأسها مودعة قال الأمير يخاطب جانيا :لحظة ناخذ صرتى فورا ثم نتصرف قرع جانيا الأرض بقدمه من نفاد الصبر لقد اسود وجهه حنقا وأخيرا خرج الاثنان إلى الشارع، والأمير يحمل بيده صرته سأله جانيا وهو يكاد يرتمي عليه هيه، الجواب؟ ماذا قالت لك؟ هل أعطيتها رسالتي؟ فمد اليه الأمير الرسالة صامتا فتصلب

جانبا كالمتجمد، وهتف يسأل كيف؟ رسالتى؟ آه لم يعطها الرسالة كان على أن أقدر ذلك آه لعنة الله عليه الآن يتضح لي كيف أنها لم تفهم اذن شيئا منذ قليل ولكن كيف، كيف أمكنك ألا تعطها الرسالة؟ آه لعنة الله على عفوك ان ما حدث هو عكس هذا تماما لقد سهلت لي الظروف أن أعطيها رسالتك بعد أن أعطيتنيها أنت بلحظة واحدة، مع أدق الالتزام بما أوصيتنى به واذا كانت الرسالة بين يدي الآن، فلأن اجلايا قد ردتها إلى منذ هنيهة متى؟ متى ردتها اليك؟ منذ أنهيت الكتابة في دفترها فدعتني إلى أن أتبعها هل سمعتها؟ فلما صرنا في قاعة الطعام مدت إلى هذه الرسالة وطلبت مني أن أقرأها ثم أرجعها اليك زأر جانيا قائلا أن تقرأها؟

ـ أن تقرأها؟ وقرأتها؟ تجد جانبا في وسط الرصيف وقد بلغ من الشده أن فمه ظل فاغرا قال الأمير نعم، قرأتها وهي التي أقرأتك الرسالة، هي نفسها؟ هي نفسها؟ نعم، هي نفسها صدقني: ما كان لي أن أقرأها قط لولا أنني أمرت بذلك البث جانيا صامتا خلال لحظة، يبذل جهودا كبيرة من أجل أن يفهم شيئا، ولكنه صاح يقول فجأة مستحيل لا يمكن أن تكون قد طلبت منك قراءة الرسالة أنت تكذب أنت قرأت الرسالة من تلقاء نفسك قال الأمير بتلك اللهجة الهادئة نفسها لقد قلت لك الحقيقة صدق أنني آسف أشد الأسف لما أحدث

هذا الأمر في نفسك من انزعاج وضيق ولكن، أيها الشقي، لا بد أنها قالت لك شيئا على الأقل، حين أعادت اليك الرسالة؟ فهل حملتك جوابا ما؟ نعم، طبعا فما بالك لا تتكلم اذن ما بالك لا تتكلم وقرع جانبا أرض الرصيف مرتين بقدمه اليمنى المنتعلة جرموقا من مطاط فوق الحذاء قال الأمير ما أن أنهت قراءة الرسالة حتى قالت لي انك تحاول أن توقعها في الفخ؛ فأنت تريد أن تحصل منها على وعد بأمل، فاذا قويت بهذا الوعد، أمكنك أن تقطع الصلة دون خسران، وذلك بأمل مقداره مائة ألف روبل؛ وأضافت أنك لو فعلت دون أن تساومها، أي لو قطعت تلك الصلة من تلقاء نفسك بمحض ارادتك دون أن تطلب منها أية ضمانة سلفا، لكان من الجائز أن تفوز بصداقتها لك أظن أن هذا هو كل ما قالته نعم هناك شيء آخر: فحين سألتها بعد استرداد رسالتك ما جوابها، قالت أن خير جواب هو ألا تعطي جوابا أظن أن هذا هو ما قالته سامحني اذا نسيت الألفاظ التي استعملتها نفسها نصة، فانا أنقل اليك ما أظن أنني فهمته استولى على جانيا غضب لا حدود له، وانفجر حنقه دون أي سيطرة على نفسه، فقال وهو يصرف بأسنانه: ها هكذا ترمى رسائلى من النافذة هي لا تصلح للمساومات طيب طيب ولكنني سأصلح لها أنا ولسوف نرى أنا لم أقل بعد كل شيء لسوف ترى ستصلها أخبارى كان يصر وجهه، وكان يشحب لونه، وكان يرغى ويزبد، ويهدد بقبضة يده ويتوعد وسارا بضع خطوات وهما على

هذه الحال لم يتحرج جانيا أمام الأمير أي تحرج، حتى لكأنه خال إلى نفسه في غرفته، لأنه لم يكن يعده شيئا مذكورا ثم توقف وقد فاجأته فكرة مباغتة، فقال يسأل الأمير ولكن كيف أمكنك وأضاف جانبا يقول بينه وبين نفسه: كيف امكن هذا الأبله كيف أمكنك أن تدخل إلى خفايا أمورهن وأن تصبح محل سرهن ولا ينقض على معرفتك بهن أكثر من ساعتين؟ كيف هذا؟ لم يكن ينقصه لاكتمال أنواع عذابه الا أن تضاف اليها الغيرة وها هي ذي الغيرة تعض الآن قلبه على حين فجأة أجابه الأمير قائلا هذا لا أستطيع أن أعلله لك فرشاه جانيا بنظرة خبيثة شريرة؛ وقال له أمن أجل أن تهدى اليك ثقتها انما دعتك اذن إلى قاعة الطعام؟ لقد قالت انها تريد أن تهدى اليك شيئا، أليس كذلك؟ لا أفهم الأمر على غير هذا الوجه لكن لماذا؟ حقا انه لأمر عجيب ماذا فعلت هناك؟ كيف استطعت أن تحظى باعجابهن؟ اسمع كان جانبا يضطرب بكل قواه وكان كل شيء في نفسه مشوشا يغلى ويفور، فهو لا يستطيع أن يفلح في جمع شتات أفكاره. وتابع كلامه فقال اسمع ألا تستطيع أن تحاول أن تتذكر كل ما تحدثت فيه وأن تعيده مرتبا منظما متسلسلا، وأن تذكر كل ما قيل من البداية إلى النهاية؟ ألم تلاحظ شيئا يمكنك أن تتذكره؟ أجاب الأمير أوه هذا سهل منذ البداية، منذ دخلت وتم التعارف، تحدثنا عن سويسرا دعنا من سويسرا فلتذهب سويسرا الى جهنم ثم تحدثنا عن عقوبة الاعدام عن عقوبة الاعدام؟ نعم، عرضا ثم

وصفت لهن السنين الثلاث التي عشتها هناك، وقصصت عليهن قصة القروية المسكينة لتذهب القروية المسكينة إلى جهنم أكمل كان جانبا يدبدب بقدميه من نفاد الصبر وشدة التململ وتابع الأمير كلامه فقال ثم ذكرت لهن كيف أن شنايدر أطلعني على رأيه في طبعى، دفعني إلى العودة فليذهب شنايدر إلى جهنم لا تهمنى آراؤه وبعد ذلك؟ بعد ذلك أخذت أتكلم عن الوجوه، لا أدري بأية مناسبة، أقصد عن تعبير الوجوه، فقلت لأجلايا ايفانوفنا انها في مثل جمال ناستاسيا فيليبوفنا تقريبا وعندئذ أنما أفلتت من لساني كلمات عن الصورة لكنك لم تقل اليهن ما كنت قد سمعته في حجرة المكتب، أليس كذلك؟ لم تنقله اليهن، أليس كذلك؟

ـ أليس كذلك، لم تنقله اليهن أكرر لك أني لم أنقله اليهن ولكن عجيب ألم تطلع أجلايا أمها على الرسالة؟ أستطيع أن أضمن لك أنها لم تطلعها عليها اني لم أتركهن لحظة ثم أنها لو أرادت أن تطلعها عليها لما اتسع الوقت لهذا ولكن لعل شيئا حدث ولم تلاحظه ثم صاح جانبا يقول وقد خرج عن طوره تماما يا لأبله النحس انه عاجز حتى عن أن يروي الأمور على نحو مناسب وان شتم مرة فلم يلق مقاومة، أخذ يفقد كل تحفظ شيئا بعد شيء، كما يحدث ذلك دائما لبعض الأشخاص حتى لقد كان من الممكن وقد بلغ ذروة حنقه أن يمضي

الى حد البصق لكن هذا الحنق نفسه قد أعماه والا لكان قد لاحظ منذ مدة طويلة أن هذا الأبله، الذي يعامله هو هذه المعاملة يفهم في بعض الأحيان كل شيء بسرعة عظيمة، ودقة شديدة، ويجيد الرواية اجادة تامة غير أن شيئا لم يكن في الحسبان قد حدث على حين فجأة قال الأمير بغتة يجب أن ألفت نظرك يا جبريل آر داليونتش أني في الماضي كنت مريضا بالفعل، حتى لقد أصبحت كالأبله، ولكنني شفيت منذ مدة طويلة، وانه ليؤلمني أن أسمع أحدا يصفني بأني أبله ورغم أن المرء قد يعذرك بسبب ما أنت فيه من خيبة الأمال وسقوط الأماني، فقد شتمتنى حتى الآن مرتين أو ثلاث مرات، وهذا ما لا أرضى عنه البتة، لا سيما وانه لا سبب له، وانما أنت تندفع فيه اندفاعة وتسترسل فيه استرسالا بغير داع، منذ أول لقاء بيننا أفلا ترى والحالة هذه، ما دمنا الآن عند مفترق طرق، أن نفترق هنا، فتذهب يمنة وأذهب يسرة؟ ان معى خمسة وعشرين روبلا، ولا شك أنى واجد فندقا أبيت فيه أحس جانيا بخجل شديد واضطراب كبير، حتى لقد احمر وجهه من شعوره بالعار لأنه أخذ هذا الأخذ بغتة على وجه لم يكن يتوقعه البتة قال معتذرا بحرارة، منتقلا من الشتم المقذع إلى التهذيب الرقيق سامحني يا أمير، ناشدتك الله انك لترى ما أنا فيه من شقاء أنت لا تعرف بعد شيئا، فلو عرفت كل شيء لغفرت لي بعض الغفران حتما، وان يكن سلوكى هذا لا يغتفر طبعا أسرع

الأمير يطمئنه قائلا لا أطلب كل هذه الاعتذارات. اني لأدرك أنك قلق مضطرب، وأن هذا هو السبب في شتمى طيب فلنذهب إلى بيتك أنا من جهتى يسرني هذا كان جانبا يقول لنفسه أثناء السير وهو يلقي على الأمير نظرات كره وبغض، يستحيل أن أتر كه الآن لقد أخذ مني هذا الوغد كل ما كان يريد، وها هو ذا يرمي عن وجهه القناع ان في الأمر شيئا مختفيا سوف نرى سوف يتقرر كل شيء، كل شيء، في هذا اليوم نفسه وكانا قد وصلا إلى الدار.

الفصل الخامس

فى بيت جانبا في الطابق الثاني، ويوصل اليه سلم نظيف فسيح ير، ويتألف من ست غرف أوسبع تتفاوت سعة؛ واذا كان هذا البيت عاديا في الواقع، فلا شك أن أجرته فوق طاقة موظف متواضع يقع على كاهله عبء أسرة، ولو بلغ مرتبة ألفي روبل لكن هذا البيت مهيا كذلك لاستقبال مستأجرين مع الطعام والخدمة، ولم يسكنه جانبا وأسرته الا منذ شهرين في أكثر تقدير، على استياء من جانيا نفسه، وبالحاح من نينا ألكسندروفنا وباربارا آردااليونوفنا اللتين كانتا ترغبان في أن تكونا نافعتين هما أيضا، وأن تساهما في زيادة دخل العائلة ولو قليلا كان جانبا يظهر امتعاضه ويعد هذا التدبير سقوطاً وهو منذ أقاموا في هذا المنزل يشعر بحرج في المجتمع، حيث ألف حتى ذلك الحين أن يظهر فتى لامعا يبشر بأن يكون له مستقبل فكانت هذه التنازلات كلها وهذا الشيوع المزعج كله بمثابة جروح عميقة في نفسه، حتى أصبح منذ بعض الوقت يثيره أبسط أمر من الأمور اثارة شديدة تخرجه عن طوره؟ واذا كان لا يزال يرتضي أن يرضى وأن يصبر، فما ذلك الا لأنه عقد النية بثبات وقوة وصلابة على أن

يغير هذا الوضع كله في أقصر مدة ومع ذلك فان هذا التغيير نفسه، والحل الذي انتهى الفتي اليه وعزم أمره عليه، قد أصبحا مسألة خطيرة، مسألة يهدد حثها بأن تكون متاعبه وهمومه أوفر عددا وأشد ايلامة مما سبق كانت الشقة مشطورة شطرين بدهليز يبدأ من المدخل ففي احدى الجهتين تقع الغرف الثلاث الموقوفة على المستأجرين الموصى بهم توصية خاصة؛ وفي تلك الجهة نفسها، عند آخر الدهليز، قرب المطبخ، توجد حجرة صغيرة هي أضيق الحجرات، يعيش فيها وينام فيها، على ديوان عريض، رب الأسرة نفسه، الجنرال المتقاعد ايفولجين الذي كانوا يضطرونه أن يكون خروجه ورجوعه من المطبخ وسلم الخدم وفي تلك الغرفة الصغيرة نفسها يسكن أيضا الفتى الصغير كوليا أخو جبريل آر داليونتش، وهو تلميذ في المدرسة الثانوية عمره ثلاثة عشر عاما كان هذا الفتى الصغير مضطرا هو أيضا إلى أن ينكمش حتى يستطيع أن يعيش في هذه الغرفة وأن يطالع دروسه فيها؛ فهو ينام على ديوان ثان، متداع، ضيق، قصير، مثقب الأغطية وكان عليه عدا ذلك أن يعتني بالجنرال وأن يسهر عليه لأن الجنرال كانت تزداد حاجته اليه يوما بعد يوم أعطى الأمير غرفة الوسط، فأما التي على يمينها فكان يسكنها فردشتينكو؛ وأما التي على شمالها فما تزال خالية لم يقطنها أحد ولكن جانيا قاد الأمير في أول الأمر إلى ذلك الجزء من الشقة،

الذي تقيم فيه الأسرة ان الجزء يتألف من غرفة استقبال يحيلونها عند الحاجة إلى غرفة طعام، ومن صالون ليس في الحقيقة صالونا الا في الصباح حتى اذا حل المساء أمسى حجرة مكتب فغرفة نوم لجانبا؛ وهناك أخيرا غرفة ثالثة، صغيرة مقفلة الباب دائما، هي غرفة نوم نينا ألكسندروفنا وباربارا آرداليونوفنا الخلاصة أن جميع الأشياء وجميع الأشخاص كانت في هذه الشقة وا محشورة متراصة تعيش في مكان أضيق من أن يتسع لها فكان جانبا لا يكف عن الصريف بأسنانه غيظا، وكان لا يفوت من يراه منذ أول نظرة أنه في هذه الأسرة طاغية مستبد، رغم حرصه على أن يظهر بمظهر من يحترم أمه ويوقرها لم تكن نينا ألكسندروفنا وحيدة في الصالون، بل كانت تجالسها باربارا آرداليونوفنا وكانتا كلتاهما منهمكتين في النسج بالابرة، على تحدثهما مع زائر كان معهما هو ايفان بتسين ان نينا ألكسندروفنا تبدو في الخمسين من العمر 0 وجهها نحيل شاحب اللون؛ وتحت عينيها هالتان زرقاوان. مظهرها كله يدل على المرض، ويدل على شيء من الألم، غير أن في وجهها ونظرتها شيئا من جاذبية والمرء يدرك من أولى كلماتها أن لها طبعا جادا وخلقا رصينا ووقارة صادقة؛ وأنها رغم الألم الذي يعبر عنه وجهها، تملك جنانا ثابتا، بل وعزيمة قوية ثيابها متواضعة جدا، فهي سوداء، وهي على الزي الذي ترتديه العجائز؛ ولكن حركاتها وآدابها وحديثها وسلوكها، كل هذا

يدل على أنها انسانة عرفت كذلك بيئة أرفع من هذه البيئة وأرقى أما باربارا آرداليونوفنا فهى فتاة في الثالثة والعشرين من العمر، متوسطة القامة، نحيلة الجسم، ان لم يكن وجهها جميلا حقا، فان فيه سر الفتنة بغير جمال، وآية الجذب إلى درجة الهوى انها تشبه أمها كثيرة، وتكاد ترتدي ما ترتديه أمها، فلا أثر في ثيابها لتبهرج أو تغندر. نظرة عينيها الشهباوين يمكن أن تكونا في بعض الأحيان مرحتين كل المرح، ملاطفتين كل الملاطفة، لكن هذه النظرة هي في الغالب الأعم رصينة مفكرة، مفرطة في الرصانة مسرفة في التفكير أحيانا ولا سيما في هذه الآونة الأخيرة، ومن يرها يقرأ في وجهها ثبات الجنان وقوة العزيمة أيضا، ولكنه يحس أن هذا الثبات وهذه العزيمة يمكن أن يتجلي عندها بأكثر مما يتجليان عند أمها طاقة دفاقة ومبادهة أصيلة أيضا ان لباربارا آرداليونوفنا طبيعة مندفعة، حتى لقد كان أخوها يخاف اندفاعاتها بعض الخوف أحيانا وكان الزائر الذي تحدثانه، يخاف اندفاعاتها بعض الخوف هو أيضا انه رجل ما يزال شابا، في نحو الثلاثين من عمره، يرتدي ثيابا متواضعة لكنها أنيقة في آدابه رقة ولطف، وان يكن متصنعة بعض التصنع تدل لحيته الصغيرة القاتمة الشقرة على أنه رجل غير مقتصر على حياة الوظيفة، أو قانع بها اذا تحدث كان حديثه ذكيا شائقا، لكنه في أكثر الأحيان صامتا وهو على وجه الاجمال يحدث في النفس شعورا

بالارتياح كان واضحا أن باربارا آرداليونوفنا تهمه وتعني به، وهو لا يحاول أن يخفى عواطفه وكانت هي تعامله بمودة وصداقة، لكنها ما تزال تتأخر في الإجابة عن عدد من أسئلة كان يظهر على باربارا أنها لا تعجبها ولكن بتسين لا تثبط من ذلك عزيمته ولا بأس وكانت نينا ألكسندروفنا تظهر له حفاوة وبشاشة، حتى لقد تعودت في الآونة الأخيرة أن تسر اليه بما في نفسها وكان معروفا من جهة أخرى أن بتسين قد وجد لنفسه اختصاص هو أن يقرض مالا بفوائد، لآجال قصيرة، على رهون مضمونة وكانت تربطه بجانبا صداقة قوية قام جانيا بواجب التقديم والتعريف، ولكن على نحو متقطع حيا أمه بكثير من الخشونة، ولم يسلم على أخته، ثم سرعان ما خرج مقتادا بتسين وجهت نينا ألكسندروفنا إلى الأمير بضع كلمات ترحيب، ثم أمرت خادما ظهر فجأة، بأن يقود الأمير إلى الغرفة الوسط ان كوليا فتى مرح بشوش، في طبيعته ثقة وبساطة سأل كوليا الأمير وهو يدخله غرفته أين أمتعتك؟ لي صرة وضعتها في حجرة المدخل سأجيئك بها حالا ليس عندنا خدم الا الطباخة وماتريونا، لذلك تراني أساعد في العمل أن فاريا تراقب كل شيء وتغضب قال جانيا انك وصلت اليوم من سويسرا، هه؟ نعم هل سويسرا جميلة؟ فيها جبال؟ نعم طيب سأجيئك بحزمك دخلت باربارا آرداليونوفنا وقالت ستهيىء لك ماتريونا سريرك هل معك حقيبة؟ لا شيء الا صرة ذهب أخوك ليجيني بها لقد تركتها

في حجرة المدخل عاد كوليا إلى الغرفة وقال يسأل لم أجد شيئا الا هذه الصرة الصغيرة، فأين وضعت الأخرى؟ فأجابه الأمير وهو يتناول منه الصرة ليس لي صرة أخرى ها خشيت أن يكون فردشتينكو قد استولى عليها قالت له أخته بقسوة لا تقل سخافات كانت باربارا تكلم حتى الأمير بلهجة خشنة تكاد تكون غير مهذبة قال لها أخوها يا بنتي العزيزة يمكنك أن تكلميني بلهجة أرق أنا لست بتسين بل يمكنني أن أجلدك يا كوليا؛ انك غبي جدا وعادت تكلم الأمير فقالت في كل ما قد تحتاج اليه تستطيع أن تتجه إلى ما تريونا نحن نتغدى في الساعة الرابعة والنصف ولك أن تختار: تأكل معنا، أو احمل اليك الطعام في غرفتك ،عادت تخاطب كوليا فقالت تعال يا كوليا، لا تزعج السيد هلمى بنا يا شديدة البأس وفيما كانا يخرجان اصطدما بجانيا قال جانيا يسأل كولا هل بابا هنا؟ فلما أجابه كوليا بأن بابا هنا، همس في أذنه ببضع كلمات: فهز كوليا رأسه ملبيا، وخرج يتبع باربارا آردالیونوفنا كلمة أخرى يا أمير نسيت أن أقولها لك في زحمة هذه القصص كلها لي رجاء أتوجه به اليك: قدم إلى هذه الخدمة اذا كان ذلك لا يكلفك جهدا كبيرا لا طاقة لك به وهي ألا تثرثر هنا عما جرى بينى وبين آجلايا، ولا أن تثرثر هنا وهناك، عما ستراه هنا ذلك أن الأمور هنا أيضا ليست جميلة كلها، وان يكن هذا كله لا يعنيني حاول على الأقل أن تحفظ لسانك اليوم أجاب الأمير متضايقا من ملامات

جانيا هذه أؤكد لك أني ثرثرت أقل كثيرا مما تظن كان واضحا أن العلاقات بينهما تزداد سوءا على كل حال لقد تحملت اليوم بسببك ما فيه الكفاية الخلاصة ذلك هو الرجاء الذي اتوجه به اليك قال الأمير لاحظ أيضا يا جبريل آرداليونتش أنني لم أكن مرتبطا بشيء هناك، لم أكن قد بذلت لك أي وعد، لم تكن قد طلبت مني أي أمر: ما الذي كان ينبغي أن يمنعني عن الإتيان على ذكر تلك الصورة؟

ـ انك لم تسألني هذا قال جانيا وهو يلقي على ما حوله نظرة احتقار اف يا لها من غرفة رديئة هي مظلمة، مع هذه النوافذ التي تطل على الفناء من كل النواحي، لم يحالفك التوفيق حين وقعت في هذا المكان على كل حال، ذلك أمر لا شأن لي به، ولا يهمني في قليل أو كثير لست أنا الذي أتولى هذه التأجيرات ظهر بتسين في الباب ونادى جانبا فأسرع جانبا يودع الأمير وخرج، رغم ما يبدو عليه من أن هناك أشياء أخرى كان لا يزال يريد أن يقولها ولكن كان واضحا أنه لا يعرف من أين يبدأ، وأنه متحرج مرتبك؛ حتى أن انتقاده للغرفة لم يكن له من غرض الا أن يخفى ما هو فيه من تشوش واضطراب وبلبلة ما ان فرغ الأمير من غسل وجهه ويديه، ومن ترتيب زينته بعض الشيء، حتى شق الباب مرة أخرى، فدخل عليه قادم جديد هو رجل في نحو الثلاثين من العمر، طويل القامة، عريض المنكبين، يغطى رأسه

الضخم شعر أحمر مجعد، وجهه سمين زاهر اللون، شفتاه سميكتان، أنفه قصير عريض، عيناه صغيرتان غائرتان في الشحم تعبران عن سخرية وكأنهما تطرفان بغير انقطاع في جملة شخصه شيء من وقاحة ملابسه أدنى إلى الأهمال لقد شق الباب في أول الأمر شقة ضيقة تتيح له أن يطل برأسه فحسب؛ وأخذ هذا الـرأس يفحص الغرفة خلال بضع ثوان، ثم أخذ الباب ينفتح ببطء إلى أن ظهرت قامة الشخص كلها في العتبة، ولكن الزائر لم يدخل مع ذلك، فانما هو يكتفي الآن بالتفرس في الأمير طارف بعينيه، إلى أن أغلق الباب وراءه آخر الأمر، واقترب، فتناول كرسية، وأمسك يد الأمير امساكا قويا فأجلسه على الديوان قبالته قال وهو ينظر إلى الأمير بهيئة انتباه واستفهام أنا فردشتينكو فقال الأمير وهو يوشك أن ينفجر ضاحكا طيب، ثم ماذا؟ دمتم فردشتينكو وهو ما يزال ينظر تلك النظرة نفسها مستأجر هنا تريد أن نتعارف؟ هيه بهذا نطق الزائر وهو يشعث شعره، ثم أخذ يحدق بنظره الى الزاوية المقابلة من الغرفة وهو يتنهد؛ ثم عاد يلتفت نحو الأمير ويسأله فجأة هل معك شيء من مال؟ قليل كم بالضبط؟ خمسة وعشرون روبـلا أرنيها أخـرج الأمير من جيب صديرته ورقة مالية بخمسة وعشرين روبلا، ومدها إلى فردشتينكو ففضها هذا، وفحصها، وقلبها، ثم نظر اليها من جهة الشفافية، ثم قال مفكرا: غريب لماذا يقتم لونها هكذا؟ أن أوراق الخمسة والعشرين

روبلا يقتم لون بعضها كثيرا، على حين أن بعضها الآخر يحول لونها تماما خذها سترد الأمير ورقته المالية ونهض فردشتينكو عن كرسيه وقال للأمير: جئت لأحذرك أولا من اقراضى مالا، لأني سوف أطلب منك أن تقرضني، فاياك أن تلبي طلبى سمعا وطاعة هل تنوي أن تدفع هنا أجرة؟ نعم، أنوى ذلك أما أنا فلا شكرا غرفتي الى جانب غرفتك هي الأولى على اليمين هل رأيتها؟ حاول ألا تجيء إلى كثيرا ولكن اطمئن: سأزورك أنا هل رأيت الجنرال؟ لا ولا سمعته؟ ولا سمعته طبعا فسوف تراه اذن وسوف تسمعه ثم ان يطلب حتى مني أنا أن أقرضه بعض المال هأناذا نبهتك للقاريء استودعك الله هل يستطيع المرء أن يحيا اذا كان يسمى فردشتينكو؟

ـ هه؟ لم لا؟ استودعك الله واتجه الزائر إلى الباب لقد علم الأمير، فيما بعد، أن هذا السيد قد أخذ على عاتقه أن يذهل الناس بمرحه وغرابته وشذوذه، ولكنه كان لا يفلح في ذلك كثيرة، حتى أن بعض الناس كانوا يضيقون به وينزعجون منه، فكان يتألم من ذلك صادقة، ولكن دون أن يكف عن القيام بمهمته عند عتبة الباب، استطاع فردشتينكو أن يضفي على نفسه شيئا من خطورة الشأن، حين اصطدم بقادم جديد: فانه اذ تنحي أمام هذا الزائر الجديد الذي يجهله الأمير، ليفسح له مجال المرور، قد غمز بعينه عدة مرات مومئة اليه، فأتاح

له ذلك أن يخرج محتفظا بشيء من الثقة بالنفس القادم الجديد رجل طويل القامة؛ يبدو في الخامسة والخمسين من عمره أو يزيد؛ بدين بعض البدانة؛ وجهه محمر سمين مسطح قليلا تحيط بعارضيه لحيتان كثيفتان شهباوان؛ له شاربان؛ عيناه واسعتان جاحظتان بعض الجحوظ كان يمكن أن يكون المنظره كله مهابة، لولا أن فيه شيئا من سقوط واهتراء بل ومن اتساخ انه يرتدي ردنجوتا عتيقة يكاد يكون مثقوبة عند الكوعين؛ وفي قميصه اهمال وبقع؛ ومن فمه تفوح رائحة فودكا خفيفة تشمها من قرب ومع ذلك لا تعدم أوضاعه وحركاته أن تحدث في النفس بعض الأثر الحسن، رغم أنها محسوبة مدروسة، فهي تدل على رغبة واضحة عنده في أن يخطف البصر بوقاره اقترب الشخص من الأمير بغير تعجل، وهو يبتسم ابتسامة باشة هاشة، وتناول يده صامتا، وظل ممسكا بها يتأمل وجهه في انتباه كأنه يتعرف ملامح لا يجهلها ودمدم يقول برفق ولكن بوقار انه هو، هو هو كما لو كان حيا لقد سمعتهم ينطقون هذا الاسم المعروف العزيز، فاستيقظ في نفسي ماض كامل.. أنت الأمير ميشكين؟ نعم أنا الجنرال ايفولجين، متقاعد بائس هل يمكنني أن أسألك عن اسمك واسم أبيك؟ ليون نيقولا يفتش.

ـ نعم، نعم، هو بنفسه انت ابن صديقى، بل استطيع أن أقول انك

ابن صديق طفولتى، نيقولا بتروفتش كان اسم أبي نيقولا لفوفتش لفوفتش، نعم، لفوفتش كذلك صحح الجنرال، ولكن دون تعجل، بل بثقة تامة، كأنه لم ينس قط، وانما زل لسانه بغلطة وجلس، وأمسك الأمير بيده هو أيضا، وأجلسه قربه لقد حملتك بذراعي قال الأمير أهذا ممكن؟ لقد انقضى على موت أبى عشرون عاما نعم، عشرون عاما، عشرون عامة وثلاثة أشهر لقد كنا في المدرسة معا، وما لبثت أن التحقت أنا بالسلك العسكري أبي أيضا خدم في الجيش، كان ملازمة ثانية في لواء فاسيلكوفسكى * بل في لواء بيلوميرسكى لقد نقل إلى لواء بسلومير سكى عشية وفاته تقريبا وكنت أنا هناك، وبار كته إلى الأبد وأمك ا صمت الجنرال برهة قصيرة كأنما أوقفته عن الكلام ذكرى حزينة فقال الأمير ماتت هي أيضا بعد ستة أشهر، من اصابة ببرد لا، لم تمت من اصابة ببرد، أبدا، صدق كلام رجل عجوز كنت أنا هناك وقد شهدت جنازتها هي أيضا لقد ماتت من حزنها على فقد أبيك، لا من اصابتها ببرد نعم، انني أتذكرها هي أيضا، الأمير آه يا لعهد الشباب بسببها انما أوشكنا، أنا والأمير، مع أننا صديقا طفولة، أوشكنا أن يقتل كل منا صاحبه أخذ الأمير يصغي الى الجنرال بشيء من الشك والارتياب كنت مولها بحب أمك منذ أن كانت خطيبة، منذ أن كانت خطيبة صديقى ولاحظ الأمير ذلك، فاضطرب اضطرابا شديدا، وجاءنى ذات صباح في الساعة السابعة، فأيقظني من نومى

ارتديت ثيابى مذهولا، وساد صمت صمت منه وصمت مني.. أدركت كل شيء أخرج أبوك من جيبه مسدسين مبارزة من خلال منديل، دون شهود فيم الشهود ما دام كل منا سيرسل صاحبه إلى الآخرة بعد قليل حشونا المسدسين نشرنا المنديل اتخذنا مكانينا أطبق كل منا بفوهة مسدسه على قلب صاحبه، وأخذ ينظر اليه محدقا في عينيه وفجأة انبجست الدموع من العينين، وارتجفت اليد: انبجست الدموع من عينيه وشنى في آن واحد، وارتجفت يده ويدى معة ثم اذا كل منا يرتمي بين ذراعي صاحبه طبعة، واذا نحن نتبارى في الكرم، فالأمير يصرخ قائلا: هي لك،، وأنا أصرخ: بل هي لك، الخلاصة الخلاصة سوف تسكن معنا، أليس كذلك؟قال الأمير مدمدمة بشيء من السرعة: نعم، ربما بعض الوقت صاح كوليا يقول وقد ألقى نظرة من الباب ترجوك ماما يا أمير أن تجيء اليها فهم الأمير أن ينهض، ولكن الجنرال وضع يده اليمنى على كتفه، وعاد يجلسه على الديوان بحركة صداقة؛ وقال له لما كنت صديقة وفيا لأبيك فانى أحرص على أن أنبهك: أنا كما ترى قد سقطت ضحية لظروف فاجعة، ولكن دون أن يصدر على حكم ان نينا الكسندروفنا امرأة نادرة وان باربارا آرداليانوفنا، ابنتي، فتاة نادرة والظروف تجبرنا على أن نؤجر غرفة مفروشة، وهذا سقوط لا أعرف كيف أسمه سقوط صيني أنا، أنا الذي كنت أوشك أن أعين حاكمة عامة وسنكون سعداء باستقبالك عل كل حال غير أن في بيت

مأساة ألقى عليه الأمير نظرة استفهام في كثير من الاستطلاع قال الأمير در هنا زواج، زواج نادر زواج بين امرأة مشبوهة وشاب يمكن أن يصبح فتى مرموقة في البلاط الامبراطوري يريدون أن يدخلوا تلك المرأة إلى بيتي، قرب ابنتي وزوجتي ولكنني لن أدع لها أن تدخل إلى هذا البيت ما ظللت أتنفس سوف أتمدد على عتبة الباب، فلا تستطيع أن تدخل الا اذا مرت فوق جسدى أصبحت لا أكلم جانيا، بل صرت أتحاشى أن ألقاه انى أنبهك إلى هذا عامدة، لأنك لا بد أن تلاحظه على كل حال، ما دمت ستقيم معنا ولكنك ابن صديقى، ومن حقى أن آمل قالت نينا ألكسندروفنا منادية، وقد جاءت إلى الباب بنفسها هذه المرة: هلا تفضلت يا أمير فأدركتني في الصالون هتف الأمير يقول: تصورى يا عزيزتى لقد اتضح أنني قد هدهدت الأمير بذراعي ألقت نينا ألكسندروفنا على الجنرال نظرة لوم، ثم ألقت على الأمير نظرة استفهام؛ لكنها لم تقل شيئا وتبعها الأمير فما ان وصلا إلى الصالون وجلسا، وما أن أخذت نينا ألكسندروفنا تقول للأمير شيئا بصوت خافت وعلى عجل، حتى دخل الجنرال نفسه إلى الصالون فجأة فسرعان ما صمتت نينا ألكسندروفنا، وعكفت على حياكتها متضايقا تضايقا واضحا، ولعل الجنرال قد لاحظ تضايقها، لكن ذلك لم يمنعه من الاستمرار في اظهار مرح مزاجه وهتف يقول مخاطبا نينا ألكسندروفنا: ابن صديقي وعلى نحو لم أكن أتوقعه لقد كففت

حتى عن أن أحلم بهذا الأمر منذ مدة طويلة ولكن هل من الممكن، يا عزيزتى، أنك أصبحت لاتتذكرين المرحوم نيقولا لفوفتش؟ انك قد عرفته مع ذلك بمدينة تفير قالت نينا الكسندروفنا لا أتذكر نيقولا لفوفتش ثم التفتت إلى الأمير تسأله:

ـ أهو أبوك؟ قال الأمير نعم، هو أبى. ثم أضاف يقول للجنرال مصححا على خجل لكن يخيل إلى أنه لم يمت بمدينة تفير، بل بمدينة اليزابتجراد لقد قال لي بافلتشيف قال الجنرال مصرا بل مات بمدينة تفير فانه قد نقل إلى تفير قبيل وفاته بقليل، بل حتى قبل أن يتطور مرضه ذلك التطور المشئوم كنت أنت صغيرا جدا في ذلك الوقت، فلا تستطيع أن تتذكر النقل ولا السفر أما بافلتشيف فمن الجائز جدا أنه أخطأ، رغم أنه كان رجلا ممتازة هل عرفت بالتشيف أيضا؟ كان انسانا نادر المثال لكنني أنا كنت شاهد عيان، باركت باك وهو على فراش الموت قال الأمير مرة أخرى لكن أبي مات متهما، وان كنت لم أستطع أن أعرف السبب في يوم من الأيام لقد مات في المستشفى أوه السبب هو قضية الجندي كولباكوف، وليس هناك أي شك في أن أباك كان سيخرج من المحاكمة بريئا سأله الأمير بشوق شديد واستطلاع قوى: صحيح؟ أأنت متأكد؟ هتف الجنرال يقول طبعا طبعا لقد انفضت المحكمة دون أن تصدر حكما قضية مستحيلة بل

يمكن أن يقال انها قضية محفوفة بالسر. مات قائد حاميتنا، النقيب لاريونوف، فكلف الأمير بأن يكون قائدا للحامية بالنيابة وفي ذلك الحين ارتكب الجندي كولباكوف عمل سرقة، اذ سطا على مواد حذائية لرفيق من رفاقه، ثم باع المسروقات وشرب بثمنها خمرة طيب هنا قرعه الأمير وهدده بالجلد، وذلك بحضور الرقيب والعريف طيبه عاد كولاكوف إلى الثكنة، واستلقي على مضجعه، فما انقضى ربع ساعة حتى كان ميتا طيب ولكن هذه الحالة لا يتوقعها أحد، وتكاد تكون مستحيلة ودفن كولباكوف على كل حال وكتب الأمير تقريرا بالواقعة، فشطب اسم كولباكوف من قائمة الجنود هل هناك ما هو خير من هذا؟ ولكن ما أن انقضت على هذا الحادث ستة أشهر، بعد أن كان الجنود يستعرضون كل يوم، حتى رئى الجندي كولباكوف من جديد في السرية الثالثة من الكتيبة الثانية من فوج مدفعية نوفوز مليانسك ، وهو الفوج الذي ينتمي إلى ذلك اللواء نفسه والى تلك الفرقة نفسها هتف الأمير متعجبا وقد بلغ ذروة الدهشة كيف هذا؟ فتدخلت نينا ألكسندروفنا فجأة فقالت وهي تنظر إلى الأمير نظرة حزن تقريبا لا، ليس الأمر كذلك هذا خطأ زوجي مخطىء مخطىء،؟ هذا تسرع في الحكم اجهدي أن تحلى بنفسك سرا كهذا السر لم يفهم أحد من الأمر شيئا لقد كان يمكن أن أكون أول القائلين: هذا خطأ ولكننى شهدت الأمر بعيني رأسي، وعينت عضوا في اللجنة فدت جميع المواجهات

على أن الرجل هو ذلك الجندي نفسه كولباكوف الذي دفن قبل ستة أشهر على النحو الذي توجبه الأنظمة العسكرية، من قرع الطبول وما إلى ذلك أنا أسلم بأن هذه الحالة نادرة جدا، حتى لتكاد تكون مستحيلة، ولكن هنا دخلت باربارا آرداليونوفنا، فقالت تعلن لأبيها غداؤك مجهز يا بابا عظيم انا أشعر بالجوع حقا، ولكن يمكن أن يقال ان هذه الحانة سيكولوجية قالت فانيا متململة حساؤك سيبرد فجمجم الجنرال يقول وهو يترك الغرفة حالا، حالا وسمع يتم كلامه وهو في الدهليز: « وذلك رغم جميع التحريات قالت نينا ألكسندروفنا للأمير سيكون عليك أن تغض الطرف عن أمور كثيرة في آرداليون الكسندروفتش اذا بقيت عندنا ومع ذلك آمل أنه لن يزعجك كثيرة انه يتناول وجبات طعامه وحيدة أظن أنك تسلم معي بأن لنا جميعا عيوبنا وخصالنا التي قد تكون غريبة شاذة، حتى أن البعض الناس من هذه اعيو وهذه الخصال أكثر مما لأولئك الذين يشار اليهم بالاصبعه أريد أن أطلب منك هذا الطلب ملحة: اذا اتفق أن كلمك زوجي عن أجرة الغرفة فقل له انك دفعتها لي اذا دفعت له مبلغا فسيحسب طبعة، ولكنني أروك أن تتقيد بهذه القاعدة التي ذكرتها لك ماذا يا فاريا؟ كانت فاريا قد دخلت الغرفة، ومدت الى أمها صورة ناستاسيا فيليوفنا دون أن تقول شيئا فارتعشت نينا ألكسندروفنا، ارتعشت أول الأمر بنوع من الرعب، ثم أخذت تنعم النظر في الصورة خلال بعض

الوقت وقد ظهر على وجهها شيء من مرارة وأخيرة ألقت على فاريا نظرة استفهام فقالت فاريا هذه هدية أرسلتها اليه اليوم وسيتقرر كل شيء في هذا المساء قالت نينا ألكسندروفنا مكررة جملة ابنتها بصوت خافت ولهجة يائسة هذا المساء اذن لم يبق مجال لأي شك، ولا محل لأي رجاء انها باهداء هذه الصورة اليه قد أعلنت كل شيء ولكن أهو الذي أراك الصورة؟ أضافت نينا ألكسندروفنا هذه الجملة الأخيرة مدهوشة أجابت الفتاة:

تعلمين أننا أصبحنا منذ شهر لا نكاد تخاطب ان بتشين هو الذي رو لى كل شيء أما الصورة فقد رأيتها ملقاة على الأرض قرب المائدة فلممتها قالت نبينا ألكسندروفنا الأمير وهي تلتفت اليه فجأة كنت أريد أن أسألك يا أمير الحق اني من أجل هذا انما رجوتك أن تأتي الى هنا كنت أريد أن أسألك: أأنت تعرف ابنى منذ مدة طويلة؟ يخيل إلى أنه قال انك اليوم وصلت من مكان ما، أليس كذلك؟

قدم الأمير شروحا موجزة، مسقطة أكثر من نصف الوقائع، كانت نينا ألكسندروفنا وفاريا تصغيان اليه بانتباه قالت نينا ألكسندروفنا أنا لا أحاول أن أعرف شيئا عن جبريل آرداليونتش حين ألقي عليك هذه الأسئلة فما ينبغي أن تخطيء الظن في هذا المجال واذا كان هناك ما لا يريد ابني أن يعترف لي به من تلقاء نفسه، فانني لا

أحرص على أن أعرفه من غيره واذا كنت أكلمك في هذا الموضوع فلأنه قال منذ قليل، بحضورك، ثم قال بعد انصرافك انه مطلع على كل شيء، فلا داعي إلى التكلف والتصنع، فما معنى هذا؟ أي أود لو أعرف مدى في تلك اللحظة دخل جانيا وبتنسين فسرعان ما صمتت نينا ألكسندروفنا وظل الأمير جالسا إلى جانبها، بينما ابتعدت فاريا قليلا وكانت صورة ناستاسيا ما تزال ظاهرة على منضدة نينا ألكسندروفنا، أمامها تماما فلما لمح جانبا الصورة قطب حاجبيه، واكفهر وجهه، وتناولها غاضبا، فرماها على مكتبه الذي يوجد في أقصى الغرفة سألته نينا ألكسندروفنا فجأة هل في هذا اليوم يا جانيا؟ ماذا في هذا اليوم؟ بهذا أجاب جانيا منتفضة، ثم هجم على الأمير فجأة يقول عدت تثرثرأهذا مرض فيك يا صاحب السمو قاطعه بتشين يقول أنا الذنب يا جانيا، أنا وحدي دون غيري فألقى عليه جانيا نظرة استفهام فجمجم بتسين يقول هذا أفضل يا جانا، لا سيما وأن القضية قد سويت، بمعنى من المعانى قال هذا ثم ابتعد، وجلس قرب المائدة، وأخرج من جيبه ورقة ملأى كتابة بالقلم الرصاص، وأخذ يدرسها ظل جانيا واقفا، مكفهر الهيئة مربد الوجه، ينتظر انفجار مشكلة عائلية، بكثير من القلق حتى أنه لم يخطر بباله أن يعتذر للأمير قالت نينا الكسندروفنا ما دام كل شيء قد سوى، فان ايفان بتروفتش على حق طبعا أرجوك أن لا تقطب يا جانيا وألا

تهتاج لن أسألك عما لا تريد أن تقوله له من تلقاء نفسك، وأؤكد لك أني مذعنة كل الاذعان فلا تقلق قالت ذلك دون أن تترك حياكتها، وقالته بهدوء ظاهر فدهش جانيا، لكنه صمت حذرا مترويا، وأخذ ينظر إلى أمه منتظرا أن تفصح بمزيد من الوضوح ان المشاجرات العائلية قد أبهظته حتى الآن كثيرا، وكلفته ثمنا غاليا ولاحظت نينا ألكسندروفنا هذا الحذر وهذا التروى من جانبه، فأضافت تقول وهي تبتسم ابتسامة مرة ما زلت تشك، فلا تصدقني اهدأ بالا لن ترى دموعا ولا ضراعات، مني على الأقل ان رغبتي الوحيدة هي أن تكون سعيدا أنت تعرف ذلك جيدا انني مذعنة لقدرى، لكن قلبي سيظل معك دائما، سواء أبقينا معا أم افترقنا وأنا مسئولة عن نفسي وحدها فأتحدث بلساني وحده؛ أما أختك فلا تستطيع أن تطالبها بمثل هذا هتف جانا يقول راشقا أخته بنظرة سخرية وكره آه هى أيضا أماه: انني أكرر على مسامعك اليمين التي سبق أن حلفتها لك ما دمت حية فلن يجرؤ أحد في يوم من الأيام أن ينتقص من احترامك أيا كان الشخص المقصود، أيا كانت الانسانية التي ستجتاز عتبة بابنا، فانني سأعرف كيف أفرض عليها توقيرة كاملا وكيف ألزمها باحترام مطلق لقد بلغ جانيا غاية السرور والحبور كان ينظر إلى أمه بهيئة تعبر عن المصالحة، وتكاد تزخر رقة وحنانا ما كنت أخشى عليك من شىء يا جانيا، فأنت تعرف ذلك حق المعرفة وما من

أجل نفسي قلقت وتعذبت طوال هذه المدة يقال ان كل شيء سيسوى بينكم هذا المساء؟ فما الذي سيسوى؟ أجاب جانيا: لقد وعدت بأنها ستعلن رأيها هذا المساء في بيتها فاما أن توافق واما أن ترفض لقد تحاشينا أن نتكلم في هذا الأمر منذ ما يقرب من ثلاثة أسابيع، وحسنا فعلنا أما الآن وقد تقرر كل شيء، فانني لا أجد بدا من أن ألقي عليك هذا السؤال: كيف أمكنها أن تعلن لك موافقتها بل وأن تهدى الي صورتها بينما أنت لا تحبها؟ هل يمكن لامرأة لها مثل هذه هذه التجربة أو الخبرة ليس هذا ما كنت أريد أن أقوله هل يمكن أن تكون قد استطعت أنت أن تخدعها إلى هذا الحد؟ آن سخطا شديدا وحنقة رهيبة قد داخلا هذا السؤال بغتة فظل جانيا صامتا، وفكر لحظة، ثم أجاب دون أن يحاول اخفاء سخريته:

ها قد انقدت للاندفاع والاهتياج من جديد يا ماما انك لم تستطيعي حتى الآن أن تسيطر على نفسك وأن تتحكمي بمشاعرك؛ وعلى هذا النحو انما كانت تبدأ الأمور عندنا دائما، فتشب النار في البارود لقد قلت انك لن تلقى لا أسئلة ولا ملامات، وها هي ذي الأسئلة والملامات تستأنف لندع هذا الأمر، فذلك خير وأبقى أؤكد لك حسبك أنك أظهرت حسن النية وطيب الارادة لن أتركك في يوم من الأيام، بأي حال من الأحوال غيري كان يفر من أخت

كهذه الأخت انظرى كيف تحد جنى ببصرها حسبنا هذا لقد كنت مبتهجا أشد الابتهاج.. ولكن كيف عرفت انني أحاول خداع ناستاسيا فيلسوفنا؟ أما فاريا، فلتفعل ما تشاء وكفانا هذا الأن كان جانبا يزداد حرارة وحماسة عند كل كلمة جديدة، وكان يسير في الغرفة بلا هدف أن أمثال هذه المحادثات سرعان ما تصبح هي النقطة الحساسة لدى جميع أفراد الأسرة قالت فاريا قلت انني سأترك هذا البيت متى دخلت هي، هذا عهد أقطعه على نفسي ولن أخلفه هتف جانبا يجيبها عنادا وعنادا انما ترفضين زواجك أيضا لماذا تلوين شفتيك على هذا النحو احتقارا واشمئزازا؟ لست أعبأ بشيء يا باربارا آردالیونوفنا في وسعك أن تنفذ مشروعاتك منذ الآن إذا شئت لقد بدأت أسأم منك وأضيق بك واذ لاحظ جانيا أن الأمير ينهض صاح يقول له كيف تقرر أخيرة أن تتركنا يا أمير؟ كانت تداخل صوت جانبا منذئذ، تلك الدرجة من الاهتياج التي يكاد يكون الانسان فيها مسرورة من غضبه، فهو ينقاد له بدون أي تحفظ، بل يسترسل فيه بتلذذ متزايد، وليكن ما يكون وكان الأمير قد التفت ليرد عليه، لكنه اذ أدرك في تعبير وجهه المتشنج أنه لم يبق الا القطرة التي يطفح بها الكيل، أشاح وجهه وخرج دون أن يقول كلمة واحدة وفهم بعد لحظات، من الأصداء التي كانت تصل اليه من الصالون، أن الحديث قد أصبح منذ انصرافه أشد صخباً وأكثر انفلاتا اجتاز القاعة

الكبيرة حتى حجرة المدخل ليصل إلى الدهليز فالى غرفته فلما بلغ الباب المفضى إلى فسحة السلم سمع أحدا وراء الباب يحاول أن يشد حبل الجرس ولكن الجرس كان مطلا فيما يظهر، فهو لا يزيد على أن يتحرك تحركا ضعيفة دون أن يسمع له أي صوته فسحب الأمير المزلاج، وفتح الباب، فاذا هو يتقهقر مذهولا مرتعشة بجسمه كله: كانت ناستاسيا فيليبوفنا واقفة أمامه، وسرعان ما عرفها من معرفته صورتها فلما لمحته ناستاسيا ومضت عيناها بمعنى الضيق والانزعاج، وأسرعت تلج حجرة المدخل، فتصدم الأمير بكتفها عند دخولها، وتقول له بلهجة حانقة وهي تنضو عنها معطفها:

اذا كنت من الكسل بحيث لا تحمل نفسك عناء اصلاح الجرس، فلا أقل من أن توجد في حجرة المدخل حين يقرع الباب قارع ها هو ذا يسقط معطفى، مذهولا وكان المعطف قد رقد على الأرض فعلا فان ناستاسيا فيليبوفنا لم تنتظر أن يساعدها الأمير في خلع المعطف، فرمته على ذراعيه بحركة من كتفها دون أن تنظر اليه، ولم يتسع وقت الأمير لأن يتلقاه كان عليهم أن يطردوك من الخدمة أبلغهم وصولي أراد الأمير أن يقول شيئا، لكنه كان قد بلغ من الاضطراب أنه لم يستطع أن ينطق بكلمة واحدة وها هو ذا يتجه نحو الصالون وعلى ذراعه المعطف الذي رفعه من الأرض الآن يأخذ معطفى ما بالك تأخذ المعطف؟ هأهأهأ قل لي:ألست

مجنونا بعض الشيء؟ قفل الأمير راجعا، وحدق اليها كالمتجمد فلما ضحكت ابتسم هو أيضا، ولكنه ما يزال عاجزة عن تحريك لسانه بكدمة في اللحظة الأولى، حين فتح لها الباب، اصفر لونه أما الآن فان الدم يزدحم في وجهه هتفت ناستاسيا فيليبوفنا ممتعضة وهي تقرع الأرض بقدمها ما هذا الأبله؟ إلى أين تذهب هكذا؟ ستبلغ عن وصول من؟ تمتم الأمير عن وصول ناستاسيا فيليبوفنا فسألته بقوة لماذا تعرفني؟ أنا لم أرك يوما هيا أبلغ عن وصولى ما هذه الصرخات؟ أجاب الأمير وهو يتجه نحو الصالون يتشاجرون ودخل عليهم الأمير في لحظة حاسمة: كانت نينا ألكسندروفنا متأهبة لأن تنسى نسيانا كاملا أنها مذعنة لكل شيء كانت تدافع عن فاريا والى جانب فاريا يقف بتسين الذي كان قد ترك ورقته المكتوبة أما فاريا فلم يكن يبدوعليها كثير أنها فقدت سيطرتها على نفسها ليست هذه الآنسة من النوع الخواف ومع ذلك كانت فظاظات أخيها تصبح في كل كلمة أشد غلظة وأثقل وطأة، فهي لا تطاق ولقد اعتادت الفتاة في مثل هذه الأحوال أن تكف عن المناقشة، فهي لا تزيد على أن تنظر إلى أخيها صامتة معبرة بوجهها عن السخرية، دون أن تحول بصرها نه لحظة واحدة انها تعرف هذا التكتيك، وهي قادرة على أن تمضى فيه إلى أقصى حدوده. في تلك اللحظة بعينها انما دخل الأمير إلى الغرفة معلنا ناستاسيا فيديوفنا.

الفصل السادس

امـام صمت شامل. نظر الجميع إلى الأمير كأنهم لا يفهمون، ولا يريدون أن يفهموا تجمد جانيا رعبا خاصة وان زيارة ناستاسيا فيليبوفنا، ولا سيما في مثل هذه اللحظة، هي في نظر كل واحد منهم أدعى حدث إلى الدهشة والعجب، وأبعث حدث على الحيرة والارتباك، على الأقل لأن ناستاسيا فيليوفنا تجيء أول مرة لقد ظلت حتى الآن متكبرة متعالية، فلم تعرب في أحاديثها مع جانبا عن أية رغبة في معرفة أسرته، بل لقد أصبحت لا تجيء على ذكرها كأنها لا وجود لها ورغم أن جانيا قد سره بمعنى من المعاني ارجاء مثل هذا الحديث الذي يزعجه ويحرجه كثيرا، فأنه في قرارة نفسه قد حقد على ناستاسيا وحمل لها ضغينة ولقد كان على كل حال يتوقع منها وخزات وسخريات في حق أهله أكثر مما كان يتوقع منها زيارة كان يعلم علم اليقين أنها مطلعة على كل ما كان يجري في بيته عن خطوبته لها، وعلى كل ما كان يراه ذووه من رأى فيها فقيامها بهذه الزيارة الآن، بعد اهداء الصورة، في يوم عيد ميلادها، في اليوم الذي سبق أن وعدت بأنها ستقرر فيه مصيرها، أن قيامها بهذه الزيارة الآن يشير الى قرارها ويدل عليه ما حدث من البلبلة التي أحدثها

دخول الأمير: فها هي ذي ناستاسيا فيلسوفنا بشخصها تظهر في اطار الباب، ثم تدخل الغرفة فتصدم الأمير مرة أخرى صدمة خفيفة أخيرا ظفرت بأن أدخل لماذا تربطون جرسكم؟ كذلك قالت استاسيا فيليبوفنا مرحة وهي تمد يدها إلى جانيا الذى صار إلى جانبها بوثبة واحدة وأردفت تسأله مالي أرى وجهك منقلبا؟ قدمني إلى الحضور من فضلك كان جانيا قد فقد كل سيطرة له على نفسه، فقدمها الى أخته فاريا، فتبادلت المرأتان نظرة غريبة قبل أن تمد كل منها يدها إلى الأخرى كانت ناستاسيا فيلبوفنا تضحك وتختبىء وراء قناع من المرح المصطنع، أما فاريا فلم تحاول أن تخفي شيئا، فنظرتها ظلت مظلمة ثابتة ولم يظهر في وجهها حتى طيف ابتسامة مما توجبه أبسط مبادىء الأدب والتهذيبه فاغتاظ جانبا من ذلك حتى كادت تنقطع أنفاسه ولكن أوان ردها إلى الصواب قد فات؛ لذلك اقتصر على أن رشقها بنظرة تبلغ من امتلائها بالتهديد والوعيد أنها قرأت فيها عنفة شديدة فأدركت قيمة هذه اللحظة عند أخيها، فبدا عليها أنها أرادت أن تتساهل فاصطنعت لناستاسيا فيديوفنا ما يشبه أن يكون ابتسامة ما يزال أهل هذا البيت يسرفون في حب بعضهم بعضا وجاء دور نينا ألكسندروفنا فأصلحت الحال بعض الاصلاح، رغم أن جانيا، من فرط اضطرابه طبعا، قد قدم ناستاسيا فيليبوفنا اليها بعد تقديمها إلى اخته، ثم زاد على ذلك فذكر اسم امه قبل أن يذكر اسم ناستاسيا ولكن ما أن بدأت نينا ألكسندروفنا كلامها فقالت:

يسرني جدا أن، حتى التفتت ناستاسيا فيليبوفنا نحو جانيا بحركة سريعة دون أن تدع للأم أن تكمل جملتها، وصرخت تقول له بعد أن استقرت على كنبة صغيرة قرب النافذة، دون أن تدعي إلى الجلوس أين حجرة مكتبك؟ وأين السكان الذي يستأجرون عندكم غرفة مع الطعام والخدمة؟ عندكم مستأجرون، أليس كذلك؟ احمر وجه جانيا احمرارا رهيبا وهم أن يجاوب؛ لكن ناستاسيا فيليبوفنا كانت قد تابعت كلامها تقول أين يمكنكم أن تسكنوا مستأجرين؟ ليس لك حتى حجرة مكتب ثم التفتت فجأة نحو نينا ألكسندروفنا فقالت لها: هل التأجير يدر ربحا على الأقل؟ حاولت نينا ألكسندروفنا أن تجيب فقالت التأجير يورث متاعب كثيرة، وكان ينبغي أن يدر ربحا بطبيعة الحال، غيرأن ناستاسيا فيليوفنا كانت قد انقطعت عن الاصغاء اليها، لأنها التفتت إلى جانيا وصاحت تقول له ما لي أرى وجهك منقلبا هذا الانقلاب رباه ما هذا الوجه الذي له الآن؟ كان وجه جانيا قد تشوه فعلا بعد بضع لحظات من ذلك الضحك لقد بارحه فجأة ما أحسه في أول الأمر من ذهول، وما بدا على وجهه في أول الأمر من شده مضحك مبعثه الخوف ان شفتيه الآن منعقفتان متشنجتان، وقد أخذ يحدق بنظرة ثابتة خبيثة شريرة، دون أن ينطق بكلمة واحدة، ودون أن يحول بصره لحظة واحدة، أخذ يحدق إلى وجه هذه الزائرة التي ما تزال تضحك غير أن ملاحظة آخر كانت موجودة هناك، ملاحظة لم يكن هو أيضا قد استطاع أن يتحرر من حالة البكم التي أغرقته

فيها رؤية ناستاسيا فيليبوفنا لكنه رغم أنه بقي مغروسا في مكانه من اطار الباب كأنه وند، قد استطاع أن يلاحظ اصفرار جانبا وأن يرى ما طرأ على وجهه من تغير ينذر بشر أن ذلك الملاحظ هو الأمير وها هو ذا يتقدم إلى الأمام خطوة على غير ارادة منه، حتى لكأنه آلة، وكان مروعا بعض الروع، وقال لجانيا اشرب قليلا من ماء، واكفف عن النظر هكذا كان واضحا أنه قال ذلك كله دون أي حساب، بل ودون أية نية خاصة، وانما هو انقاد لاندفاع أولى لكن أقواله هذه كان لها أثر خارق، فكأن كل ما كان يعتمل في نفس جانبا من حنق وغيظ وسخط قد انصب على الأمير دفعة واحدة، فها هو ذا يمسكه من كتفه، ويحدق اليه بنظرة فيها انتقام وحقد وكره، صامتا كأنه عاجز عن أن ينطق بكلمة فسرى في الجمع كله انفعال ش امل، حتى ان نينا ألكسندروفنا اطلقت صرخة صغيرة وقلق بتسين فتقدم خطوة إلى أمام وكان كوليا وفردشتينكو قد ظهرا في الباب فوقفا مذهولين مشدوهين؛ وظلت فاريا وحدها خافضة رأسها، ولكنها تراقب الأحداث بانتباه كانت قد لبثت واقفة الى جانب أمها، عاقدة ذراعيها على صدرها لكن جانبا لم يلبث أن عاد إلى صوابه تقريبا، فأطلق ضحكة عصبية، ثم استرد وعيه كاملا، وصاح يقول بصوت حاول أن يجعله مرحة طبيعية:

ـ ماذا دهاك يا أمير؟ أتراك طبيبة؟ لقد كدت تخيفنى. والتفت إلى ناستاسيا فيليبوفنا، وأضاف قول: ناستاسيا فيلسوفنا، اسمحي لي أن

أقدمه هو من أثمن الناس، وان كنت لا أعرفه أنا نفسي الا منذ هذا الصباح نظرت ناستاسيا فيليبوفنا إلى الأمير محتارة وقالت: أمير؟ أهو أمير؟ تصوروا انني منذ قليل، حين رأيته في حجرة المدخل، قد ظننته خادما، فأرسلته إلى هنا ليبلغ عن وصولى هأهأهأ قال فردشتينكو وقد اقترب مسرعا، مبتهجا بأن الضحك قد استؤنف لا بأس لا بأس حصل خير على كل حال كدت أسيء معاملتك يا أمير، فاغفر لي، أرجوك فردشتينكو، ماذا تفعل هنا في مثل هذه الساعة؟ كنت أمل على الأقل ألا أصادفك أنت هنا قالت ناستاسيا فيلسوفنا ذلك، ثم سألت جانيا ثانية، وهو ما يزال ممسكا كتف الأمير يقدمه اليها ويعرفها به ماذا تقول؟ أي أمير؟ ميشكين؟ فقال جانيا هو مستأجر عندنا واضح أن الأمير قد قدم على أنه شخص طريف نادر جاء في الوقت المناسب جدا ليخرجهم من وضع خطأ، حتى لقد كاد يدفع نحو ناستاسيا فيليبوفنا دفعة؛ بل ان الأمير سمع كلمة أبله، سمعا واضحا يدمدم بها أحدهم وراءه على سبيل الشرح والتفسير، ولعل قائلها هو فردشتينكو تابعت ناستاسيا فيليبوفنا كلامها وهي تفحص الأمير من قمة الرأس إلى أخمص القدمين بدون حرج قل لي: لماذا لم تصحح لي خطئي منذ قليل، حين ارتكبت في حقك تلك الغلطة الرهيبة؟ كان يبدو على ناستاسيا توق شديد إلى سماع جوابه، لاقتناعها سلفا بأن هذا الجواب سيبلغ من الحماقة أنها لن تستطيع الا أن تضحك منه تمتم الأمير يقول لقد دهشت من رؤيتك

فجأة أمامى وكيف عرفت أنني أنا؟ أين التقيت بي قبل اليوم؟ عجيب يخيل إلى حقا أنني سبق أن رأيته في مكان ما واسمح لي أن أسألك أيضا لماذا جمدت في مكانك لا تتحرك ماذا وجدت في من شيء يبلغ هذا المبلغ من الفتنة؟قال فردشتينكو مجعدة وجهه: هيا أجب لماذا لا تجيب؟ آه حين أفكر فيما كان يمكن أن أجيب به على مثل هذا السؤال لو كنت في مكانك طيب يا أمير ما أنت في الحقيقة الا عبيط قال الأمير لفردشتينكو ضاحكا كذلك ولكن أنا أيضا كان يمكنني أن أقول أشياء كثيرة لو كنت في مكانك ثم تابع كلامه مخاطبا ناستاسيا فيلسوفنا في هذا الصباح خطفت صورتك بصرى وبعد ذلك تحدثت عنك مع آل ايبانتشين، وفي ساعة مبكرة من هذا الصباح، حين كنت بالقطار، حتى قبل وصولي إلى بطرسبرج، حدثني عنك بارفيون روجويين كثيرة وفي اللحظة التي فتحت لك فيها الباب، في تلك اللحظة نفسها كنت بخاطري، فاذا أنا أراك أمامي ولكن كيف عرفت أني أنا؟ عرفت ذلك من رؤيتي للصورة وماذا؟

ـ ولأنني انما كنت أتخيلك هكذا؛ وأيضا لأني كنت كمن سبق أن رآك في مكان ما ولكن أين؟ أين؟ يخيل إلى أنني سبق أن رأيت عينيك ولكن هذا مستحيل لم يكن ذلك الا أنا لم أعش هنا قط لعل ذلك حدث في حلم أثناء النوم هتف فردشتينكو قائلا مرحي أمير لا، لا، انني أسحب جملتي التي قلتها أسحبها أحسنت ثم أضاف رغم أن

هذا كله انما هو في الحقيقة سذاجة وبراءة من جانبه كان الأمير قد نطق تلك العبارات القليلة بصوت مختلج متقطع مشوه، حتى لقد كان يتوقف عن الكلام في كثير من الأحيان ليسترد أنفاسه كان كل شيء فيه يدل على انفعال شديد وكانت ناستاسيا فيلسوفنا تتأمله باستطلاع قوى، لكنها كفت عن الضحك وفي تلك اللحظة نفسها جلجل صوت قادم جديد من وراء الجمهورالكثيف الذي كان يحتشد حول الأمير وناستاسيا فيليبوفنا، فشطر الجمهور شطرين ان صح التعبير انه رب الأسرة، الجنرال ايفولجين بشخصه، يقف الآن أمام ناستاسيا فيليوفنا كان يرتدي بدلة فراك، تحتها قميص نظيف، وكان شارباه مدهنين مطيبين كان هذا فوق ما يستطيع جانبا أن يطيق وأن يحتمل ان جانبا شاب مغرور مفتون بالظهور ممتلىء حبا لنفسه إلى درجة الهوس وقد عمد خلال هذين الشهرين الأخيرين إلى جميع الوسائل ليضفي على شخصه شأنا خطيرا ولحلها منزلة هامة واذ شعر أنه ما يزال مبتدئا في الطريق الذي رسمه لنفسه، وان كان غير واثق من قدرته على المضي إلى آخر الشوط، فقد قرر مستميتة أن يتصف سلوكه في بيته بأكبر الوقاحة، فكان في بيته طاغيا مستبدا، ولكنه لا يجرؤ أن يفعل هذا أمام ناستاسيا فيليبوفنا التي تركته في بحرالشك إلى آخر دقيقة، وكانت تسيطر عليه بلا رحمة، حتى لقد خلعت عليه لقب الشحاذ النافد الصبر، وهو لقب نقل اليه أنها وصفته به، فآلى على نفسه ليجعلنها تدفع ثمن ذلك في المستقبل

غاليا، مع احتفاظه بذلك الأمل الصبياني وهو أن يحل كل المشكلات وأن يصلح جميع المتناقضات وهو الآن ما يزال مضطرا أن يشرب هذه الكأس المرة حتى الثمالة؛ والأنكى من ذلك أن عليه في مثل هذه اللحظة أن يتحمل تعذيبا يعد أقسى أنواع التعذيب عند انسان مغرور، ألا وهو أن يحمر خجلا ومذلة أمام أهله في بيته فسرعان ما خطر بباله هذا الخاطر هل يستحق الثواب كل هذا العذاب في آخر حساب؟ أن ما يحدث الآن أمام عينيه لم يكن قد تخيله أثناء هذين الشهرين الأخيرين الا ليلا، وكان ذلك كابوسا يجمده رعبا ويحرقه خجلا آن اللقاء في داخل أسرته بين أبيه وناستاسيا فيلسوفنا يتم الآن أخيرا لقد كان يحاول في بعض الأحيان، ليزعج نفسه، ويعذب نفسه، أن يتخيل الجنرال أثناء حفلة العرس، ولكنه لم يستطع في يوم من الأيام أن يكمل رسم هذه اللوحة الأليمة، فسرعان ما كان يتركها لعله كان يبالغ في تضخيم هذه البلية تضخيما كبيرا، ولكن هذا ما يحدث دائما للأشخاص المغرورين لقد اتسع وقته خلال هذين الشهرين ليفكر ويتخذ قرارا؛ وآلى على نفسه ليردن أباه إلى الصواب مهما كلف الأمر، ولو إلى حين، حتى أن يبعده عن بطرسبرج اذا اقتضى الحال ذلك، سواء أوافقت أمه أم رفضت وهو قبل هذه اللحظة بدقيقتين، أي عندما دخلت ناستاسيا فيديوفنا، قد بلغ من البهت والشده أنه نسي نسيانا تاما احتمال ظهور آدراليون ألكسندروفتش، فلم يحنط للأمر أي احتياط، ولم يتخذ أي تدبير

وها هو ذا الجنرال يظهر الآن أمام جميع الناس؛ وأكثر من ذلك أنه يجيء كالمتهييء لاحتفال فخم فهو يرتدي بدلة فراك وذلك كله في اللحظة التي لا تحاول فيها ناستاسيا فيليبوفنا الا أن تتحين فرصة للاستهزاء به والتهكم على أسرته، كان هو من هذا على يقين تام والا فما عسى أن يكون مغزى زيارتها؟

أجاءت تلتمس صداقة أمه وأخته، أم جاءت لتهينهما في عقر دارهما؟ ثم ان الشك ينتفى انتفاء تام متى رأى المرء موقف كل من المعسكرين فأما أمه وأخته فقد جلستا متنحيتين كمن أدر كهما اذلال، وأما ناستاسيا فيليبوفنا فقد كان يبدو عليها أنها نسيت حتى وجودهما في الغرفة ولئن استمرت في اتخاذ هذا الموقف، أن ذلك يدل حتما على أنها تخفي فكرة وتبيت نية استولى فردشتينكو على الجنرال ليقدمه فقال الجنرال وهو ينحنى بوقار ويبتسم برصانة آردالیون الكسندروفتش ايفولجين جندى قديم جار عليه الدهر، أب لأسرة يسعدها أن تأمل أن تدخل في عدادها سيدة تبلغ هذا المبلغ من الروعة ولم يكمل كلامه فان فردشتينكو قد أسرع يدس تحته كرسية؛ واذ أن الجنرال يكون ضعيفة على ساقيه بعد وجبات الطعام في العادة، فقد تهالك على الكرسي، بل قل انه انهار عليه انهيارا، ولكن دون أن يشعر من ذلك بأي اضطراب أو خجل جلس أمام ناستاسيا فيديوفنا تماما، وتناول يدها، ثم حمل أصابعها إلى

شفتيه بحركة بطيئة مدروسة مع اصطناع هيئة اللطف والبشاشة والتودد كان الجنرال، بوجه عام، امرأة يصعب احراجها أو ارباكها أو بلبلته، وليس يخلو مظهره الخارجي، اذا استثنينا شيئا من الاهمال في ملبسه، ليس يخلو من مهابة، وكان هو لا يجهل ذلك حتى لقد استطاع في الماضي أن يستقبل في أرقى مجتمع، ثم لم يطرد من المجتمع الراقي طردا نهائيا الا منذ سنتين أو ثلاث سنين ومنذ ذلك الحين انما أخذ ينقاد لبعض مواطن الضعف فيه بدون تحفظ ولكنه حافظ على شيء من الطلاقة والجاذبية بدا على ناستاسيا فيليبوفنا سرورعظيم بظهور آردالیون ألكسندروفتش الذي كان واضحا أنه سبق أن سمعت عنه وأراد آردالیون أن يتكلم فقال: علمت أن ابني نعم ابنك أنت أيضا ظريف لطيف لماذا لا تجيء إلى أبدا؟ أأنت الذي تختبيء أم أن ابنك هو الذي يخبئك؟

أنت على الأقل تستطيع أن تزورني دون أن تعرض سمعة أحد لخطر استأنف الجنرال الكلام فقال أبناء القرن التاسع عشر وآباؤهم وصاحت نينا ألكسندروفنا تقول بصوت عال ناستاسيا فيليوفنا، تفضلى فأذني لأردالیون ألكسندروفتش بالانصراف لحظة، فانهم يطلبونه آذن له؟ أرجوك لقد سمعت عنه كثيرة فأنا أرغب في معرفته منذ مدة طويلة ما هي الأعمال التي تناديه؟ أليس محالا على التقاعد؟ لن تتركنى يا جنرال، لن تنصرف، أليس كذلك؟ أتعهد لك بأن يزورك

شخصية، أما الآن فهو في حاجة إلى شيء من الراحة هتفت ناستاسيا فيليبوفنا تسأله وهي تلوي شفتها استياء كطفلة انتزعت منها لعبتها آردالیون ألكسندروفتش، يزعمون أنك في حاجة إلى راحة فأسرع الجنرال يتكفل بجعل وضعه أدعى إلى الأضحاك أيضا، اذ قال يخاطب زوجته بلهجة متفحمة ونبرة لائمة، وهو يحمل احدى يديه إلى موضع القلب من صدره: عزيزتى، عزيزتى فسألت فاريا أمها بصوت عال ألا تريدين أن تخرجي يا ماما؟ فأجابتها أمها لا يا فاريا، سأبقى الى النهاية لا يمكن الا أن تكون ناستاسيا فيلسوفنا قد سمعت السؤال والجواب، ولكن مرحها لم يزدد من ذلك إلا شدة وقوة وأخذت تمطر الجنرال بالأسئلة، فما انقضت خمس دقائق حتى كان الجنرال يفيض في الهدر وسط ضحكات الحفل كله شد كوليا حافة سترة الأمير، وقال له أنت على الأقل، أخرجه إلى مكان ما ألا تستطيع أن تفعل ذلك؟ أرجوك وكانت تلمع في عيني الصبي المسكين دموع استياء وأضاف الصبي يقول بينه وبين نفسه لعنك الله يا جانا استرسل الجنرال في الاجابة عن أسئلة ناستاسيا فيديوفنا، فقال نعم، كنت صديقا حميمة لايفان فيدوروفتش ايبانتشين في الواقع فأنا وهو والمرحوم الأمير ليون نيقولاي فتش ميشكين الذي أتيح لي اليوم أن أفرح بضم ابنه إلى صدرى بعد فراق عشرين عاما، كنا لا نفترق، كنا أشبه بالفرسان الثلاثة: أثوس، وبورتوس، وآراميس ولكن واحزناه واحد منا هو الآن في القبر، مضى ضحية النميمة ورصاصة الثيمنة؛والثاني يمثل أمامك

وما يزال يصارع النمائم والرصاصات هتفت ناستاسيا فيليبوفنا تسأله متعجبة الرصاصات؟ هي هنا، في صدري، أصابتني أثناء حصار كارس وما زلت أحسها حين يسوء الجو ثم اني أحيا كما يحيا فيلسوف: أتجول، ألعب الضاما، بمقهى كبورجوازى اعتزل العمل، وأقرأ جريدة الاستقلال، ولكنني قطعت صلتي بصاحبنا بورنوس ايبانشين قطعا تاما، منذ ثلاث سنين، في أعقاب حادث وقع في القطار بصدد كلب صغير سألته ناستاسيا فيلسوفنا باستطلاع شديد كلب صغير؟ ما تلك القصة؟ كلب صغير؟ في القطار؟

وكانت كأنها تحاول أن تتذكر شيئا ما أوه هي قصة سخيفة لا تستحق أن تروى، حدثت لي مع مسز سميث، صاحبة الأميرة بيلوكونسكايا لا تستحق أن تحكى هتفت ناستاسيا فيلسوفنا تقول فرحة بل اقصصها على، يجب أن تقصها على حتما قال فردشتينكو أنا أيضا لا أعرفها بعد هذا من الأمور الجديدة قالت نينا الكسندروفنا بصوتها الضارع مرة أخرى آردااليون ألكسندروفتش وصرخ كوليا يقول بابا، انهم يطلبونك بدأ الجنرال يحكي القصة مسرورا فقال قصة سخيفة تحكي بكلمتين منذ سنتين تقريبا، بعد تدشين خط السكة الحديدية بين، كنت مسافرة بالقطار لأعمال هامة جدا تتعلق بتسليم منصبى وكنت قد ارتديت الثياب المدنية منذ ذلك الحين قطعت تذكرة سفر بالدرجة الأولى، فلما صرت في

حجرة القطار جلست أدخن، بل قولى انني استمررت أدخن، لأنني كنت قد بدأت أدخن قبل ركوب القطار؛ وكنت وحيدا في الحجرة ولكن لم يكن التدخين ممنوعا، انه ليس مباحا على كل حال وانما جرى العرف بالتسامح في أمره، وذلك يختلف باختلاف الأشخاص وكان زجاج النافذة مخفوضا وفجأة، قبل انطلاق رنة الايذان بتحرك القطار دخلت الحجرة سيدتان وصلتا في آخر لحظة ومعهما كلب صغير، وجلستا قبالتي احداهن ترتادي ثيابا تبلغ غاية الأناقة، لونها أزرق سماوي، والثانية أقل أناقة من الأولى ترتدي ثوبا من حرير أسود فوقه كاب والسيدتان كلتاهما على شيء من الجمال، ولكنهما متعاليتان متكبرتان وكانتا تتحدثان باللغة الانجليزية استمررت أنا في التدخين ولقد فكرت في الأمر طبعا، لكنني قررت مع ذلك ألا أكف عن التدخين، على أن أدير وجهى نحو زجاج النافذة الذي ظل مخفوضا كان الكلب الصغير فوق ركبتي السيدة التي ترتدي ثوبا أزرق بلون السماء، وهو كلب صغير جدا جدا، لا يكاد يتجاوز حجمه حجم قبضة اليد، جسمه أسود، وقوائمه بيضاء كلب نادر كل الندرة وكان في رقبته طوق من فضة عليه نقوش بقيت أنا ساكنا صامتا لكنني لاحظت أن السيدتين تبدوان مستاءتين، بسبب السيجار طبعا فإحداهما تتفرس في وجهي من خلال نظارة تمسكها بيدها ظللت لا أرد بشيء،ما دامتا لا تقولان لي شيئا لو كلمتانى على الأقل، لو طلبتا مني ألا أدخن، اذن لكان يمكن أن ألام ان للبشر لغة يتخاطبون بها،

أن لهم لسانا يتكلمون به لكن السيدتين لبثتا صامتتين وفجأة بدون أي انذار أؤكد لك أن ذلك تم بدون أي انذار كأن السيدة قد فقدت عقلها انتزعت السيدة ذات الثوب الأزرق انتزعت من يدي السيجار، ورمته من النافذة واستمر القطار يسير، بينما أنا أنظر اليها مبهوتا مصعوقا انها امرأة وحشية، وحشية فعلا، وحشية تماما، رغم أنها جميلة، بيضاء، طويلة، شقراء، زاهية اللون، بل زاهية اللون كثيرا صعقتني بنظرتها صعقة وها أناذا، دون أن أقول كلمة واحدة، وبأدب كامل، بل بأدب يبلغ غاية الرقة، أمد اصبعي إلى الكلب، فاحمله بهما من جلد رقبته حملا لطيفا وأرميه من النافذة ليلحق بسيجارى لم يكد يتسع وقته لأن يعول اعوالا صغيرا واستمر القطار يسير هتفت ناستاسيا فيليبوفنا تقول وهي تنفجر ضاحكة وتصفق بيديها كصبية صغيرة أنت شيطان وزأر فردشتينكو يقول مرحي مرحي وابتسم بتسين أيضا، رغم أنه كان هو أيضا قد دهش واستاء من دخول الجنرال وحتى كوليا أخذ يضحك، حتى لقد صرخ يقول مرحي. واصل الجنرال كلامه يقول متحمسا، ظافرا كنت على حق، كنت على حق جدا فاذا كان السيجار ممنوعة في حجرة القطار، فالكلاب أولى أن تكون ممنوعة أيضا صرخ كوليا يقول متحمسا مرحى، بابا عظيم، رائع لو كنت في مكانك لفعلت مثل الذي فعلت أنت حتما سألت ناستاسيا فيليبوفنا نافدة الصبر ماذا فعلت تلك السيدة؟ أظلم وجه الجنرال، ثم قال هي؟ هنا جرت الأمور مجرى سيئا:

ـ فبدون أن تقول كلمة واحدة، بدون أي تمهيد، صفعتنى قلت لك: أنها امرأة وحشية، وحشية تماما وأنت؟ خفض الجنرال عينيه، ورفع حاجبيه، وأعلى كتفيه، وزم شفتيه، وباعد ذراعيه، وقال أخيرا بعد صمت لم أستطع أن أكبح جماح نفسي؟ هل ضربتها ضربة شديدة؟ لا، أحلف لك لقد أحدث الأمر يومئذ فضيحة، لكني لم أضربها ضربة شديدة لم يكن ذلك مني الا رد فعل، لا لشيء الا أن أبعدها غير أن الشيطان رد لي هنا مقلبا، لعينا فالسيدة التي تلبس ثوبا أزرق بلون السماء اتضح انها انجليزية، وأنها مرافقة الأميرة بيلو كو نسكايا، بل وتكاد تكون صديقتها تخيلي الدراما: اغماءات، دموع، حداد كان الكلب الصغير أثيرهما صيحات الأميرات الست والسيدة الأنجليزية ولقد ذهبت أعرب عن أسفي وأقدم اعتذاري طبعا، حتى لقد كتبت رسالة، غير أني لم أستقبل، لا أنا ولا الرسالة، ونشأ عن ذلك شقاق بينى وبين ايبانتشين بطبيعة الحال فهأناذا الآن مشع على، منفى عنهم، مبعد من صحبتهم سألت ناستاسيا فيليبوفنا فجأة ولكن اسمح لي، كيف يمكن هذا؟ لقد قرأت منذ خمسة أيام أو ستة، في الاستقلال، وأنا أقرؤها بانتظام ، قرأت هذه القصة نفسها تماما حدث هذا على خط السكة الحديدية الذي يحاذي شاطىء نهر الراين، بين رجل فرنسي وامرأة انجليزية: هي انتزعت منه سيجارا على النحو الذي وصفت، وهو رمى كلبها الصغير القزم من النافذة بالطريقة التي ذكرت؛ وكل شيء جرى على نحو ما جرى

لك دون أي اختلاف، فحتى ثوب السيدة كان أزرق بلون السماء احمر وجه الجنرال احمرارا شديدا واحمر وجه كوليا أيضا، وأمسك رأسه بيديه وأسرع بتسين يشيح وجهه فكان فردشتينكو وحده ما يزال يضحك ملء حلقه أما جانيا، فالأفضل ألا تتكلم عنه لقد ظل هنالك يعاني ألم أخرس لا يطاق تمتم الجنرال يقول لناستاسيا فيليوفنا أؤكد لك أن هذا الشيء نفسه قد حدث لي وصاح كوليا: فعلا وقع لأبي حادث مزعج مع مسز سميث، خادم بيلو كو نسكايا أنا أتذكر هذا عادت ناستاسيا فيليبوفنا تلح مصرة في غير رحمة ولا شفقة كيف يحدث لك هذا الشيء نفسه؟أتتكرر قصة واحدة في طرفي أوروبا، بجميع تفاصيلها، حتى الثوب الأزرق الذي لونه كلون السماء؟ سوف أرسل اليك العدد الذي قرأت فيه قصة تلك الحادثة من جريدة الاستقلال البلجيكى وتابع الجنرال كلامه ملحا لاحظي مع ذلك أن الحادث الذي وقع لي عمره سنتان اذا كان الأمر كذلك، فطبعا قالت ناستاسيا فيلسوفنا هذا وهي تضحك كأنما قد اعترتها نوبة هسترية قال جانيا بصوت مرهق، وهو يمسك أباه من كتفه بابا، أرجوك أن تخرج معي قليلا أريد أن أقول لك كلمتين كان كره لا نهاية له يسطع في نظرته وفي تلك اللحظة دوى في المدخل صوت الجرس قويا عنيفا يكاد ينخلع له الجرس انخلاعا، فكان يدل على زيارة غير عادية فأسرع كونيا يفتح الباب.

الفصل السابع

سمعت ضوضاء جمهور آتية حجرة المدخل ان من كان في الصالون يدرك أن عدة خمسة أشخاص قد دخلوا، وأن آخرين ما يزالون يدخلون كانت أصوات كثيرة تتكلم في آن واحد، وتصرخ عند المدخل وعند السلم الذي ظل بابه مفتوحا واضح أنهم زوار غريبون عجيبون أخذ جميع من في الصالون ينظر بعضهم إلى بعض متحيرا واندفع جانبا إلى الصالون الكبير، غير أن عددا من الأشخاص كانوا قد دخلوا إلى هناك صاح صوت يعرفه الأمير، صاح يقول هأنت ذا يا يهوذا، يا خائن سلام جانبا، يا وغدا عريقا وصاح صوت آخر يقول مؤيدا نعم، انه هو، هو نفسه لم يبق لدى الأمير أي شك أن أحد الصوتين هو صوت روجويين،وان الصوت الآخر هو صوت ليبديف تجمد جانيا على العتبة مبهوتا مصعوقا، وأخذ ينظر صامتا، دون أن يحاول اعتراض دخول هؤلاء الأشخاص العشرة أو الاثني عشر الذين كانوا يجتاحون الغرفة وراء بارفيون روجويين كانت هذه العصبة خليطا عجيبا، يتميز أفراده لا بتوعهم فحسب، بل بفوضاهم كذلك، حتى أن بعضهم دخلوا كما هم، بفرواتهم ومعاطفهم وكانوا يبدون

جميعا سكارى بعض الشيء، رغم أن أحدا منهم لم يكن سكران فعلا وكان يظهر عليهم جميعا أن كلا منهم في حاجة إلى الآخرين يشد بهم أزره، ويستمد منهم شجاعته. ما كان لواحد منهم أن يجرؤ على أن يدخل لو كان وحده، ولكنهم كانوا كمن يدفع بعضهم بعضا إلى الدخول دفعا حتى روجويين الذي كان على رأسهم، انما كان يدخل محاذرا؛ فكان يبدو مظلم الوجه مشغول البال مهموم النفس إلى درجة الهياج أما الآخرون فلم يكونوا الا كورس، هو فيه المغني أو قل لم يكونوا الاعصبة عليها أن تساعده قليلا كانت العصبة تضم، عدا ليبديف، كانت تضم زالبوجيف الذي عنى بتجعيد شعره عناية كبيرة، وترك فروته في حجرة المدخل، ودخل طلقا متبخترا، ووراءه شخصان أو ثلاثة أشخاص من هذا الطراز نفسه كان واضحا أنهم أبناء تجار؛ وكان في العصبة كذلك رجل يرتدي معطفا على الزي العسكرى، ورجل قصيرسمين مفرط في السمنة ما ينفك يضحك بغير انقطاع؛ ورجل ضخم، بدين هو أيضا، بدانة غير عادية، يكاد يبلغ طوله مترين، متجهم الوجه شديد الصمت، لابد أنه كان يعول على قبضتي يديه كثيرا؛ وطالب من طلاب الطب؛ وبولندى مرح وعلى فسحة الستم سيدتان تنظران إلى حجرة المدخل ولا تجرؤان أن تدخلا فأغلق كولا الباب أمامهما وشده المزلاج سلام جانيا الوغد انك لم تكن تتوقع أن ترى بارفيون روجويين، أليس كذلك؟ هكذا ردد بارفيون روجويين حين وصل إلى باب الصالون فوقف أمام جانبا

ولكنه في تلك اللحظة نفسها، لمح في الصالون، قبالته تماما،على حين فجأة، لمح ناستاسيا فيليوفنا واضح أنه كان أبعد ما يكون عن تخيل امكان أن يراها هنا فما أن رآها حتي أحدثت رؤيتها في نفسه تأثيرا خارقا، فاذا هو يبلغ من الشحوب وانكفاء اللون أن شفتيه أصبحتا زرقاوين قال في رفق بصوت خافت، كأنما يحدث نفسه، وقد شل فلا يدري ماذا يفعل ما يقال صحيح اذن انتهى الأمر ثم قال مخاطبا جانبا من بين أسنانه، وهو ينظر اليه نظرة تفيض بغضب حانق لا يغالب طيب سنتحاسب لقد انحبست أنفاس روجويين، فلم يكد يستطيع أن ينطق بهاتين الكلمتين مقطعتين الا بكثير من العناء وتقدم في الصالون، ولكنه حين أبصر نينا ألكسندروفنا وفاريا فجأة، توقف شاعرا ببعض الخجل رغم كل انفعاله ودخل ليبديف وراءه، يتبعه كظله، وقد نال منه السكر ثم دخل الطالب، فالعملاق ذو القبضتين الهائلتين؛ ودخل وراءهما زاليوجف يحيي ذات اليمين وذات الشمال؛ ثم دخل الرجل القصير السمين يحاول أن يشق لنفسه طريقا ان وجود السيدات قد كبحهم قليلا، وكان واضحا أنه يربكهم ارباكا كبيرا، ولكن المرء يحس أن هذا الارباك سيزول متى حانت لحظة البدء فان وجود السيدات لن يحول دون الفضيحة متى تطلق اشارة البدء قال روجويين في ذهول، ولكن مع شيء من الدهشة كيف؟ أأنت أيضأ هنا يا أمير؟ وما تزال اللبادتان على حذاءيك؟ وتهد لكنه كان قد نسي الأمير وعاد ينقل بصره إلى ناستاسيا فيلييوفنا،

وهو يقترب منها مزيدا من الاقتراب، كأنما يجذبه اليها مغناطيس وكانت ناستاسيا فيليوفنا، هي أيضا، تتفرس في الدخلاء قلقة مستطلعة وأخيرا ثاب إلى جانيا صوابه فقال بصوت عال وهو يلقي على الدخلاء نظرة قاسية، مخاطبا روجويين خاصة اسمحوا لي ما معنى هذا؟

ـ أأنتم هنا في اسطبل أيها السادة؟ أمامكم هنا أمى وأختى قال روجويين من بين أسنانه نرى أنهما أمك وأختك وزاد ليديف يقول واضح أنهما أمك وأختك وأغلب الظن أن صاحب القبضتين القويتين قدر أن الحين قد حان، فاذا هو يهمهم فصاح جانبا رافعة لهجته إلى درجة الانفجار، قائلا كفي أرجوكم أولا أن تنتقلوا إلى الغرفة الأخرى، واسمحوا لي بعد ذلك أن أسألكم ضحك روجويين ضحكة شريرة ساخرة دون أن يتحرك من مكانه وقال عجيب لم يعرفني ألم تتعرف روجويين؟ هبني التقيت بك في مكان ما، فاننى هه التقيت بك في مكان ما أنسيت اذن أنك منذ أقل من ثلاثة أشهر قد سلبتني بالقمار ماتى روبل هي ملك أبي؟ لقد مات الشيخ المسكين قبل أن يتسع وقته لمعرفة ذلك أنت جررتني إلى اللعب، وصاحبك كنيف تولى الغش أفلا تعرفني اذن؟ في وسع بتنسين أن يشهد على كل حال، يكفي أن أخرج من جيبي ثلاثة روبلات، وأن أريكها حتى تركع وتسير على أربع إلى فاسيلفسكى أملا في الحصول عليها هذا أنت

تلك هي نفسك الخسيسة وانما جئت الآن أيضا لأشتريك كيك بالمال لا تنظر إلى حذاءى فأنا أملك يا صاحبي مالا كثيرا، وفي وسعي أن أشتريك أنت وجميع ذويك ولو شئت اشتريتكم جميعا، كان روجويين يزداد اندفاعا، ويبدو أشد سكرا لحظة بعد لحظة وهتف يقول لا، لا تطردينى يا ناستاسيا فيليبوفنا قولى لى كلمة واحدة لا أكثر أأنت مقبلة على الزواج به أم لا؟ ألقى روجويين هذا السؤال كما يلقيه انسان يشعر بأنه هالك، وخاطب ناستاسيا فيليبوفنا كما يخاطب انسان الهه المعبود، ومع ذلك كان في لهجته جرأة هي جرأة من حكم عليه بالاعدام فلم يبق هنالك ما يخاف أن يضيع منه وراح ينتظر الجواب بقلق قاتل رشقته ناستاسيا فيليبوفنا بنظرة ساخرة متعالية ولكنها حين ألقت بصرها على فاريا ونينا الكسندروفنا ثم على جانيا، غيرت موقفها، وقالت تجيبه في رفق وجد، بصوت تلوح فيه الدهشة لا، أبدا، ماذا دهاك؟ ثم كيف خطر ببالك أن تلقى على هذا السؤال؟

ـ هتف روجويين يقول كمن جن فرحة لا؟ لا؟ أصحيح أنك لن تتزوجيه؟ لقد زعموا لي أنك ستتزوجينه آه طيب يا ناستاسيا فيليوفنا هم يدعون أنك وعدت جانيا بأن تتزوجه كيف تزوجين هذا أذلك ممكن؟ لقد قلت لهم هذا ان في وسعي أن اشتريه كله بمائة روبل، فاذا أعطيته ألف روبل أو قولي ثلاثة آلاف روبل في سبيل أن يعدل

عن الـزواج، لهرب عشية الـزواج تاركا خطيته أليس هذا صحيحا ياجانيا، يا سافل؟ ألن تقبل الثلاثة آلاف روبل؟ خذ اليك هي من أجل هذا انما جئت اليوم لقد جئت لأحصل على توقيع منك بالعدول عن الزواج قلت سأشتريك،ولسوف اشتريك فعلا صرخ جانبا يقول وهو يحمر ثم يصفر، ثم يصفر ثم يحمر اذهب من هنا أنت سكران أحدثت هذه الصرخة انفجارات أصوات كانت عصبة روجويين لا تنتظر منذ مدة طويلة الى أول استفزاز وها هو ذا ليديف يهمس في أذن روجويين ببعض الكلام مهتمل أشد الاهتمام أجاب روجويين: أصبت يا سيادة الموظف أصبت يا أيها السكير ولم لا، أخيرا؟ ثم هتف يقول وهو ينظر إلى ناستاسيا فيليبوفنا كالمجنون، فتارة برعب وتارة بجرأة تشبه أن تكون وقاحة ناستاسيا فيليبوفنا اليك ثمانية عشر ألف روبل وهناك مبالغ أخرى

قال ذلك ووضع أمامها، على منضدة صغيرة، حزمة ملفوفة بورق أبيض، ومربوطة بخيط ولم يجرؤ أن يكمل فكرته، لم يجرؤ أن يتم ما كان يريد أن يقوله همس ليديف في أذنه مرة أخرى يقول مرتاعا لا، لا هذا كان واضحا أن ضخامة المبلغ قد روعته، وأنـه يقترح تخفيضه فأجابه روجويين لا يا صاحبي، هنا أخطأت هنا أنت غبي واذ رأى شررا يقدح في نظرة ناستاسيا فيلسوفنا، ثاب اليه صوابه، وأخذ يرتجف، وأضاف يقول: بل نحن كلانا غبيان، أنت وأنا آه ما كان

أشد حماقتى حين سمعت لك أضاف روجويين هذه الجملة الأخيرة بلهجة فيها ندم عميق فبعد أن لاحظت ناستاسيا فيليبوفنا بكثير من الانتباه كيف انقلب وجه روجويين وتشوه، انفجرت تضحك فجأة، ثم أضافت تقول بلهجة خالية من الكلفة، طافحة بالوقاحة، وهي تنهض عن الكنبة كأنما ال ثمانية عشر ألف روبل، لي أنا؟ وكان جانيا يراقب المشهد منقبض القلب صاح روجويين يقول: بل أربعون ألفا، أربعون ألفا، لا ثمانية عشر قد وعدنى بتسين وبسكوب بأن يدفعا لي أربعين ألف روبل في الساعة السابعة أربعون ألف روبل عدا ونقدا

أصبح المشهد دنيئا حقا، ولكن ناستاسيا فيليوفنا ظلت تضحك، ولم تحزم أمرها على الانصراف، كأنها تتعمد أن يطول المشهد وقد نهضت نينا ألكسندروفنا وفاريا، هما أيضا، ووقفتا تنظران صامتتين مروعتين ما عسى أن ينتهي اليه الأمر فأما فاريا فعيناها تلتمعان؛ وأما نينا ألكسندروفنا فقد هزها تعاقب الأحداث هذا هزا قويا كل القوة فهى ترتجف حتى تكاد تسقط مغشيا عليها اذا كان الأمر كذلك، فانني أرفع المبلغ إلى مائة ألف نعم، في هذا اليوم نفسه سأدفع مائة ألف روبل. بتسين، ساعدني في جمع هذا المبلغ، ولك حسابك همس بتسين قائلا وهو يقترب منه بحركة نشيطة ويمسك ذراعه أنت سكران: سوف نستدعى الشرطة أين تظن نفسك؟ قالت ناستاسيا فيليبوفنا كأنما تثيره وتحرضه الحمرة هي التي تتكلم

فأخذ روجويين يصرخ قائلا وقد ازدادت حماسته ازديادا كبيرا لا، أنا لا أكذب سوف تقبضين مائة ألف روبل هذا المساء سوف أبرهن على أني لا أتباخل هنا أرعد صوت آردااليون ألكسندروفتش على حين فجأة يقول غاضب مهددا وهو يتقدم نحو روجويين ما معنى هذا كله أخيرا؟ ان هذا الاندفاع المباغت الذي لم يكن يتوقعه أحد من العجوز بعد أن ظل صامتا حتى ذلك الحين، قد أحدثت أثرا مضحكا، فانطلقت ضحكات هنا وهناك قائل روجويين وهو يضحك ساخرا من أين خرج لنا هذا؟ تعال معنا أيها العجوز فتشرب حتى تسكرفصرخ كوليا الذي كان يبكي عارا وغضبا هذه دناءة وصاحت فاريا فجأة وهى ترتعش غضبا من قمة رأسها إلى أخمص قدميها هل يعقل ألا يكون بينكم واحد يخرج هذه الوقحة من هنا؟ فأجابت ناستاسيا فيليبوفنا تقول بمرح فيه احتقارأأنا أوصف بأنني وقحة؟ ما كان أغباني حين جئت لأدعوهم إلى سهرتى انظر كيف تعاملني أختك يا جبريل آردااليونتش ظل جانيا بضع لحظات كالمصعوق من اندفاع أخته، ولكنه حين لاحظ أن ناستاسيا فليوفنا عازمة في هذه المرة فعلا على أن تتصرف، هجم على فاريا كالمجنون فأمسك يدها بحنق شديد وهتف يسألها وهو ينظر اليها كمن يريد أن يحيلها إلى رماد على الفور ماذا فعلت؟ كان قد خرج عن طوره، وأصبح لا يدري ماذا يصنع صرخت فاريا تقول وهي ترشق أخاها بنظرة انتصار وتحد ماذا فعلت؟ وأنت إلى أين تجرني؟ أتراك تريد مني، أيها الرجل

الساقط، أن أقدم اليها اعتذاري هي التي أهانت أمك، وغطت بيتك كله بالعار؟ وكنا على هذه الحال بضع لحظات، وجها لوجه كان جانيا ما يزال ممسكا يد أخته بيده وحاولت فاريا أن تخلص يدها مرة أو مرتين بكل ما تملك من قوة، لكنها لم تفلح، فاذا هي بعد ذلك تخرج عن طورها فتبصق في وجه أخيها صرخت ناستاسيا فيليبوفنا تقول هذه فتاة حقا يا بتنسين أهنئك زاغ بصر جانيا، ونسى نفسه تماما، فرفع يده يريد أن يضرب أخته بكل قواه وكان يمكن أن تسقط يده على وجهها، لولا أن يدة أمسكت ذراع جانيا بانطلاق سريع فأوقفتها لقد وقف الأمير بين الأخ وأخته قال الأمير حازما، ولكنه كان يرتعش بجميع أعضائه هو أيضا، كما يحدث في اثر اضطراب شديد ما هذا؟ أما كفاكم؟ افزار جانيا قائلا وهو يترك يد فاريا أظل أجدك دائما في طريقي؟ وكانت يد جانيا قد أصبحت طليقة، وكان قد بلغ ذروة السخط، فاذا هو ينزل بيده على وجه الأمير صفعة قوية اخ كوليا يقول وهو يرفع ذراعيه آه آه رباه وانطلقت هتافات التعجب من كل جهة كان الأمير أصفر اللون، يحدق إلى عينى جانيا بنظرة غريبة مثقلة لوما، وكانت شفتاه المختلجتان تحاولان أن تنطقا بشيء ما، وكانت ابتسامة عجيبة غير مألوفة تشجهما فما تستطيعان أن تقولا شيئا واستطاع أخيرا أن يتلفظ فقال أنا، لا ضير أن ضربتنى أما هي فلن أسمح لك بأن تضربها ولكنه فقد سيطرته على نفسه فجأة، فترك جانبا، وأمسك رأسه بيديه، واتجه نحو الحائط، وقال بصوت

متقطع آه لشد ما ستشعر بالخزي والعار من فعلتك وكان جانبا كالمصعوق فعلا هرع كوليا إلى الأمير يقبله ويواسيه، وتبعه روجويين وفاريا وبتشين ونينا لكسندروفنا تبعه الجميع، حتى الشيخ آردالیون ألكسندروفتش. تمتم الأمير قائلا وهو ما يزال يبتسم تلك الابتسامة غير المألوفة ليس هذا شيء ليس هذا بشيء وصرخ روجويين لسوف يندم على ما فعل لسوف تخجل يا جانبا من أنك أسأت إلى مثل هذه النعجة لم يجد كلمة أخرى دعهم يا أمير، يا صديقى؛ وتعال فسوف ترى كيف يعرف روجويين أنه يحب تأثرت ناستاسيا فيليبوفنا، هي أيضا، أشد التأثر من فعلة جانيا وموقف الأمير ان وجهها الذي يكون في العادة شاحب اللون والذي يعبر في العادة عن شرود الذهن، وذلك ما لا يتفق كثيرا مع ضحكها الذي كانت تصطنعه اصطناعاة منذ قليل، قد غيرته الآن عاطفة جديدة هذا واضح كل الوضوح ومع هذا يحس المرء أنها لا تحرص على اظهار ذلك، فهي تحاول أن تحافظ على ما كان يعبر عنه وجهها من سخرية وفجأة تذكرت السؤال الذي أثاره الأمير منذ قليل، فدمدمت تقول على حين بغتة، ولكن بشيء من الجد والرصانة منذ الآن حتما، سبق أن رأيت هذا الوجه قبل الآن فهتف الأمير فجأة يقول بلهجة عتاب عميق، لكنه عتاب فيه مودة وصداقة وأنت، ألا تشعرين الآن بخجل؟

أنت لست تلك المرأة التي حاولوا أن يصفوها بما وصفوها به

دهشت ناستاسيا فيليوفنا، وحاولت أن تبتسم كأنما لتخفي شيئا ما وبعد أن ألقت نظرة على جانيا اتجهت نحو باب الصالون مضطربة لكنها حتى قبل أن تصل إلى حجرة المدخل، عادت أدراجها فجأة، فاقتربت من نينا ألكسندروفنا فتناولت يدها وحملتها إلى شفتيها ودمدمت تقول بصوت سريع، وبحرارة، وقد اشتعل وجهها واحمر لقد حزر صحيح أني لست هكذا ثم استدارت وخرجت، ولكنها بلغت من السرعة في هذا كله أن أحدا لم يتسع وقته لأن يعرف لماذا رجعت أدراجها؛ كل ما هنالك أنهم رأوها تكتم نينا ألكسندروفنا ببضع كلمات همس، ولعلهم رأوها تقبل يدها غير أن فاريا رأت كل شيء، وسمعت كل شيء، وتابعتها بنظراتها مدهوشة عاد إلى جانيا رشده، فاندفع ليصحب ناستاسيا فيليبوفنا، لكنها كانت قد خرجت، فأدركها في السلم صرخت تقول له لا تصحبني إلى اللقاء في هذا المساء لا تتخلف هل سمعت؟ فعاد جانبا مضطربا، مفكرا، واجما ان لغزا ثقيلا يجثم الآن على قلبه، بل هو الآن أثقل مما كان وطافت صورة الأمير أيضا بخاطره وقد بلغ من عمق الاستغراق أنه لم يكن يرى انسحاب عصبة روجويين التي كان أفرادها يصدمونه في المدخل متدافعين متعجلين ترك المنزل في اثر رئيسهم كانوا جميعا يتناقشون بحرارة شديدة وصوت عال وكان روجويين نفسه يمشي إلى جانب بتنسين، ويكلمه ملحا في شيء لا بد أنه خطير ولا يحتمل أي تأخير حتى اذا مر أمام جانيا قال له خسرت يا جانيا فتابعهم جانبا بنظرة قلقة.

الفصل الثامن

ترك الأمير الصالون وحبس نفسه في غرفته فسرعان ما أسرع اليه كوليا ليواسيه كان يبدو على الصبي المسكين أنه أصبح لا يستطيع الانفصال عنه قال له أحسنت اذ انصرفت ستسوء الأمور مزيدا من السوء هناك يحدث هذا في جميع الأيام كل ذلك بسبب ناستاسيا فيليبوفنا تلك قال الأمير في أسرتك، يا كوليا، ألام كثيرة متراكمة نعم، هذا صحيح والحق أننا ليس لنا أن نشكو فالذنب كله ذنبنا ولكن لي صديقا هو أشقى منا أيضا هل تريد أن أعرفك به؟ بسرور كبير أهو أحد رفاقك؟ نعم، تقريبا سأشرح لك الأمر فيما بعد انها جميلة، ناستاسيا فيليبوفنا، أليست كذلك؟ لم يسبق لي أن رأيتها حتى الآن، رغم كل ما بذلت في سبيل ذلك من جهود كانت اليوم باهرة حقا، باهرة كان يمكنني أن أغفر لأخي جانيا كل شيء لو كان يتزوجها عن حب أما أن يأخذ مالا فهذا هو العيب نعم، أخوك لا يعجبني كثيرا أفهم ذلك جيدة، لا سيما بعد الذي فعله بك هل تريد أن أقول لك رأيي؟هناك مواضع اجتماعية وأحكام شائعة لا أطيقها البتة يكفي أن يقوم مجنون أو معتوه أو حتى وغد مجرم،

يكفي أن يقوم وهو في حالة هذيان بصفع أحد الناس حتى يتلطخ شرف الرجل الذي تلقى الصفعة، إلى الأبد، فاذا هو لا يستطيع أن يغسل الاهانة الا بالدم اللهم الا أن يمشوا أمامه ركعا ضارعين اليه أن يصفح ويغفر في رأيي أن هذا طغيان واستبداد، وأنه سخف وذلك هو موضوع الدراما التي كتبها اليرمونتوف بعنوان الحفلة المقنعة، والتي أجد أنها تافهة بلهاء، بل ومخالفة للطبيعة يجب أن نذكر على كل حال أن تلك الدراما هي من الأعمال التي كتبها ليرمونتوف في طفولته تقريبا أعجبتني أختك كثيرا أرأيت كيف بصقت في وجه جانيا؟ شجاعة فاريا ومع هذا فانك أنت لم تبصق، وما أظن أن مرد ذلك إلى نقص في شجاعتك هه ها هي ذي بنفسها صدق المثل: اذكر الذيب وحضر القضيب كنت أعلم أنها لا بد أن تجيء ان فيها نبلا وشهامة، وان تكن لها عيوب ونواقص أيضا كانت أول حركة من فاريا أنها قالت أنت لا عمل لك هنا ولا شأن اذهب إلى أبيك لا بد أنه ضجرك يا أمير؟ لا، بالعكس ها هي ذي الأخت الكبرى تندفع وتثور ذلك هو عيبها ولكن، بالمناسبة، لقد ظننت أن أبانا سيتبع روجويين لا بد أنه نادم الآن على أنه لم يفعل وأضاف كوليا يقول وهو يخرج يستحسن فعلا أن أذهب اليه فأرى ما هنالك قالت فاريا الحمد لله استطعت أن أقود ماما وأن أرقدها، ولم يحدث انفجار جديد وجانيا غارق في خجله وهمومه هناك ما يدعوه إلى ذلك على كل حال يا له

من درس لقد جئت لأشكرك، وأسألك أيضا ألم تكن تعرف ناستاسيا فيليوفنا قبل اليوم؟ لا، لم أكن أعرفها فلماذا قلت لها اذن، وجها لوجه، انها ليست تلك، المرأة؟

ـ ألا أن من الجائز أن تكون قد حزرت الواقع على كل حال، طاش عقلي، وتاه فكري، فأصبحت لا أفهم من الأمر شيئا لا شك في أنها كانت تنوي أن تهيننا ذلك واضح وقد سبق أن سمعت عنها أشياء كثيرة غريبة ولكن اذا صدق أنها جاءت لتدعونا أنا وماما، فكيف نفسر أنها بدأت بمعاملة ماما تلك المعاملة الغريبة؟ ان بتسين يعرفها جيدا وقد قال أنه لم يستطع أن يعلل سلوكها منذ قليل وموقفها ذاك من روجويين؟ ان من يحترم نفسه لا يسمح لنفسه بمثل هذه اللغة، في منزل وأمى قلقة عليك كل القلق أيضا قال الأمير وهو يحرك يده بحركة عدم الاكتراث ما هذا بشيء أنه لغريب مع ذلك أنها أطاعتك كيف أطاعتني؟ حين قلت لها ان عليها أن تشعر بالخجل، فاذا هي تتغير وتتبدل دفعة واحدة ثم أضافت فاريا وهي تبتسم ابتسامة خفيفة ان لك عليها نفوذا وسلطانا يا أمير وفتح الباب، ودخل جانيا من حيث لم يكن يتوقع دخوله البتة وحتى رؤية فاريا لم تحمله على التردد تلبث عند العتبة لحظة، ثم دنا من الأمير وقد بدا في وجهه الحزم والثبات، وقال فجأة بانفعال قوى يا أمير، لقد كنت أنا دنيئا،

فاغفر لي ياعزيزي كانت قسمات وجهه تعبر عن ألم كبير وعذاب شديد فتأمله الأمير مشدوها ولم يجب فورا فأسرع جانيا يكرر قوله نافد الصبر اغفر لي، أرجوك، اغفر لي هل تريد أن أقبل يدك؟ فما كان من الأمير، وقد تأثر تأثرا شديدا، الا أن عانقه بذراعيه دون أن يقول كلمة واحدة وتبادل الرجلان القبلات صادقة قال الأمير أخيرا وهو يسترد أنفاسه بكثير من العناء ما كان ليخطر ببالي أنك قادر على هذا كنت أظن أنك غير قادر عليه على الاعتراف بأخطائى؟ اني لأتساءل كيف أمكنني أن أعدك أبله، أنت الذي ترى ما لا يستطيع الآخرون أن يلاحظوه في يوم من الأيام أنه ليكون مفيدا أن أجري معك حديثا ولكن ربما كان السكوت أفضل قال الأمير وهو يومىء له إلى فاريا وهذه انسان آخر يجب عليك أن تستغفره فصاح جانيا قائلا وهو يشيح بوجهه عن أخته لا، لا، هؤلاء جميعا أعداء لي تأكد يا أمير أني قمت بمحاولات كثيرة وبذلت جهودا كبيرة لا، هنا لا يغفرون غفرانا صادقا قط فقالت فاريا فجأة بل سأغفر لك وهل تذهبين هذا المساء إلى بيت ناستاسيا فيليبوفنا؟ أذهب، اذا أمرتني بأن أذهب ولكن الحكم في الأمر بنفسك: هل يمكنني الآن أن أظهر هناك؟ ما دامت ليست تلك انك ترين الألغاز التي تقوم في أذهاننا عنها؟ ألا أنها لتجيد التمثيل الى جانيا ذلك وضحك ضحكة ساخرة خبيثة أنا أدرك أنها ليست ما تراءى لنا، وأن في جعبتها مقالب،

أخرى ولكن ما هي تلك المقالب؟ ثم انتبه يا جانيا أأنت تعرف رأيها فيك على الأقل؟ صحيح أنها قبلت يد ماما، ولنفرض أن سائر الأمور تمثيل، ولكنها مع ذلك قد سخرت منك وتهكمت عليك هذه مذلات لا تساويها خمسة وسبعون ألف روبل لا يا أخي عهدي بك أنك قادر على الشعور بعواطف نبيلة، لذلك تراني أقول لك هذا الكلام صدقني أنت نفسك لا تذهب اليها هذه الليلة حذار أن تذهب سوف يجرى الأمر كله مجرى سيئا قالت فاريا ذلك، وأسرعت تخرج من الغرفة منفعلة أشد الانفعال قال جانيا وهو يضحك مستهزئا: كذلك هن جميعا هل يتخيلن أنني أنا نفسي لا اعرف؟

ـ لا شك أنني أعرف أكثر مما يعرفون وهنا جلس جانيا على الديوان، فكان واضحا أنه ينوى اطالة زيارته تجاسر الأمير فقال خجلا وجلا اذا كنت تعرف، فلماذا اخترت اذن هذا التعذيب عالما أن خمسة وسبعين ألف روبل لا تساويه؟ فدمدم جانيا يقول ليس هذا هو الأمر ولكن قل بالمناسبة، فأنا أحرص على أن أعرف رأيك: هل هذا التعذيب، تساويه خمسة وسبعون ألف روبل أم لا تسويه؟ أعتقد أنها لا تساويه مفهوم وعار أن يتزوج الرجل على هذه الشروط عار جدا طيب فاعلم انني سأتزوج مع ذلك، واعلم أنني الآن أشد ثقة ويقينا مما كنت من قبل فمنذ قليل، كنت ما أزال مترددا، أما الآن

فقد انتهى الأمر لا تقل شيئا أنا أعرف ماذا تريد أن تقول لا أريد أن أتكلم عما ظننت أني سأتكلم عنه كل ما هنالك اننى مدهوش من ثقتك ويقينك مم؟ من ثقتي ويقيني؟ من ثقتك أولا بأن ناستاسيا فيليبوفنا ستتزوجك حتما، وأن هذا أمر مفروغ منه؛ ومن ثقتك ثانية بأن هذه الخمسة وسبعين ألف روبل ستلقى في جيبك رأسا أقول هذا رغم أنني أجهل أشياء كثيرة على كل حال اقترب جانبا من الأمير بحركة نشيطة وقال طبعا، أنت لا تعرف كل شيء والا فلماذا كان يمكن أن أقبل احتمال هذا الثقل كله؟ يخيل إلى أن ذلك يحدث في كثير من الأحيان: يتزوج الرجل طمعا في مال، ولكن المرأة هي التي تستولي على المال دمدم جانيا يقول واجما مفكرا قلقا عد لا لن تجرى الأمور هذا المجرى في زواجنا هناك ظروف معينة ثم أسرع يضيف أما عن جوابها فلم يبق ثمة أي شك فيه ما الذي يدعوك إلى افتراض أنها قد ترفضني؟

ـ لا أعرف أكثر مما رأيت وقد قالت باربارا أردالیونوفنا، هي أيضا، منذ قليل هن يقلن هذا الكلام، لأنهن لم يبق لهن ما يقلنه أما روجويين فقد كانت تسخر منه، ثق بهذا ذلك شيء ميزته واضحة، ذلك شيء لا يخفى عن البصر عانيت منذ قليل لحظة قلق، لكنني أرى الآن رؤية واضحة اللهم إلا أن يكون حكمك مبنيا على سلوكها مع

أمى وأبى وفاريا؟ على سلوكها معك هب ملاحظتك صحيحة ولكن هذا ليس الا روح الانتقام الأبدية لدى النساء ان ناستاسيا فيليبوفنا امرأة سريعة الاهتياج، شديدة التأذي، كثيرة الأنانية: لكأنها موظف من الموظفين المنسيين في كشوف الترقيات لقد حرصت على أن تثبت لهم قوة شخصيتها، وعلى أن تظهرلهم احتقارها لهم ولي أنا أيضا، ان شئت هذا صحيح لست أنكره لكنها ستتزوجني مع ذلك انك لا تستطيع أن تتخيل الألاعيب التي يمكن أن تدفع اليها الكبرياء أن هذه المرأة تعدني شخصا جديرا بالاحتقار، لأني على علمي بأنها خليلة رجل آخر، أرضى أن أتزوجها في سبيل المال صراحة ولكنها لا يخطر ببالها أن شخصا آخر كان يمكن أن يخدعها بطريقة أحقر وأدنأ، كأن يأخذ يحدثها مفيض مسهبا عن الأفكار اللبرالية والآراء التقدمية وتحرير المرأة وما إلى ذلك، ليجرها بعد ذلك من أنفها ان في وسعه بمثل هذه الأساليب أن يقنع هذه المجنونة اقناعا سهلا كل السهولة بأنه لا يختارها الا ، لنبل قلبها، وكثرة محنها مع أنه في حقيقة الأمر لا يفكر الا في مالها أما أنا فلا أحظى بالقبول والرضى، لأني أكره المواربة ولكن كان على في الواقع أن ألجأ إلى ذلك الأسلوب ثم قل لي: ما الذي تفعله هي؟ ألا تفعل هذا الشيء نفسه؟ فلماذا اذن تحتقرني، وتمثل هذا التمثيل كله؟ السبب بسيط: هو أنني أرفض أن أرضخ، وأظهر العزة والكبرياء أنا أيضا على كل حال، سوف نرى

أتراك أحببتها من قبل؟ نعم، في بداية الأمر، ولكن كفي هناك نساء لا يصلحن لأن يتخذهن الا خليلات لا أدعي بهذا القول أنها كانت خليلتى فإذا رضيت أن تكون عاقلة وأن تعيش هادئة، رضيت بذلك أنا أيضا، أما اذا أخذت تتمرد وتثور، فسرعان ما سأتركها فارة بالمال لا أريد أن أكون أضحوكة، ذلك أهم شيء عندي قال الأمير بحذر يخيل إلى أن ناستاسيا فيلسوفنا ذكية، فكيف تقع في الفخ اذا كانت توجس هذا الشقاء كله سلفا؟ في وسعها أن تتزوج رجلا أخر ذلك ما يثير دهشتي هنا يكمن الحساب كله انك لا تعرف كل شيء يا أمير ان ههنا ثم أنها مقتنعة على كل حال بأنني أحبها حبا يبلغ الجنون أؤكد لك ذلك وأغلب الظن عندي أنها هي أيضا تحبنى على طريقتها، فكما يقول المثل: من يحب حبا قويا يعاقب عقابا شديدا، طوال حياتها ستظل تعدني أسيرا تعذبه ولعل ذلك هو ما تحتاج اليه، مع حبها اياى على طريقتها في الوقت نفسه انها تهيىء نفسها لهذا، فذلك هو طبعها: أنها امرأة روسية إلى أقصى حد، أؤكد لك هذا أما أنا فانني أخبيء لها أيضا مفاجأة أن ما حدث بيني وبين فاريا منذ قليل كان طارئا عرضيا، لكنه يفيدني: لقد استطاعت أن تتأكد من تعلقي بها، ومن أنى سأقطع جميع الصلات في سبيلها هأنت ذا ترى أنني أنا أيضا لست غبيا إلى ذلك الحد لا شك أنك تجدني كثير الثرثرة جائز جدا يا أمير أني أخطىء اذ أفضى اليك بهذه المسارات كلها

ولكني ما هجمت عليك هذا الهجوم الا لأنك أول انسان نبيل ألقاه في حياتي لا تأخذ كلمة الهجوم، هذه بمعنيين: لست حاقدا على ما حدث منذ قليل، أليس كذلك؟ لعل هذه أول مرة أتكلم فيها مفتوح القلب منذ سنتين الشرفاء هنا قليل: أشرفهم بتنسين ولكن يخيل الى أنك تضحك؟ ألا تضحك؟ ان الأوباش يحبون الشرفاء كثيرا ألم تكن تعرف هذه الحقيقة؟ واذ انني ولكن قل لى حقا: فيم أنا وبشه؟ هلا قلت إلى هذا صريحا صادقا لماذا يقلدونها جميعا فيعدونى وبشا؟ تصوره فوق ذلك انتي حين أسمع كلامها وأسمع كلامهم أخذت أعد نفسي وبشأ مثلما يعدوننى كذلك ذلك هو الصغار وتلك هي الحقارة في الواقع قال الأمير أما أنا فلن أعدك بعد اليوم وبشأ الحق أنني منذ قليل كنت على وشك أن أعدك وغدا بالفعل ولكنك أفرحتني الآن كثيرا هذا درس سأنتفع به في المستقبل، وهو ألا أحكم على الناس قبل أن تكون لي خبرة بهم أنا الآن أرى أنك لست وغدا، بل أذهب إلى أبعد من ذلك فأقول انك لست حتى رجلا فاسدا في رأيي انك انسان عادي جدا، ربما على شيء من ضعف الإرادة وقلة الأصالة ابتسم جانيا ابتسامة مريرة، ولكنه لزم الصمت ولاحظ الأمير أن رأيه لم يحظ برض جانيا فخجل من ذلك كثيرا، وصمت هو أيضا سأله جانيا فجأة هل طلب منك أبي مالا؟ لا سيطلب، فلا تعطه أما أنه كان انسانا لائقا جدا، فهذا أمر أتذكره كل التذكر لقد كان يستقبل في

أرقى مجتمع. ما أسرع ما يترددون ويسقطون، هؤلاء الناس اللائقون جميعا أمر غريب يكفي أيسر تغير في ظروف حياتهم حتى يهووا إلى الدرك الأسفل، ثم لا يبقى منهم شيء، فكأنهم بارود اشتعل فاستحال كله دخانا أؤكد لك أنه كان في الماضي لا يكذب أبدا كما يكذب الآن كل ماهنالك أنه كان شديد التحمس، فانظر كيف صار الآن هذا ذنب الشراب طبعا هل تعلم أنه يعول خلية؟ ثم أنه الآن ليس كذابا بغير أذى انى لا أفهم كيف تصبر عليه ماما هذا الصبر كله، وكيف تتسامح معه هذا التسامح كله هل روي لك قصة حصار كارس،؟ أو قصة حصانه الأبلق الذي طفق يتكلم؟ انه يصل إلى هذا الحد أحيانا قال جانيا ذلك وانفجر يضحك ضحكة مجلجلا ثم سأل الأمير ما بالك تنظر الى هكذا أدهشني ما في هذا الضحك من صراحة وصدق أرى أنك ما تزال قادرا على أن تضحك كما يضحك طفل ومنذ قليل، حين دخلت لتصالحني، سألتني: هل تريد أن أقبل يدك؟ هذا بعينه هو ما يفعله طفل حين يستغفر من ذنب ما زلت قادرا اذن على هذا النوع من الكلام الطيب والاندفاع الصادق فما بالك تنساق هذا الانسياق في تلك القصة المشبوهة، قصة الخمسة وسبعين ألف روبل حقا أن ذلك ليبدو لي مستحيلا لا يصدق فما هي النتيجة التي تستخرجها من هذا كله؟ انني أتساءل ألست تتسرع في سلوكك كثيرا؟ أليس الأفضل أن تفكر أولا؟ قد تكون باربارا آرداليونوفنا

على حق قاطعه جانيا قائلا هذا درس في الأخلاق أما أني ما زلت صبيا صغيرا فذلك أمر أعرفه أنا نفسي وأكبر دليل على ذلك أنتي أثرت معك مثل هذا الحديث وتابع جانيا حديثه فاضحة نفسه كفتى جرحت كبرياؤه: لكنني لا أرتضي هذا الزواج بدافع الحساب وحده يا أمير والا لكان من الممكن أن تخطىء حساباتى، فما زلت لا أملك لهذا الأمر كل عدته من دماغ قوى وعزيمة صلبة وانما أنا أقبل هذا الزواج مدفوعا بهوى عنيف جامح، وميل عارم لا يغالب، لأن لى هدفا رئيسيا لعلك تظن أنني متي قبضت هذه الخمسة وسبعين ألف روبل، فسأشتري لنفسي مركبا فخما فاعلم اذن أن الأمر ليس كذلك لسوف أخذ عندئذ في ابلاء سترة عتيقة عمرها ثلاث سنين، ولسوف أعدل عندئذ عن جميع علاقاتي بالمنتدى. ما أقل القادرين في بلادنا على المضي في طريقهم قدما لا يحيدون عنه، وان تكن نفوسهم جميعا نفوس مرابين أما أنا فسأصمد وسأتابع السير إلى النهاية فانما المهم أن يسير المرء إلى النهاية تلك هي المشكلة كان بتسين، في السابعة عشرة من عمره، يبيت في الشارع ويبيع سكاكين بدأ كفاحه ببضعة كوبكات وهو يملك الآن ستين ألف روبل ولكن ما أقسى الجهود التي بذلها والمصاعب التي قاساها في سبيل ذلك أما أنا فأستطيع أن أتخطى جميع تلك المصاعب فأبدأ برأس مال كبير على الفور فما أن تمض خمس عشرة سنة حتى يشير إلى

الناس بالبنان قائلين: هذا افولجين، ملك اليهود، أنت تصفني باننى خال من الأصالة فاعلم يا عزيزي الأمير أن أكبر اهانة يمكن أن تلحقها بانسان في عصرنا ومن جنسنا هي أن تنعته بأنه محروم من الأصالة والارادة والمواهب الخاصة، وأن تقول عنه انه رجل عادى انك لم ترض حتى أن تعدنى وبشا ذا قيمة؛ واني لأعترف لك بأنني أوشكت منذ قليل أن التهمك التهاما بسبب ما قلته في حقي لقد آلمتني أكثر مما تلمني اباتشين ذاك الذي يظن أني لن أتورع عن أن أبيعه امرأتي لم يصرح بهذا، ولكنه يضمره، وهذه سذاجة منه، فإنه لم يحاول حتى أن يسبر ما بنفسي هذا كله يثيرني منذ مدة طويلة يا صديقى، وذلك هو السبب في انني محتاج الى مال فمتى حصلت على المال، أصبحت على جانب كبير من الأصالة، ثق بهذا من هذه الناحية خاصة انما يجب أن يوصف المال بأنه حقير وبغيض، لأنه يضفي على صاحبه حتى الموهبة وسيستمر الحال على هذا المنوال إلى نهاية العالم قد تقول لي ان هذا الكلام كله صبيانى، أو قد تقول لي أنه كله شعر لا ضير ليزدد الأمر بذلك سخفا، ولكنه سيتحقق سأسير إلى نهاية الشوط، وسأصمد صدق المثل يضحك جيدا من يضحك آخرا، لماذا يعاملنى ايبانتشين هذه المعاملة؟ أعن خبث وشر؟ لا وانما هو يعاملني هذه المعاملة لأني شخص يمكن اهماله تماما، فليس له قيمة أو وزن أما حين أصبح على كل حال، كفي الآن

كلاما لقد أزف الوقت ثم ان كوليا قد أطل بأنفه مرتين، ربما لينـاديك إلى الغداء أما أنا فأخرج ساتي اليك أحيانا لن تتضايق كثيراعندنا فلسوف يتبنونك الآن جميعا حذار أن تفضحني يخيل إلى أننا لا نستطيع أن نكون الا أصدقاء أو أعداء قل لي يا أمير: لو أنني قبلت يدك منذ قليل كما اقترحت ذلك صادقا أكنت أصبح بعد ذلك عدوك لهذا السبب؟

ـ قال الأمير وهو يضحك بعد لحظة من تفكير: حتما ولكن لا إلى الأبـد، بل إلى حين، فانك ما كنت تستطيع أن تصمد طويلا، فلا بد أن تغفر لي أخيرا قال جانيا هيه هيه أرى أن على المرء أن يكون حذرا كل الحذر معك أنك حتى في هذا الجواب قد استطعت أن تدس شيئا من سم من يدرى لعلك عدو بالمناسبة هأهأهأ لقد نسيت خيل الى منذ قليل أن ناستاسيا فيليبوفنا أعجبتك كثيرا، هل هذا صحيح؟ نعم، تعجبني أنت مغرم بها؟ رد لا ومع ذلك احمر لونك، وظهر العذاب في وجهك طيب ليس هذا بشيء لن أسخر منك إلى اللقاء هل تعلم أنها امرأة متمسكة بالفضيلة؟ هل تستطيع أن تصدق ذلك؟ لعلك تظن أنها خليلة الآخر، توتسكى؟ أخطأ اذن ظنك ما هي خليلته، وذلك منذ زمن طويل هل لاحظت خراقتها وخجلها في بعض اللحظات؟ تلك هي الحقيقة أن أصحاب أمثال هذه الطباع هم الذين

يحبون أن يسيطروا طيب استودعك الله انسحب جانيا بكثير من اليسر والطلاقة والسهولة، فكان عند خروجه أحسن حالا وأصفى مزاجا منه عند دخوله أما الأمير فقد لبث جامدا نحو عشر دقائق، لا يتحرك وأطل كوليا برأسه من الباب من جديد فقال له الأمير لن أتغدى يا كوليا، فقد أفطرت عند آل ايبانتشين منذ قليل فأصبت حظا كبيرا من الطعام فدخل كوليا، ومد إلى الأمير رسالة انها ورقة مطوية ممهورة بتوقيع الجنرال يستطيع من ينظر إلى كوليا أن يقرأ في وجهه مدى الألم الذي يشعر به وهو يناول الأمير الرسالة وقرأ الأمير الرسالة، فنهض وتناول قبعته قال كوليا خجلان مضطربا ليس المكان بعيدا، هو على مسافة خطوتين من هنا بابا جالس إلى مائدة أمام زجاجة اني لأتساءل كيف استطاع أن يقنعهم بأن يسقوه دينا أرجوك يا عزيزي الأمير ألا تذكر لأحد انني نقلت اليك هذه الرسالة لقد حلفت ألف مرة ألا أعود إلى فعل هذا أبدا، ولكنني أشعر بشفقة عليه ثم أرجوك أن لا تصانعه وتجامله؛ اعطه بضعة نقود واكتف بهذا كنت أنوي أنا نفسى يا كوليا انني في حاجة إلى أن أرى أباك لسبب ما هيا بنا.

الفصل التاسع

قاد كوليا الأمير إلى مقهى بلياردو، قريب من المنزل، قبل شارع ليتاينايا، يقع في قبو على الطريق، فالى اليمين، في حجرة صغيرة خاصة كان آردالیون ألكسندروفتش جالسا إلى مائدة كما يجلس زبون قديم، وقد وضعت أمامه زجاجة، وكان يقرأ جريدة الاستقلال البلجيكى، فعلا كان ينتظر الأمير فما أن أبصره حتى ترك جريدته وشرع يفيض في شرح طويل حار لم يفهم الأمير منه شيئا كثيرا على كل حال، لأن الجنرال كان في الواقع قد ثمل وقاطعه الأمير يقول ليس معي ورقة عشرة روبـلات، ولكن اليك ورقة خمسة وعشرين روبـلا، فبدلها ورد إلى خمسة عشر روبـلا، والا بقيت بغير كوبك واحد طبعا طبعا تأكد أن هذا سيتم فورا فورا ثم ان هناك شيئا أريد أن أسألك عنه يا جنرال: ألم تزر ناستاسيا فيلييوفنا في يوم من الأيام؟ صاح الجنرال يقول في نوبة اختبال وغطرسة وسخريه أنا؟ لم أزرها في يوم من الأيام؟ أتسألني أنا هذا السؤال؟ مرارا يا عزيزى مرارا لكنني انقطعت عن زيارتها أخر الأمر حتى لا يكون في ذهابي اليها تشجيع على مصاهرة غير لائقة لقد رأيت بعينيك وكنت

شاهدا على ما حدث منذ قليل: أني فعلت كل ما يستطيع أن يفعله أبين متسامح لكن أبا من نوع آخر سيدخل المشهد بعد الآن، ولسوف نرى عندئذ: هل المحارب القديم المظفر هو الذي سينتصر على المؤامرة ويحبطها، أم أن غادة كاميليا، وقحة هي التي ستستطيع أن تدخل أسرة نبيلة كريمة المحتد؟ انما أردت أن أسألك ألا تستطيع، بصفتك من رواد منزلها، أن تدخلني هذا المساء إلى بيت ناستاسيا فيليبوفنا؟ ولا غنى لى عن أن يتم هذا في المساء نفسه أنا في حاجة إلى أن أراها، لكنني لا أعرف كيف أدخل عليها صحيح أنني قدمت اليها منذ قليل، ولكنني غير مدعو هي تقيم في هذه الليلة حفلة على انني مستعد أن أخالف بعض الأصول، ولو تعرضت لأن أكون أضحوكة، في سبيل أن أدخل اليها بطريق أو بأخرى هتف الجنرال يقول بحماسة ذلك يطابق فكرتي كل المطابقة يا صديقي الشاب ثم أردف يقول وهو يأخذ المال ويضعه في جيبه أنا لم أزعجك بالمجيء إلى هنا من أجل هذا الأمر التافه يقصد المال، وانما استدعيتك لاقترح عليك أن تصحبني في هجوم على ناستاسيا فيليوفنا الجنرال ايفولجين والأمير ميشكين ما أقوى الموقع الذي سيحدثه هذا التحالف في نفسها سأتظاهر بأنني أزورها مهنئا بعيد ميلادها، فأعرف عندئذ كيف أفرض ارادتى أخيرا، لا بطريقة مباشرة، بل بطريقة غير مباشرة، ولكن الأمران واحد وسيعرف جانيا عندئذ ما الذي يجب عليه أن يعمله: فإما أن يختار أبا أحق بالاعتبار وأجدر

بالاحترام واما ان صح التعبير إلى آخره وليكن ما يكون أن فكرتك خصبة جدا سنتحرك في الساعة التاسعة، ما يزال في الوقت متسع أين تقيم ناستاسيا فيليبوفنا؟ في مكان بعيد عن هنا، قرب المسرح الكبير، في عمارة ميتوفتسوف، المطلة على الميدان تقريبا، بالطابق الأول ولن يكون عندها ناس كثير، رغم أن الليلة عيد ميلادها، وسيتفرق الحفل في ساعة مبكرة تقدم المساء كثيرا، وما يزال الأمير جالسا يصغي إلى الجنرال وينتظره، والجنرال ما ينفك يشرع في سرد حكايات جديدة لا ينهى أية واحدة منها كان، حين وصل الأمير، قد أمر بزجاجة جديدة لم ينته من شربها الا بعد ساعة..ثم طلب زجاجة أخرى، فكان مصيرها مصير سابقتها ومن حقنا أن نفترض أن الجنرال قد اتسع وقته لأن يقص على الأمير سيرة حياته كلها تقريبا ونهض الأمير أخيرا، وأعلن أنه لا يستطيع أن ينتظر أكثر مما انتظر فسكب الجنرال لنفسه آخر قطرات الزجاجة، ونهض متجها نحو باب الخروج مترنح الخطو بعض الترنح كان الأمير في حالة كرب شديد، وكمد قوى لم يستطع أن يشرح لنفسه كيف أمكنه أن يعتمد على الجنرال وأن يركن اليه بمثل هذه الغباوة وهذه البلاهة والحق أنه لم يكن قد اعتمد عليه أو ركن اليه قط، وإنما هو عول عليه ليستطيع الدخول إلى بيت ناستاسيا فيليوفنا، ولو دفع ثمن ذلك فضيحة صغيرة غير أنه لم يتصور أن تقع فضيحة ضخمة

كان الجنرال قد أخذ منه السكر كل مأخذ، فانطلق لسانه فصيحا فصاحة متدفقة لا ينضب معينها، فهو لا ينفك يتكلم بغير انقطاع أو مهادنة، وهو لا يني يتحدث بانفعال وقد امتلأ قلبه دموعا وكان مدار حديثه على ما أصاب أسرته من انهيار ودمار نتيجة لسوء سلوك أفرادها، وعلى أنه قد آن الأوان لأن يضع لهذا التدهور حدا آخر الأمر ووصل الرجلان إلى شارع ليتانيانا. ما يزال الثلج يذوب وهذه ريح باردة رطبة عفنة تصفر في الشوارع العربات تهدر في الوحل والخيول المترفة والأفراس الخسيسة تضرب الأرض بحوافرها النمل والمشاة يطوفون على طول الأرصفة جمهورا مبتلا بالماء، بينه سكارى قال الجنرال هل ترى الطوابق الأولى المضيئة من هذه العمارات؟

ـ انها جميعا يسكنها رفاقي القدامى، وأنا أنا الذي خدمت أكثر منهم وتألمت أكثر منهم، أمشي على قدمي في اتجاه المسرح الكبير، إلى بيت امرأة سيئة السمعة مشبوهة الأخلاق رجل في صدره ثلاث عشرة رصاصة ألا تصدقني؟ ومع ذلك فمن أجلى وحدي انما ارسل بيرو جوف برقية إلى باريس، وترك سيباستوبول المحاصره إلى حين، ثم حصل نيلاتون، كبير أطباء البلاط بباريس، باسم العلم، أذنا بالمرور إلى سياستوبول المحاصرة ليفحصني وكانت القيادة العليا على علم بما حدث.آه ان ايفولجين هو الذي أصيب بثلاث عشرة رصاصة كذلك كانوا يتحدثون عني هل ترى، يا أمير، ذلك

المنزل، هناك؟ في ذلك الطابق الأول يسكن رفيقى القديم الجنرال سوكولوفتش مع ذريته النبيلة المحتد، الغفيرة العدد ان ذلك المنزل، وثلاثة منازل أخرى في شارع نفسكى ومنزلين آخرين بشارع مورسكايا، هي الآن كل حلقة علاقاتي، أقصد علاقاتى الشخصية لقد أذعنت نينا ألكسندروفنا للظروف منذ مدة طويلة أما أنا فما أزال أتذكر بل أتجرأ فأقول ما أزال أذوق بعض الراحة في صحبة رفاقى القدامى ومر موسى الذين ما يزالون يعبدوني عبادة أن صح التعبير ذلك الجنرال س وكولوفتش مثلا على اني منذ مدة طويلة لم أزره ولا رأيت أنا فيدوروفنا أنت تعلم يا أمير: حين يصبح المرء عاجزا عن استقبال أحد في بيته، فانه يضطرأخيرا إلى الانقطاع عن زيارة الآخرين ومع ذلك هم يخيل إلى أنك لا تصدقنى ولكن، بالمناسبة، لماذا لا أدخل على هذه الأسرة اللطيفة ابن خير اصدقاء طفولتي؟ الجنرال ايفولجين والأمير ميشكين سوف ترى هنالك فتاة رائعة، ماذا بل فتاتين، بل ثلاث فتيات، هن زينة المجتمع وزينة عاصمتنا: جمال، ثقافة، فكر قضية المرأة، قصائد، ذلك كله ستراه هناك وقد انصهر في تنوع موفق منسجم ناهيك عن أن كل واحدة منهن تملك مهرا مقداره ثمانون الف روبل عدا ونقدا، على الأقل، وهذا لا يفسد شيئا بطبيعة الحال، رغم جميع قضايا المرأة والقضايا الاجتماعية الخلاصة: يجب على حتما أن أدخلك الى هذه الأسرة، يجب على ذلك حتماً، هذا واجب يقع على عاتقي الجنرال ايفو لجين والأمير

ميشكين تصور وقع ذلك في النفوس قال الأمير يسأله الأن؟ حالا؟ فهل نسيت اذن أن لم أنس شيئا البتة ادخل من هنا اصعد هذا السلم الرائع يدهشني أن السويسري غائب ولكن هذا اليوم عطلة، والسويسرى يغيب في يوم العطلة لم يطردوا ذلك السكير حتى الآن ان سو كولوفتش هذا مدين لي بكل سعادة حياته، وبكل نجاحه وارتقائه في عمله، مدين بذلك إلى وحدى دون غيري ولكن ها نحن وصلنا كف الأمير عن الاعتراض على هذه الزيارة، فكان يتبع صاحبه طائعا حتى لا يثير حنقه، وهو يأمل أن يتبدد الجنرال سوكولوفتش وأسرته كلها رويدا رويدا كما يتبدد سراب، وأن يتضح أن هذا الجنرال لم يوجد في يوم من الأيام، فيعودا يهبطان السلم بهدوء وأمان وسلام فما كان أشد ذعر الأمير حين أخذ يفقد ذلك الأمل:

ـ ذلك أن الجنرال كان يقوده على السلم قيادة رجل واثق بأنه سيجد اصدقاءه، وهو ما ينفك يذكر للأمير مزيدا من التفاصيل عن سيرة حياتهم وصافا أشخاصهم بوضوح شديد ورقة رياضية حتى اذا بلغا الطابق الأول توقفا يمنة، أمام باب شقة غنية، فأمسك الجنرال قبضة الجرس، فهم الأمير أن يهرب، ولكن ظرفة خاصة أوقفه عن الهرب لحظة قال الأمير لقد أخطأت يا جنرال، فانني أرى على الباب صفيحة كتب عليها اسم كولاكوف، وأنت تريد أن تقرع جرس سوكولوفتش قال الجنرال كولاكوف كولاكوف لا يدل على

شيء البيت بيت سو كولوفتش، وأنا أقرع جرس بيت سوكولوفتش لا يهمني كولاكوف ولا أعبأ به ولا اكترث له ثم ها هم يفتحون الباب فتح الباب فعلا، وظهر خادم أعلن أن سادته قد خرجوا، أخذ أرداليون ألكسندروفتش يكرر بصوت فيه حزن عميق خسارة، خسارة حقا أن يخرجوا في هذا اليوم بعينه ثم قال يخاطب الخادم قل لهم اذن يا صاحبي ان الجنرال ايفولجين والأمير مشكين قد جاءا يؤكدان لهم احترامهما، ويعبران لهم عن شديد أسفهما وفي تلك اللحظة، ظهر وراء الباب المفتوح شخص أخر لعله الناظرة أو المربية انها سيدة في نحو الأربعين من العمر، ترتدي ثوبا قاتم اللون، اقتربت ستطلعة محاذرة، حين سمعت اسمى الجنرال ايفولجين والأمير ميشكين قالت وهي تتفرس في الجنرال بانتباه ان ماريا ألكسندروفنا ليست في البيت لقد ذهبت مع الآنسه ألكسندرا ميخائيلوفنا إلى منزل جدتها ألكسندرا ميخائيلوفنا أيضا؟ يا لسوء الحظ أرجوك أن تتفضلي فتتقلى إلى ألكسندرا ميخائيلوفنا تحيتي واحترامى، آملا أن تتذكرني الخلاصة أبلغيها أنني أرجو لها من كل قلبي أن تحقق تمنياتها التي أعربت عنها مساء يوم الخميس أثناء سماعها موسيقا شوبان. سوف تتذكر انقلى اليها أخلص مودتي وأصدق أماني الجنرال ايفولجين والأمير ميشكين قالت السيدة وقد اطمأنت لن أنسى أن أنقل اليها ذلك وبينما كانا يهبطان السلم استمر الجنرال يعبر بحماس لم تفتر عن أسفه وحزنه لأنه لم يجد أحدا في المنزل،

فحرم الأمير بذلك من عقد صلة جميلة رائعة هل تلم يا عزيزى؟ انني لأكاد أكون شاعرا؟ هل لاحظت ذلك؟ ثم ختم كلامه يقول فجأة على نحو لا يمكن توقعه ولكن يخيل إلى أننا أخطأنا تماما لقد تذكرت الآن أن آل سوكولوفتش يسكنون في عمارة أخرى، وأعتقد أنهم الآن فى موسكو نعم، لقد أخطأت بعض الخطأ، ولكن لا قيمة لهذا قال الأمير مبهوتا أود أن أعرف شيئا واحدا هل يجب أن أعدل عدولا تاما عن الاعتماد عليك؟ أليس الأفضل أن أذهب اليها وحدي؟ ما تعدل؟ تعتمد؟ وحدك؟ ولكن لماذا؟

ـ لماذا والأمر عندي امر رئيسى تتوقف عليه أشياء كثيرة، ويرتبط به مصير أسرتي؟ لا ياصديقي؟ انك لا تعرف ايفولجين حق معرفته من قال ايفولجين، فقد قال صخرة اعتمد على ايفوجين اعتمادك على صخرة ذلك ما كان يقال عني منذ أن كنت في فصيلة الفرسان أول عهدي بالجيش وانما ينبغي لي، قبل أن نذهب إلى هناك، أن أمر مرورا عابرا بمنزل ألفت منذ بضع سنين أن أريح فيه نفسي قليلا بعد الشدائد والمحن أتريد أن تمر اذن بمنزلك؟ لا بل أريد أن أذهب إلى الكابتينة تيرنتيف، إلى أرملة الكابتن تيرنتيف، مرءوسى القديم بل وصديقى فعند الكابينة انما تنبعث نفسي، وهناك انما أرمى نوائبي وأحزاني العائلية واذ كنت أجد نفسي اليوم أرزح تحت وطأة عب؛ روحى ثقيل، فاننى دمدم الأمير يقول أظن انني قد ارتكبت

حماقة كبرى حين أزعجتك ثم انك الآن استودعك الله صاح الجنرال يقول مستحيل، لا يمكنني أن أدعك تمضي هكذا يا صديقي الشاب هي أرملة، هي ربة أسرة تعرف كيف تجد في نفسها أوتارا تهز كيانى كله لن تطول زيارتي لها أكثر من خمس دقائق أنا أستقبل في هذا البيت بغير كلفة أو حرج، حتى لكأنتي في بيتى سأرتاح بعض الراحة، وسأرتب زينتى قليلا، ثم نمضي بعربة إلى ميدان المسرح الكبير ثق بأنني في حاجة اليك طوال السهرة انظر هذا هو المنزل لقد وصلناه آه كولا أوصلت منذ الآن؟ هل مارتا بوريسوفنا هنا، أم أنت وصلت في هذه اللحظة؟ أجاب كولا وقد اصطدم بهما عند باب الفناء أوه لا أنا هنا منذ مدة طويلة، عند هيوليت لقد ساءت صحته مزيدا من السوء، واضطر أن يرقد في الفراش هذا الصباح كنت قد نزلت لأشتري أوراق لعب واذ لاحظ كوليا حالة أبيه، صاح يقول وهو يتفحص وضعه ومشيته لكن ما هذا يا بابا الله الله الخلاصة هلم نصعد أن لقاء كوليا هذا دفع الأمير إلى أن يتبع الجنرال في دخوله إلى بيت مارتا بوريسوفنا، على ألا يمكث هنالك الا دقيقة واحدة لقد كان الأمير في حاجة إلى كوليا أما عن الجنرال فقد قرر الأمير أن يتركه على كل حال، وأصبح لا يغفر لنفسه أنه فكر في الاعتماد عليه وطال الصعود حتى الطابق الثالث على سلم الخدمة سأل كوليا أباه أثناء صعود السلم هل تنوي أن تعرف بالأمير؟ نعم يا عزيزى، سوف أعرف به: الجنرال ايفولجين والأمير ميشكين ولكن كيف هي مارتا بوريسوفنا؟

هل تعلم يا بابا؟ الأفضل ألا تذهب اليها لسوف تلتهمك التهاما انقضت على غيابك ثلاثة أيام، وهي تنتظر أن تحمل اليها مالا لماذا وعدتها بذلك؟ هكذا أنت دائما، دبر أمرك الآن وقفوا في الطابق الثالث أمام باب واطيء كان الجنرال قد خارت عزيمته وبارحته شجاعته، فهو يدفع الأمير إلى أمام، محتميا به دمدم يقول له أنا سأبقى وراءك أحب أن أحدث لها مفاجأة دخل كوليا أول الداخلين وظهرت على الباب سيدة مثقلة الوجه بالخضاب، ترتدي نعلين باليين وقميصا فضفاضا، قد ضفرت شعرها غدائر صغيرة، وهي في نحو الأربعين من العمر، فما أن ظهرت حتى انعدمت المفاجأة التي أرادها الجنرال انعداما فانها ما كادت تلمحه حتى طفقت تشتم وتلعن قائلة هذا هو هذا هو الوغد النجس الوقح قلبى حدثني بأنه ات تمتم الجنرال قائلا وهو يصطنع ابتسامة بريئة فلندخل، لا قيمة لهذا ولكن هذا لم يكن غير ذي قيمة فما أن قطعوا حجرة المدخل المظلمة الواطيء سقفها، فصاروا في غرفة ضيقة أثاثها نصف دستة من كراسي القش، ومائدتان للعب، حتى استأنفت ربة البيت بكاءها تقول بلهجة دامعة مدروسة يبدو أنها مألوفة لها معهودة فيها ألا تخجل أيها الهمجي، أيها الطاغية المستبد الذي يسوم أسرتى سوء العذاب، ايها الشرير الزنديق الكافر؟ لقد نهبتنى ومصصت دمى، أفلا يكفيك هذا؟ إلى متى أظل أتحملك، يا رجلا بلا حياء ولا شرف؟ جمجم الجنرال يقول مرتعشا محتارا مفلول السلاح مارتا بوريسوفنا، مارتا

بوريسوفنا هذا هذا هو الأمير ميشكين الجنرال ايفولجين والأمير ميشكين قالت الكابتنة فجأة تخاطب الأمير هل تصدقني اذا قلت لك ان هذا الرجل الوقح لم يرحم أولادي اليتامى، لم يرأف بهم، لم يشفق عليهم؟ لقد سلب كل شيء، أخذ كل شيء، باعه أو رهنه، ولم يترك لي شيئا ما عساى صانعة بايصالات الدين هذه كلها أيها المحتال الماكر الذي لا ضمير له؟ أجبني أيها الوغد، أجبني أيها الجشع الذي لا يشبع: بم أطعم أولادي اليتامى؟ هكذا يجيء دائما سكران حتى لكأنه ميت من فرط السكر، عاجزا عن الوقوف على ساقية ماذا فعلت أنا حتى استحققت غضب الله، أيها اللص الدنيء السافل أجبني ولكن الجنرال كان عاجزا عن الصمود أمام العاصفة قال:مارتا بوريسوفنا، خذى هذه خمسة وعشرون روبلا هي كل ما أستطيعه الآن بفضل صديقى النبيل جدا يا أمير لقد أخطأ ظني خطأ قاسيا هذه هي الحياة ثم ثأثأ يقول بمشقة، واقفا في وسط الغرفة، مترنحا إلى جميع الجهات:

ـ ولكن اعذرني الآن اني أشعر بضعف أرجو أن تعذرني لينوشكا، عزيزتى إلى بوسادة أسرعت لينوتشكا، وهي صبية في الثامنة من عمرها، فجاءت بوسادة وضعتها على الديوان المهترىء القاسي المنجد بقماش مشمع. مجلس الجنرال، وكان واضحا أن هناك أشياء كثيرة مايزال يريد أن يقولها لكنه ما آن مس الديوان حتى مال

إلى جانب والتفت نحو الحائط ونام نوما عميقا وبحركة فيها كثير من الاحتفال والتألم أشارت مارتا بوريسوفنا للأمير إلى كرسى قرب مائدة اللعب، فجلس الأمير عليه، وجلست هي قبالته، وأسندت خدها الأيمن إلى يدها، وأخذت تتنهد وهي تتأمل الأمير صامتة واقترب من المائدة ثلاثة أولاد، بنتان وصبي، كبراهم لينونشكاه فوضعوا أيديهم على المائدة جميعا، وأخذوا يلاحظون الأمير بانتباه هم أيضا وظهر كوليا، خارجا من الغرفة المجاورة قال له الأمير: يسعدني جدا أني وجدتك هنا يا كوليا فلعلك تستطيع أن تساعدني انني في حاجة إلى أن أذهب إلى ناستاسيا فليوفنا حتما وقد طلبت من آردالیون ألكسندروفتش منذ حين أن يقودني إلى بيتها، ولكن ها هو ذا قد نام فهل لك أن تصحبني الى هناك، لأنني لا أعرف الشوارع ولا الاتجاه؟ لكنني أعرف العنوان: ميدان المسرح الكبير عمارة ميتونزيفا ناستاسيا فليوفنا؟ انها لم تقطن ميدان المسرح الكبير، في يوم من الأيام ثم ان أبي لم يضع قدمه في بيتها قط، اذا أردت أن تعرف الحقيقة غريب أنك ظننت أن في وسعك أن تعتمد عليه انها تسكن غير بعيد عن فلادميرسكايا، بشارع الأركان الخمسة ان بيتها أقرب كثيرا من ميدان المسرح الكبير، الساعة الآن هي التاسعة والنصف وانه ليسرني أن أقودك إلى مسكنها وسرعان ما خرج كوليا والأمير واضطرا أن يمضيا سيرا على الأقدام، لأن الأمير لم يكن قد بقي معه ما يدفع منه كراء عربة، مع الأسف كنت أود لو أعرفك بهيوليت

انه الابن الأكبر لهذه الكابتينة ذات القميص الفضفاض لقد كان في الغرفة المجاورة انه مريض، وقد ظل راقدا طوال هذا اليوم لكنه فتى غريب الأطوار هو سريع التأذي وقد خيل إلى أنه قد يخجل اذا أنت جئت في مثل هذا الوقت أنا أقل شعور بالحرج منه لأن الرجل أبي، على حين أن المرأة أمه، ولا عار يلحق بالذكر كالعار الذي يلحق بالأنثي قد يكون هذا خطأ من الأخطاء التي يرتكبها المجتمع في أحكامه، اذ يجعل لأحد الجنسين غلبة على الجنس الآخر ان هيبوليت فتى رائع، لكنه مستعد لبعض الآراء الاجتماعية السائدة قلت انه مريض بالسل؟ نعم، وأعتقد أن من الخير له أن يموت بسرعة لو كنت في مكانه لتمنيت أن أموت حتما انه يرثي لحال أخيه وأختيه لو كان في وسعنا أن نستأجر شقة مستقلة، لو كنا نملك مالا ندفعه أجرة لشقة مستقلة، لتركنا أسرتينا وعشنا معا هذا حلم لنا هل تعلم انه غضب غضبا شديدا حين قصصت عليه حالتك؟ هو يزعم أن من الجبن والحقارة أن يتلقى المرء صفعة ثم لا يدعو خصمه الى مبارزة يجب أن نذكر أنه في درجة من الحنق كان لا بد لي معها من الانقطاع عن التحدث اليه اذن دعتك ناستاسيا فيليبوفنا إلى بيتها أنت أيضا على الفور؟ قال الأمير لا، لم تدعني فصاح كوليا قائلا وهو يقف في وسط الرصيف فكيف تستطيع اذن أن تذهب اليها؟ لا سيما وأنت ترتدي مثل هذا اللباس، بينما هي تقيم حفلة فخمة ذات أبهة؟ حقا لا أدري كيف سأستطيع أن أدخل ان استقبلت كان

بها، والا فلا أما عن ملابسي، فليس في يدي حيلة ولكن هناك سبب يدعوك إلى الذهاب؟ أم تراك لا تبغي الا أن تقضى بعض الوقت، في صحبة مجتمع محترم؟ لا الواقع أن هناك سبب يدعوني إلى الذهاب اليها حقا يصعب على أن أوضح ما بنفسي، ولكن ما هو ذلك السبب، فهذا أمر يخصك أنت ولا شأن لي به غير أن الشيء الذي يهمني هو ألا تدعو نفسك، بغير سبب، إلى سهرة تضم هذه النخبة الفتاة من غادات كاميليا وجنرالات، ومرابين لولا أن هناك سبب يدعوك إلى الذهاب، اذن لسخرت منك واحتقرتك يا أمير معذرة ليس ثمة الا قلة من أناس شرفاء، ولا يكاد يوجد أحد يستحق الاحترام أن المرء مضطر أن ينظر اليهم من فوق، ومع ذلك تراهم جميعا يطالبون بالاحترام وفي طليعتهم فاريا هل لاحظت يا أمير أن جميع الناس في عصرنا هذا مغامرون؟ لا سيما عندنا، في روسيا، في وطننا الحبيب أما كيف أمكن أن يحدث هذا كله، فذلك ما لا أفهمه لقد كان كل شيء يبدو متين القواعد راسخ الأسس، والآن أن جميع الناس يقولون هذا الكلام ويكتبونه في كل مكان، أن جميع الناس يتهمونه والآباء يتراجعون أول المتراجعين، ويحمرون خجلا من عاداتهم القديمه وأخلاقهم الماضية اليك هذا المثال أب بمدينة موسكو يوصى ابنه بأن لا يصده شيء، في سبيل الحصول على مال تحدثوا عن هذا في الجرائد انظر أيضا إلى أبي الجنرال انظر إلى أين وصل ولكن هل تعلم؟ يخيل إلى أن الجنرال رجل شريف مع ذلك أحلف لك الفوضى

والشراب هما وحدهما أفسداه الأمر كذلك، أؤكد لك خسارة انني أخاف أن أعلن هذا الرأي، لأن الجميع يضحكون عليه ويسخرون منه شيء مؤسف حقا وبماذا يفضله أولئك الأذكياء؟ هم جميعا مرابون، جميعا بغير استثناء أن هيبوليت لا يؤاخذ المرابين ولا يستنكر عملهم هو يزعم أن الربا ضرورة، ويتكلم عن ايقاع اقتصادى، وعن مد وجزر، وما لا أدري أيضا شيطان يأخذهم هذا يضايقني كثيرا من هيبوليت، ولكن هيبوليت حانق تصور أن أمه الكابتينة تأخذ مالا من الجنرال، ثم تقرضه من هذا المال نفسه بالربا لأسبوع يا للعار وهل تعلم أن أمي، أمي أنا، أقصد نينا ألكسندروفنا، الجنرالة، ترسل إلى هيوليت أمتعة ومالا، بل وتساعد بواسطته اخوته الصغار لأن أمهم تهملهم؟ وكذلك تفعل فاريا أيضا هأنت ذا ترى بعينيك اذن يا كوليا أنت تزعم أن لم يبق هناك أناس شرفاء أقوياء، وأن لم يبق هناك الا مرابون فما قولك بأمك وما قولك بفاريا؟ أليستا قويتين؟

ـ أليس دليلا على قوة الخلق عند الانسان أن يساعد الناس في مثل هذه الظروف؟ ان فاريا تفعل ما تفعله حبا للظهور وميلا إلى التفاخر، حتى لا تكون دون أمها أما أمى فقولك عنها صحيح انني احترمها؟ نعم انني احترمها وأبرر سلوكها حتى ان هيبوليت نفسه يشعر شعورى، رغم أن عواطفه قد قست قسوة تامة كان في أول الأمر يسخر من أمي وبعد ذلك ينال منها صغارا وحطة، أما الآن فقد

أخذ يتأثر بعض التأثر أحيانا أنت تعد ذلك اذن قوة سأسجل هذا ان جانيا يجهله، ولو سئل لوصفه بأنه تشجيع على الرذيلة أفلت من الأمير قوله رغم ارادته، بينما كان غارقا في أفكاره: ها جانيا يجهله؟ يخيل إلى أن جانيا يجهل أشياء كثيرة أخرى قال كوليا: هل تعرف أنك تعجبني كثيرا يا أمير؟ أن الحادث الذي وقع منذ ذلك الحين لا يبارح ذهنى. أنت أيضا تعجبني كثيرا يا كوليا اسمع: على أي نحو تقدر أن تعيش هنا؟ أنا سوف أجد لنفسي عملا بعد حين، فاكسب بعض المال، فاذا عشنا معا، أنت وهيبوليت وانا، كان في وسعنا أن نكترى شقة وأن نستقبل الجنرال في بيتنا، فما رأيك؟ أقبل ذلك بسرور عظيم على كل حال سوف نرى في المستقبل أما الآن فأنا مضطرب مضطرب جدا ماذا؟ وصلنا؟ في هذا المنزل؟ ما أفخمه مدخلا حتى أن هناك سويسرية طيب لا أدري يا كوليا كيف يمكن أن تجرى الأمور كان الأمير مضطربا حائرا، حقا قال كوليا يشجعه: سوف تقص على كل شيء غدا لا تدع للوجل سبيلا الى نفسك اسأل الله أن يمدك بعونه، لأني أشاركك جميع أرائك استودعك الله أنا عائد إلى هناك، وسأروى هذا كله لهيبوليت أما أنهم سيستقبلونك، فكن من ذلك على يقين، لا تخش شيئا انها امرأة غريبة الطبع متفردة اصعد هذا السلم البيت في الطابق الأول سيدلك عليه السويسرى.

الفصل العاشر

كان الأمير أثناء صعوده السلم يشعر بقلق شديد، بها ويحاول أن يستجمع شجاعته بكل ما يملك من قوة وكان يحدث نفسه قائلا: اسوأ الاحتمالات ألا أستقبل، وأن يأخذوا عني فكرة سيئة، أو أن يستقبلوني ليستهزئوا بي ويتهكموا على طيب لا بأس والواقع أن ذلك ليس ما كان يخشاه أكثر من أي شيء آخر غير أنه لم يكن يجد جوابا مطمئنا عن هذا السؤال: وماذا جاء يعمل هنا، ولماذا جاء؟ ذلك أنه حتى لو أتيح له أن يقول لناستاسيا فيليوفنا: لا تتزوج هذا الرجل، لا تضيعي نفسك، فهو لا يحبك، وانما يحب مالك وحده، وانه قال لي ذلك هو نفسه، وان أجلايا ايبانتشين قالته لي كذلك، وانني جئت لأنقل اليك هذه الحقيقة فان من المشكوك فيه أن يكون هذا صحيحا صادقا من جميع الوجوه وكان الأمير يلقي على نفسه سؤالا آخر لا سبيل إلى حله، سؤالا يبلغ من الخطورة أنه كان لا يجرؤ حتى على أن يفكر فيه، ولا يستطيع أن يسلم به، ولا يعرف كيف يصوغه ولكن أيا كانت شكوكه وأنواع قلقه، فقد دخل أخيرا، وطلب ناستاسيا فيليبوفنا ان ناستاسيا فيليوفنا تشغل شقة ان لم تكن واسعة جدا فهي مجهزة أحسن تجهيز أنها أثناء

اقامتها ببطرسبرج مدة هذه السنين الخمس، قد أغدق عليها آتانازى ايفانوفتش اغداقا كبيرا خلال فترة معينة في أول الأمر كان لا يزال يأمل أن يحافظ على حبها، وكان لا يزال يعول على أن يفتنها بالرخاء والترف، لعلمه بأن الإنسان يألف الرخاء والترف بسهولة كبيرة، فيصعب عليه بعد ذلك أن يستغني عنهما متى أصبحا ضرورة من الضرورات شيئا بعد شيء ولقد كان توتسكى وفيا للعادات القديمة لايغير منها شيئا، وظل يؤمن بأن للحواس سلطانا لا يقهر، فهو لذلك يحترم هذا السلطان احتراما لا حدود له وكانت ناستاسيا فيليوفنا لا تكره الترف بل تحبه، لكنها وهذا هو الشيء الغريب لم تستعبد له، حتى لكأنها قادرة على أن تستغني عنه في كل لحظة؛ بل انها حاولت عدة مرات أن تعلن ذلك فدهش توتسكى وانزعج على أن هناك أشياء كثيرة في ناستاسيا فيلسوفنا كانت تدهشه وتسوؤه حتى لقد بلغ بعد ذلك حد احتقارها فإلى جانب عامية الناس الذين كانت تحيط نفسها بهم أحيانا، وهذا يكشف عن ميل طبيعى فيها، أخذت تظهر لديها ميول أخرى غريبة كل الغرابة، هي خليط وحشى عجيب من أذواق شتى تجعلها قادرة على أن تحب وتستعمل أشياء أو وسائل لا يمكن أن يقبل استعمالها انسان أوتي حظا من رقى النفس وعلو الثقافة لعل آتانازى ايفانوفتش كان يمكن أن يفتنه مثلا أن يراها تتظاهر أحيانا بأنها تجهل جهلا ساذجا بريئا أن الفلاحات الروسيات لا يلبسن

ملابس داخلية من قماش الباتيستا مثلما تلبس هي؛ فلو فعلت لكان ذلك منها شيئا جميلا أخاذا أن جميع الجهود التي بذلها آتانازى ايفانوفتش في المرحلة الأولى من تربيتها وتعليمها انما كانت تهدف إلى بلوغ مثل هذه النتيجة، وفقا للبرنامج الذي وضعه على أساس خبرته الواسعة العميقة لكن ثمرات جهوده خيبت آماله وأسفاه ومع ذلك فقد بقي في ناستاسيا فيليبوفتا شيء يفرض نفسه على أتانازى ايفانوفتش، هو تفرد نادر يفتنه ويغريه ويغويه وظل متسلطا عليه مستبدا به، حتى بعد أن تداعت جميع الأموال التي عقدها على هذه المرأة الشابة استقبلت الأمير خادمة كانت ناستاسيا فيلسوفنا لا تستخدم الا نساء فأصغت الى كلامه وهو يطلب منها أن تبلغ عنه ناستاسيا فيليبوفنا، أصغت إلى كلامه دون أن تظهر عليها أية حيرة، فدهش الأمير من ذلك دهشة كبيرة فلا حذاءاه المتسخان، ولا قبعته العريضة حوافها، ولا معطفه الذي ليس له أكمام، ولا هيئته المضطربة، لا شيء من ذلك كله أحدث في نفسها أي تردد وقد ساعدته في خلع معطفه، ورجته أن ينتظر في حجرة المدخل وأسرعت تبلغ عنه فورا كان المدعوون عند ناستاسيا فيلسوفنا هم أصحابها المألوفين حتى لقد كان عدد الناس في عيد ميلادها هذا أقل مما كان في أعياد ميلادها السابقة فمنهم أولا وقبل كل شيء أتانازى ايفانوفتش توتسكى، وايفان فيدوروفتش ايبانتشين، وكانا يظهران كلاهما كثير من التودد

والبشاشة، ولكن كان يبدو عليهما مع ذلك قلق ثقيل سببه توقهما الواضح المحرق إلى أن يعرفا أخيرا ما وعدت به ناستاسيا فيليبوفنا من اعلان اجابتها في موضوع جانيا وكان هناك جانيا بطبيعة الحال كان يبدو هو أيضاً قاتم المزاج كثير التفكير، حتى أنه من فرط ذلك يوشك أن يكون قليل الأدب، فهو في أكثر الأحيان معتزل منزو صامتا وهو لم يجرؤ أن يصطحب فاريا، ولكن ناستاسيا فيليبوفنا لم تلمح إلى ذلك ولم تشر اليه، بينما هي، في مقابل ذلك، ما ان سمت عليه حتى ذكرته بالحادثة التي وقعت له مع الأمير ولم يكن الجنرال ايبانتشين قد علم بالأمر بعد، لذلك أظهر اهتماما وأصغي منتبها فطفق جانيا عندئذ يقص، بلهجة جافة وأسلوب متحفظ ولكن بصراحة مطلقة، ما قد جرى بعد الظهر، واضاف إلى ذلك أنه قد مضى إلى الأمير يستغفره وذكر في هذه المناسبة، بحرارة وحماسة، الرأي الذي ذهب إلى أن الأمير أبله، فاستغرب ذلك الرأي استغرابا شديدا، وقال انه يؤمن بنقيض هذا الرأي تماما، ويعتقد اعتقادا جازما بأن الأمير رجل يعرف ماذا يريد وقد أصغت ناستاسيا إلى هذا الرأى بكثير من الانتباه، وكانت تلاحظ جانيا مستطلعة مستغربة لكن الحديث سرعان ما انحرف نحو روجويين الذي شارك في الحادث مشاركة رئيسية هو أيضا، وأثار هو أيضا اهتمام اتانازى ايفانوفتش وايفان فيدوروفتش اثارة كبيرة وقد اتفق أن استطاع بتنسين أن ينقل بعض المعلومات

الخاصة عن روجويين الذي ظل حتى الساعة التاسعة من المساء تقريبا يسعى هنا وهناك لتنفيذ غرضه وتحقيق مأربه لقد كان روجون يصر اصرارا شديدا على أن تجمع له المائة ألف روبل في ذلك المساء نفسه قال بتنسين أثناء حديثه صحيح أنه سكران، ولكن يبدو أن المائة ألف روبل ستجمع له أخيرا، مهما تكن المصاعب كل ما هنالك اني لا أدري هل يتم ذلك في هذا اليوم نفسه، ولا أدري هل يكون المبلغ كاملا غير أن الذين يعملون في الأمر كثيرون، فهناك كنيدر، وهناك تريبالوف، وهناك بيسكوب وختم بتسين كلامه قائلا أن روجويين مستعد لدفع أية فائدة عن هذه القروض، وذلك لأنه في سكرين، سكر الحمرة وسكر فرحته الأولى هذه الأنباء كلها قد استقبلها الحضور باهتمام مكفهر بعض الشيء وكانت ناستاسيا فيليبوفنا صامتة، وكان واضحا أنها لا تريد أن تفصح عن رأيها؛ وكذلك جانيا من جهة أخرى لعل الجنرال ايبانتشين كان في قرارة نفسه أشد قلقا من أي شخص آخر ان اللآلىء التي قدمها في النهار قد استقبلت بأدب فاتر وكياسة جامدة حتى لكأن شيئا من سخرية كان يخالط ذلك الأدب وتلك الكياسة وبين جميع العوين كان فردشتينكو مشرق المزاج مرحا، فكان يضحك ضحكا مجلجلا، كما يحسن ذلك في يوم عيد، وكان ضحكه في بعض الأحيان بغير مناسبة تدعو الى الضحك، لا لشيء الا لأنه قد فرض على نفسه هذا الدور، دور المهرج أما آتانازى ايفانوفتش الذي

اشتهر هو نفسه بأنه محدث بـارع لبق، والـذي كـان في السهرات الماضية هو الذي يمسك زمام الحديث ويوجه دفته، فانه في حالة اضطراب ليست معهودة فيه وأما المدعوون الآخرون، وعددهم قليل على كل حال، فهم: معلم مدرسة عجوز يرثي المرء لحاله، ولا يدري الا الله لماذا دعي إلى هذه الحفلة؛ وشاب في ريعان الصبا لا يعرفه أحد من الحضور، خجول خجلا رهيبا، صامت صمت عند؛ وسيدة جريئة في نحو الأربعين من عمرها كانت في الماضي ممثلة؛ وسيدة شابة جميلة جمالا رائعا، ترتدي ثيابا أنيقة أشد الأناقة غنية كل الغني، لكنها قليلة الكلام جدا كان هؤلاء جميعا لا عاجزين عن تنشيط الحفلة فحسب، بل كانوا عاجزين حتى عن العثور على موضوع لحديث لذلك كان ظهور الأمير في هذه الظروف أمرا مناسبا جاء في محله وفي أوانه ولئن أحدث الابلاغ عن وصوله شيئا من الحيرة والبلبلة، ورسم على الشفاه ابتسامات دهشة، لا سيما وأن الحضور قد أدر كوا من امارات الاستغراب التي لاحت في وجه ناستاسيا فيليبوفنا أنها لم تكن قد خطر ببالها أن تدعوه قط، فان ناستاسيا فيليبوفنا ما لبثت بعد بادرة الاستغراب الأولى هذه أن أظهرت على حين فجأة رضى وارتياحة بالغا من القوة أن أكثر المدعوين أسرعوا يتهيأون لاستقبال الزائر الذي قادته المصادفة استقبالا فرحة مرحة قال ايفان فيدوروفتش يختم كلامه رغم أن براءته الساذجة هي التي تحمل تبعة ذلك، ورغم

أن تشجيع ميول من هذا النوع أمر خطر على كل حال، فليس سيئا أن خطرت بباله فكرة المجيء الآن، وان يكن ذلك شذوذا؛ حتى لقد يحمل الينا شيئا من مرح، اذا صدق ما أعرفه عنه وأسرع فردشتينكو يقول ولا سيما أنه دعا نفسه بنفسه قال الجنرال يسأل بخشونة، لأنه يكره فردشتينكو أي ضير في هذا؟ عليه أن يدفع رسم الدخول ما أمير اسمه ميشكين كرجل اسمه فردشتينگو بهذا أجاب الجنرال مندفعا، ولم يكن قد استطاع أن يعتاد أن تضمه هو وفردشتينكو سهرة واحدة يكونان فيها ندين أجاب فردشتينگو وهو يضحك ضحكة ساخرة على مهلك يا جنرال عليك أن تراعي فردشتينكو وأن تداريه ان لى هنا حقوق خاصة ما هي هذه الحقوق الخاصة؟ اتيح لي في المرة الماضية شرف شرحها للحفل ومع ذلك يسرني أن أكرر لسعادتك ما سبق أن شرحته ان جميع الناس هنا يا صاحب السعادة، كما تستطيع أن تلاحظ ذلك، يملكون فكرة، أما أنا فمحروم من الفكر ومن باب التعويض عن ذلك حصلت على اذن بأن أقول الحقيقة، لأن كل انسان يعلم أن الحقيقة لا تنتمى الا إلى المحرومين من الفكر أضف الى ذلك أنني أحب الانتقام، ومرد هذا أيضا إلى اننى محروم من الفكر فأنا أحتمل الاساءات والاهانات مذعنا، ما ظل الرجل الذي أساء إلى وأهاننى محتفظا بما له من حظوة، حتى اذا بدت أولى علائم فقده الحظوة، تذكرت الاساءة أو الأمانة التي ألحقها بى، فثأرت النفسي،

فرنست ولبطن،على حد التعبير الذي استعمله في وصفي ايفان بتروفتش بين ذات يوم، وهو رجل لا يرفس أحدا ولا يلبط أحدا قط هل تعرف حكاية كيرلوف الأسد والحمار ياصاحب السعادة؟ هما نحن، أنت وأنا، يا صاحب السعادة لقد كتبت الحكاية عنا نحن قال الجنرال غاضبا أراك تفرط مرة أخرى وكان فردشتينكو لا ينتظر الا هذا ليستمر في كلامه، وليمضى إلى أبعد من ذلك، فاستأنف كلامه يقول ما بك يا صاحب السعادة؟ لا تقلق أنا أعرف مكانى يا صاحب السعادة فاذا قلت اننا، أنت وأنا، الأسد والحمار اللذان تحدثت عنهما الحكاية، فمن المفهوم انني أحتفظ لنفسي بدور الحمار، بينما أنت الأسد يا صاحب السعادة، كما ورد في حكاية كيرلوف أسد قوي يرهب الغابات فقد القوى اذ دب فيه الهرم فأنا الحمار يا صاحب السعادة أفلت من لسان الجنرال قوله بغير تروٍلا تبصر في هذه النقطة، أوافقك على رأيك؟

ذلك كله كان فظاظة غلظة طبعا؛ وكان واضحا أنه ميست ومقصود غير أن فردشتينكو كان قد ملك إلى الأبد حق أن يكون مهرجا حتى لقد صاح يقول في ذات يوم ثم اني انما أستقبل هنا لهذا الغرض، وانما يحتفظ بى هنا لهذا الغرض، أعني من أجل أن أتكلم بهذه الطريقة والا فهل يمكن أن يستقبل رجل مثلي؟ أنا أفهم ذلك وأدركه

هيا هل من المقبول أو من المعقول أن أوضع، أنا فردشتينكو، جنبا إلى جنب مع سيد نبيل مرهف الفكر والشعور مثل آتانازى ايفانوفتش؟ لابد لي اذن أن أخلص من ذلك إلى هذه النتيجة، وهي أنني لا يتيسر لي هذا الا لأنه غير مقبول وغير معقول ولكن فردشتينكو كان رغم عاميته وابتذاله يفلح أحيانا في أن يكون لاذعا جدا؛ فكان ينبغي للذين يريدون أن يستقبلوا في دار ناستاسيا أن يتحملوا فردشتينكو ولعل فردشتينكو قد أدرك منذ البداية أن ناستاسيا فيديوفنا اخذت تستقبله لأنه استطاع أن يزعج توتسكى منذ أول يوم كما أن جانيا قد تحمل منه عذابا لا نهاية له فبهذا المعنى عرف فردشتينكو أن يكون ذا نفع كبير وفائدة عظيمة لناستاسيا فيليبوفنا قال فردشتينكو وهو يراقب بطرف عينه أثر كلامه في ناستاسيا فيليبوفنا: أما الأمير فسيأخذ يغني لنا أغنية على الموضة فقالت ناستاسيا فيليبوفنا بخشونة لا أظن ذلك يا فردشتينكو، وأنا أنصحك بأن لا تندفع كثيرا اذا كان ينعم بحماية خاصة فلم يبق على الا أن أكون رقيقة لطيفة، وأن لكن ناستاسيا فيليبوفنا كانت قد نهضت دون أن تصغي إلى كلامه، ومضت تستقبل الأمير قالت وهي تظهر أمام الأمير فجأة يؤسفني اني نسيت من تعجلى أن أدعوك منذ قليل وأننى ليسرني جدا أن تهيىء لى بنفسك فرصة شكرك وتهنئتك على ما تملك من روح التصميم كانت وهي تتكلم تنظر إلى الأمير بانتباه، محاولة أن

تفسر لنفسها سبب مجيئه ولقد كان يمكن أن يرد الأمير على كلماتها اللطيفة، لكنه كان مبهورا مبهوتا فلم يستطع أن ينطق بكلمة واحدة وقد لاحظت ناستاسيا فيليبوفنا ذلك مسرورة مبتهجة لقد كانت في ذلك المساء في أبهى حلة وأجمل زينة، وكان منظرها يحدث في النفس أثرا قويا أمسكت الأمير من يده، وقادته إلى حيث كان المدعوون وقد توقف الأمير على حين فجأة قبل دخول الصالون وأسرع يهمس في أذنها منفعلا انفعالا شديد كل شيء فيك رائع كامل حتى نحولك وشحوبك لا يمكن أن يتمنى لك المرء غير هذا لقد بلغت من قوة الرغبة في المجيء اليك أنني معذرة سامحينى قالت نسستاسيا فيليبوفنا ضاحكة لا تعتذر، والا أفقدت بادرتك غرابتها وطرافتها كانوا على صواب حين قالوا ان فيك غرابة وتفرد اذن أنت تعدنى رائعة كاملة؟ هنا أنت تخطىء، رغم أنك تعد أستاذا في فن الحذر والتنبؤ سأذكرك بذلك في هذا المساء نفسه وقدمت الأمير إلى ضيوفها الذين كان أكثر من نصفهم قد عرفه من قبل وسرعان ما وجد توتسكى شيئا لطيفة يقوله وبدا على الحفل شيء من الانتعاش، وأخـذوا جميعا يتكلمون ويضحكون وأجلست ناستاسيا فيليبوفنا الأمير إلى جانبها صرخ فردشتينكو يقول وقد طغا صوته على جميع الأصوات أي غرابة حقا في مجيء الأمير؟ أن المسألة واضحة جلية فقال جانيا فجأة بعد أن ظل أخرس حتى ذلك الحين بل المسألة

واضحة كل الوضوح، جلية كل الجلاء لقد ظللت أراقب الأمير هذا اليوم بلا انقطاع تقريبا، منذ اللحظة التي رأي فيها صورة ناستاسيا فيليبوفنا على مكتب ايفان فيدوروفتش واني لأتذكر تذكرا واضحا أن فكرة قد قامت في ذهني حينذاك، وترسخت الآن في نفسي قوية، حتى أن الأمير نفسه قد أسر إلى باعترافات عنها، أقول هذا عابرا نطق جانيا تلك العبارة كلها بجد كبير لا يخالطه أي مزاح، حتى أن وجهه كان مكفهرا، فأثار ذلك شيئا من الدهشة أجاب الأمير يقول وقد احمر وجهه أنا ما أسررت اليك بأي اعتراف، ولم أزد على أن أجبت عن سؤال ألقيته أنت على أعول فردشتينكو يقول مرحي مرحي هذا كلام فيه صدق على الأقل، فيه صدق وحذق وضحك الجميع مقهقهين فقال بتنسين بصوت خافت فيه اشمئزاز لا تصرخ هذا الصراخ يا فردشتينكو وقال ايفان فيدوروفتش:

ـ لم أكن أتوقع منك، يا أمير، لمحات، من هذا النوع، لمحات لا يجيد مثلها الا الا لقد كنت أتصورك فيلسوفا لا أكثر ألا ان على المرء أن يخشى الماء الساكن حين رأيت كيف يحمر الأمير احمرار فتاة بريئة لمزاحة بريئة، انتهيت إلى أن هذا الشاب النبيل يضمر قلبه أشرف النيات ويضم أجمل المشاعر كذلك قال بل زأزأ يقول على دهشة من الحضور كافة، معلم المدرسة الأهتم الذي يبلغ من العمر

نحو سبعين عاما، والذي لبث صامتا خلال ذلك الوقت، وكان لا يتوقع أحد منه أن ينطق بكلمة واحدة طوال السهرة فانطلقت الضحكات مجلجلة مزيدا من الجلجلة وظن العجوز المسكين ان الناس تضحك لنكتته الفكهة فأخذ يشاركهم الضحك وهو ينظر اليهم، حتى ألمت به نوبة سعال شديد وكانت ناستاسيا فيليبوفنا تحب هذا النوع من الرجال الشيوخ والنساء العجائز الذين يتصفون بشيء من الغرابه والتفرد والشذوذ، بل كانت تحب حتى ضعاف العقول، فأخذت تلاطفه وتدلله، حتى لقد قبلته، ثم أمرت بأن يصب له فنجان آخر من الشاي وطلبت من الخادمة أن تجيئه بخمارها فدثرته به وأمرت باضافة حطب إلى الموقد وحين سألت الخادمة عن الساعة، أجابتها الخادمة بأن الساعة هي العاشرة والنصف فقالت ناستاسيا فيلسوفنا تخاطب الحفل ألا تشربون شمبانيا أيها السادة؟ لقد حضرت الشمبانيا فعسي أن تجعلكم الشمبانيا أكثر مرحا؛ فارفعوا التكليف، أرجوكم ان هذه الدعوة الى الشراب، ولا سيما بعبارات تبلغ هذا المبلغ من السذاجة، قد بدا صدورها عن ناستاسيا فيليوفنا غريبا كل الغرابة ان الجميع يعرفون التقيد بالقواعد الصارمة والآداب الدقيقة التي كانت تسود حفلاتها السابقة لقد اخذت السهرة تنتعش ولكنها فاقت في انتعاشها المألوف في أمثالها لم يرفض أحد الشمبانيا: قبلها الجنرال أولا، نم السيدة المتبرجة، فالشيخ المسكين، ثم فردشتينكو، ثم قبلها الجميع

آخر الأمر لقد قبل توتسكى، هو أيضا، كأسا من الشمبانيا، بغية أن يسبغ شيئا من روح الدعابة اللطيفة على المجرى الجديد الذي جرت فيه السهرة لكن جانيا وحده لم يشرب شيئا أما ناستاسيا فليوفنا التي تناولت كأسا كذلك، وأعلنت أنها ستشرب اثناء السهرة ثلاث كئوس على الأقل، فقد كان من الصعب على المرء أن يفهم شيئا من حركاتها المفاجئة العنيفة، وضحكها العصبي الذي لا موضوع له، والذي تتخلله فترات تفكير متجهم صامت قدر بعضهم أنها تعاني من حمى وبدأوا يلاحظون أخيرة أنها تنتظر هي نفسها شيئا ما، فهي تلقى نظرات كثيرة متكررة على ساعة الجدار، وهي قد أخذ يظهر عليها نفاد الصبر وشرود الفكر سألتها السيدة الجريئة قائلة كأنك تعانين شيئا من حمى فأجابتها ناستاسيا فيليبوفنا، مصفرة الوجه فعلا، جاهدة أن تكبح ارتعادها بل انني اعاني حمى شديدة، لذلك تدثرت بخمارى. فقامت من حولها حركة اضطراب وقلق اقترح توتسكى قائلا وهو ينظر إلى ايفان فيدوروفتش ماذا لو تركنا مضيفتنا ترتاح؟

ـ فهتفت ناستاسيا فيليبوفنا تقول بالحاح ذي دلالة لا، أبدا أيها السادة أنا أصر على أن تبقوا انني لا أستطيع الاستغناء عن وجودكم هذا المساء وان كان جميع الضيوف تقريبا يعلمون سلفا أن قرارا يبلغ مبلغ كبير من خطورة الشأن سيتخذ أثناء هذه السهرة، فقد بدت

لهم هذه الكلمات مثقلة بالمعانى. وتبادل الجنرال وتوتسكى نظرة جديدة وسرت في جانيا رعشة قالت السيدة الجريئة ستحسن أن تنظم لعبة صغيرة،. فصاح فردشتينكو يقول متحمسا أنا أعرف لعبة جديدة رائعة هي على كل حال لعبة لم تجرب الا مرة واحدة، ثم لم تنجح سألته السيدة الجريئة ما هي هذه اللعبة؟ اجتمعنا في ذات يوم لفيفا من الأصحاب فلما شربنا قليلا والحق يقال اقترح أحدهم أن يقص كل واحد منا، دون أن ينهض عن المائدة، قصة عن نفسه، على شرط أن يكون في قرارة ضميره مقتنعا بأن القصة التي سيرويها هي أسوأ فعل ارتكبه في حياته، وعلى شرط أن يكون صادقا كل الصدق، خاصة أن يكون صادقا كل الصدق فلا يكذب البتة قال الجنرال فكرة عجيبة ليس هناك فكرة أعجب منها يا صاحب السعادة، ولكن هذا نفسه سر حسنها قال توتسكى شيء مضحك لكنه مفهوم نوع مقلوب من التباهي والمفاخرة لعل هذا بعينه هو ما كانوا ينشدونه يا اتانازى ايفانوفتش قالت السيدة الجريئة امثال هذه اللعب تبكى أكثر مما تضحك قال بتسين لعبة سخيفة سألت ناستاسيا فيليبوفنا وهل نجحت اللعبة؟ لم تنجح جرت الأمور مجرى سيئ صحيح أن كل واحد روى حكاية، وذكر أمورا صادقة كثيرة، حتى أن بعضهم كان يجد في رواية قصته لذة تصوروا ولكنهم جميعا شعروا بالخزي والعار آخر الأمر، ولم يقووا على متابعة اللعبة إلى نهايتها يمكن أن نقول بوجه عام

ان اللعبة كانت مسيئه، ولكن في بابها طبعا قالت ناستاسيا فيديوفنا وقد تحمست فجأة: يحسن حقا أن نجرب يجب علينا أن نجرب هذه اللعبة أيها السادة اني ألاحظ أننا لم نستطع حتى الآن أن نخلق جوا مرحا في هذا المساء، ليت كل واحد منا يقبل أن يقص شيئا ما من هنا النوع طبعا، اذا هو أراد فكل واحد حر، هه؟ ولعلنا نستطيع أن نمضي في هذا إلى آخر الشوط على كل حال، اللعبة طريفة جدا قال فردشتينكو فكرة عبقرية غير أن السيدات معفيات السادة وحدهم هم الذين سيقصون وسنحدد دور كل واحد بالقرعة، كما فعلنا في المرة السابقة، هذا لا بد منه والذي لا يريد أن يروي حكاية، له أن يمتنع طبعا ولكن لا بد انكم توافقون على أن هذا لن يكون لطيفا منه ليكتب كل واحد اسمه على ورقة أيها السادة، ولنضع الأوراق كلها في قبعة، هنا سيتولى الأمير سحب الورقة واحدة بعد واحدة بالقرعة مهمتكم بسيطة جدا على كل واحد منكم أن يقص قصة أسوأ فعل ارتكبه في حياته وهذا سهل جدا أيها السادة سوف ترون حتى اذا لاحظت في ذاكرة أحدكم توانيا، توليت أنا تنشيطها كانت الفكرة مستهجنة فلم ترض أحدا فبعضهم تقطبت حواجبهم واكفهرت وجوههم، وبعضهم رسموا على شفاههم ابتسامات ساخرة واحتج بعض آخر، ولكن دون الحاح شديد، مثل ايفان فيدوروفتش الذي كان لا يريد أن يسخط ناستاسيا فيليوفنا والذي كان قد لاحظ مدى افتتانها بهذه الفكرة

الغريبة،ربما لما تتصف به هذه الفكرة من غرابة توشك أن تكون استحالة ولقد كانت ناستاسيا فيديوفنا امرأة لا يثني عزمها ولا تتراجع عن رغباتها متى قررت أن تظهر هذه الرغبات، ولو كانت نزوات شاذة وبدوات لا تجديها نفعا وانها الآن لفي حالة تكاد تكون هستيرية، فهي تتحرك كثيرا وتضطرب اضطرابا شديدا وتضحك ضحكة تشنجية، ولا سيما في الرد على ما كان يبديه توتسكى من احتجاج قلق كانت عيناها القائمتان تسطعان، وقد ظهرت على خديها الشاحبين بقعتان حمراوان ولعل ما في وجوه بعض المدعوين من تجهم واشمئزاز كان يزيد ضرام رغبتها الساخرة في ازعاجهم؛ ولعل ما كان يرضيها في تلك الفكرة التي اقترحها فردشتينكو انما هو استخفافها واستهتارها وقوتها حتى لقد أيقن بعضهم أن ناستاسيا فيليبوفنا تبيت نية ما على أن الحضور قد قبلوا الاقتراح أخيرا، فالفكرة طريفة شائقة على كل حال، وهي بالنسبة إلى بعضهم مغرية أشد الاغراء، وكان فردشتينكو أكثر الحضور نشاطا وحركة قال المراهق الصامت سائلا في خجل: فماذا لو كانت القصة يستحيل على المرء أن يرويها بحضور سيدات؟ فأجابه فردشتينكو قائلا ما عليك في هذه الحالة الا أن تمتنع عن روايتها يا للشباب الساذج لكأنه لا يوجد أفعال أخرى سيئة كثيرة قالت السيدة الجريئة صائحة أما أنا فلا أدري ماذا أختار من بين أفعالي السيئة فعاد فردشتينكو يكرر النساء معفيات من ضرورة رواية شيء

لكنهن معفيات فحسب أما من شاءت منهن أن تذكر شيئا من وحي ذاتها ومن تلقاء نفسها، فلها أن تفعل ذلك مشكورة والرجال أيضا معفون اذا أزعجتهم هذه اللعبة كثيرا سأل جانيا ولكن كيف أبرهن على أني لا أكذب؟ اذا كذبت فقدت اللعبة كل معناها ومن ذا الذي يمكن ألا يكذب؟ ان كل واحد سوف يكذب، هذا أكيد صاح فردشتينكو يقول في نوبة من حماسة شديدة يكفي أن نرى أحد الأشخاص يكذب حتى نشعر من هذا وحده بمتعة أما أنت يا جانيتشكا فليس لك أن تخشى الكذب حقا، لأن الفعل الذي هو أسوأ ما ارتكبت في حياتك من أفعال سيئة يعرفه الجميع منذ الآن تصوروا كذلك أيها السادة، تصوروا بأي عين سينظر كل منا إلى الأخر غدا بعد جميع القصص التي سنرويها سال توتسنكى بوقار ورصانة أهذا ممكن؟ أهذا جد حقا يا ناستاسيا فيليبوفنا؟

قالت ناستاسيا فيليوفنا ساخرة من يخشى الذئب لا يذهب إلى الغابة وعاد توتسكى يقول ملحا، بينما كان قلقه يزداد ويشتد شيئا بعد شيء لكن اسمح لي يا سيد فردشتينكو: كيف يمكن أن تجعل من هذه اللعبة لعبة مجتمع؟ أؤكد لك أن الألعاب التي من هذا النوع لا تنجح أبدا ولقد قلت أنت نفسك ان هذه اللعبة لم تنجح مرة كيف لم تنجح؟ ألم أقصص في المرة الأخيرة كيف اتفق لي أن سرقت

ثلاثة روبـلات؟ ألم أقصص ذلك؟ صحيح ولكن لم يكن في وسعك أن تقص القصة على نحو يظهرها صادقة، فيصدقك المستمعون، أليس كذلك؟ لقد ذكر جبريل آرداليونتش منذ هنيهة وهو في ذلك على صواب أنه يكفي أن يشم المستمع رائحة كذب في القصة حتى تفقد اللعبة معناها أن الحقيقة غير ممكنة هنا الا بالمصادفة، أو بنوع فاسد من حب الظهور لا يمكن قبوله ولا يمكن تصوره في هذا المكان صاح فردشتينكو قائلا يا لك من رجل مرهف الفكر لطيف الحس حقا انك لتثير دهشتى يا آتانازى ايفانوفتش انظروا ايها السادة: انه حين نبه إلى أنني لم أستطع أن أتحدث عن سرقتي على النحو الذي يجعلها تشبه الحقيقة قد أفهمنا بألطف أسلوب وأنعم طريقة أنني في الواقع لم يكن في امكاني أن ارتكب جريمة السرقة اذ ليس من اللائق أن يتحدث المرء عن مثل هذه الأمور، رغم أنه ربما كان في قرارة نفسه مقتنعا كل الاقتناع بأن فردشتينكو يمكن أن يسرق ولكن هلموا يا سادتي هلموا: أصبحت الأسماء في القبعة، ومنها اسمك أنت يا آتانازى ايفانوفتش، فالجميع اذن موافقون ابدأ يا أمير أغطس الأمير يده في القبعة دون أن يقول شيئا، وأخرج منها أول ورقة فكانت ورقة فردشتينكو، ثم سحب الثانية فكانت ورقة بتسين، ثم سحب باقي الأوراق واحدة بعد واحدة، فكانت الثالثة ورقة الجنرال، وكانت الرابعة ورقة أتانازى ايفانوفتش، وكانت الخامسة ورقته هو، وكانت

السادسة ورقة جانيا، الخ ولم تكن السيدات قد وضعت في القبعة أوراقا هتف فردشتينكو يقول: يا لسوء حظي لقد كنت أمل أن يخرج اسم الأمير أول اسم، وأن يخرج اسم الجنرال بعده من حسن الحظ على كل حال أن اسم ايفان بتروفتش يأتي بعد اسمى، فهذه مكافأة لي أو تعويض على واضح اذن يا سادة أنني أنا الذي يجب أن أكون القدوة الحسنة في هذه اللعبة، ولكن ما يؤسفني أكثر من أي شيء آخر في هذه اللحظة هو انني امرؤ تافه كثيرا وأنني لا أتميز بشيء، فحتى رتبتي ليس لها أي شأن ما قيمة أن يكون فردشتينكو قد ارتكب عملا سيئا في الواقع؟

وماهو أسوأ أعمالي؟ حقا انه ليصعب على الاختيار اللهم الا أن أقص حكاية السرقة تلك نفسها، فأبرهن لأتانازى ايفانوفتش أن من الممكن أن يسرق المرء دون أن يكون لصا لقد استطعت أن تقنعني أيضا يا سيد فردشتينكو أن من الممكن أن يجد المرء متعة ولذة في أن يروي قصص أعمال قذرة، حتى دون أن يكون أحد قد طلب منه ذلك على كل حال معذرة يا سيد فردشتينكو قالت ناستاسيا فيليوفنا تحسم الموقف بلهجة فيها تململ وانزعاج ابدأ يا فردشتينكو لقد أسرفت في التطريز والتوشية حتى لتكاد لا تفرغ من ذلك ولاحظ الجميع أنها بعد نوبة الضحك الأخيرة التي انتابتها، قد ارتدت فجأة

إلى نوع من الحذر المتجهم، وأنها أصبحت أسهل استثارة وأسرع اهتياجا، ولكنها ما تزال تصر على تنفيذ نزوتها بالحاح عنيد مستبد كان أتانازى ايفانوفتش في مثل الجحيم عذابا وقد أحنقه كذلك موقف ايفان فيدوروفتش الذي كان يحتسى كأس الشمبانيا هادئا، ولعله كان عازما على أن يقص قصة متى جاء دوره.

الفصل الحادي عشر

هتف فردشتينكو يقول: أنا انما أثرثر كثيرا لأني يعوزني الفكر ها ولكني سأبدأ لو كان لي فكر كفكر آتانازى ايفانوفتش أو ايفان فيدوروفتش، للبثت أنا أيضا صامتا ساكنا طوال السهرة كلها يا أمير، اسمح لي أن أسالك هل توافقني على هذا الرأي: يخيل إلى أن عدد اللصوص في العالم أكبر من عدد غير اللصوص، حتى لقد يمكن القول أنه ما من انسان لم يسرق طوال حياته شيئا ما هذا انطباع شخصى، لا أستنتج منه مع ذلك أن ليس في العالم الا لصوص، رغم أن القول بهذا الرأي كثيرا ما أغرانى، أعترف لك بذلك فما رأيك أنت؟ قالت داريا ألكسيفنا السيدة النشيطة الجريئة ما أسخف هذا الكلام ما أغبي هذا الهذر ليس ممكن أن يكون جميع الناس قد سرقوا شيئا ما أنا لم أسرق شيئا في يوم من الأيام أنت لم تسرقي في يوم من الأيام يا داريا ألكسيفنا، ولكن ماقول الأمير الذي أرى أنه احمر وجهه؟

قال الأمير وكان قد احمر وجهه فعلا يخيل إلى أنك على حق فيما تقول، ولكنك تبالغ كثيرا ولكن ألم تسرق أنت نفسك شيئا ما في يوم

من الأيام يا أمير؟ تدخل الجنرال يقول كلام مضحك سخيف هلا فكرت فيما تقول يا سيد فردشتينكو؟ وقالت داريا ألكسيفنا حاسمة أمرك بسيط: انك حين أحرجت خجلت أن تروى شيئا، لذلك تحاول أن تجر الأمير معك، لأنه لا يملك عن نفسه دفاعا قالت ناستاسيا فيلييوفنا بشدة وقسوة فردشتينكو لك أن تقص أو أن تسكت ولكن لا تهتم الا بنفسك؟ لقد أخذت تفقدني صبرى حالا يا ناستاسيا فيليوفنا ولكن ما دام الأمير قد اعترف وانى ألح على هذه النقطة، لأن ما قاله انما هو اعتراف حقا فأنا أتساءل عما عسى أن يقصه علينا شخص آخر لا أسميه اذا هو أراد أن يقول الحقيقة يوما أما أنا أيها السادة، فالحق أن ما سأرويه لكم ليس شيئا كثيرا، فهو بسيط غاية البساطة، وهو عدا ذلك غبي وبشع لكنني أؤكد لكم مع ذلك اننى لست لصا، وانني ارتكبت فعل السرقة ذاك دون أن أدري لماذا؟ لقد حدث ذلك منذ ثلاث سنين، في فيللا صديق من الأصدقاء، هو سيمون ايفانوفتش اشتينكو، يوم أحد كان عنده ضيوف فلما انتهى الغداء بقى الرجال يتجاذبون أطراف الحديث أمام كأس وخطر ببالي أنا أن أطلب من ماريا سيمونوفنا، ابنة صاحب الدار، أن تعزف لنا شيئا على البيانو فلما اجتزت احدى الغرف لمحت على منضدة عمل ماريا ايفانوفنا ورقة نقدية خضراء بثلاثة روبلات لا شك أنها كانت قد أخرجتها لحاجة من حاجات الدار لم يكن في الغرفة أحد تناولت الورقة ودسستها في جيبى لماذا؟

ـ لا أدري انني لا أعرف السبب الذي لعله دفعني إلى ذلك ولكنني أسرعت أعود إلى المائدة ولبثت هنالك أنتظر، منفعلا بعض الانفعال كنت أثرثر بلا توقف، وأروى فكاهات، وأضحك ثم جلست قرب السيدات، وبعد انقضاء قرابة نصف ساعة، لوحظ اختفاء الورقة النقدية، فسئل عنها الخدم وحامت الشبهة حول داريا، الخادمة أظهرت كثيرا من الاهتمام والاستطلاع، وشاركت في الاستجوابات، حتى لأتذكر انـي، حين ارتبكت داريا ارتباكا تاما، أخذت أقنعها بضرورة الاعتراف، وحلفت برأسي اضمن لها تسامح ماريا ايفانوفنا، وذلك على مسمع ومرأى من جميع الحضور فكان هؤلاء ينظرون إلى، وكنت أشعر بلذة عظيمة من تدفقى في الكلام والوعظ بينما الورقة النقدية في جيبي وفي مساء ذلك اليوم نفسه شربت بالمال خمرا في أحد المطاعم: دخلت فأمرت لنفسي بزجاجة من خمر لافيت، لم يحدث قبل ذلك أن طلبت زجاجة على هذا النحو دون أن آكل شيئا ولكنني كنت أستعجل انفاق ذلك المال على أنني لم أشعر بأي ندم خاص، لا في ذلك الحين، ولا بعده ولا أعتقد أن في امكاني أن ارتكب ذلك الفعل مرة أخرى صدقوني:

ـ أن الأمـر لا يهمني انتهت القصة هـذا كل شـيء قالت داريا الكسيفنا مشمئزة: لكني أعتقد أن هذا العمل ليس أسوأ عمل ارتكبته في حياتك طبعا وعقب اتانازى ايفانوفتش بل ليس هذا عملا وانما

هو حالة نفسية مرضية وسالت ناستاسيا فيليوفنا دون أن تحاول اخفاء تقززها وماذا جرى للخادمة؟ طردوها منذ الغد طبعا ذلك بيت شديد لا يتهاون في أمر كهذا وتركت لهم أن يطردوها؟ هه فهل كنتم تريدون اذن أن أشي بنفسي واعترف بفعلتى؟ بذلك أجاب فردشتينكو، وقد دهش، على كل حال، من الأثر السيء الذي أحدثته قصته في نفوس الحضور هتفت ناستاسيا فيديوفنا تقول ما أقذر هذا العمل أتطلبون من انسان أن يروى أسوأ فعل ارتكبه في حياته ثم تريدون أن يكون هذا الفعل ناصعا متألقا؟

ـ أن أسوأ الأفعال قذر دائما يا ناستاسيا فليوفنا لسوف يثبت لنا ذلك ايفان بتروفتش بعد قليل ثم ان كثيرا من الناس يظهرون بمظهر باهر، ويوهمون بأنهم مثال الفضيلة لأنهم يملكون الثراء وما أكثر الذين يملكون الثراء في هذه الأيام ولكن ليتنا نعرف الوسائل التي استعملوها للوصول إلى ذلك انهم لا يتورعون عن شيء، ولا يتحرجون من شيء الخلاصة أن فردشتينكو قد خرج عن طوره، وأصبح سليط اللسان ناسيا نفسه متجاوزا كل حد آن كشرة خبيثة تجد الآن وجهه لعله كان يتوقع أن تحدث قصته في نفوس سامعيه أثرا غير هذا الأثر تماما، مهما يبد توقعه هذا غريبا ان هذا النوع من الزلات، الرديئة والتباهي الخاص به، على حد تعبير توتسكى، أمر مستمر مألوف عند فردشتينكو، وهو يناسب طبعه، ويعبر عن خلقه ارتعدت

ناستاسيا فيليبوفنا غضبا، وحدقت اليه بنظرة ثابتة، فسرعان ما استولى عليه رعب شديد، فصمت وقد جمده الخوف من أن يكون قد أسرف قليلا قال آتانازى ايفانوفتش يقترح متهكمة ألا نحسن صنعا اذا نحن اكتفينا بهذا؟ فقال بتسين هذا دورى أنا، لكنني أستعمل حقي في الرفض، فلا أروي شيئا ترفض؟

ـ لا أستطيع يا ناستاسيا فيلسوفنا ثم انني اعد مثل هذه اللعبة غباوة وحماقة قالت ناستاسيا فيدييوفنا وهي تلتفت نحو ايبانشين يا جنرال، أعتقد أن الدور دورك الآن فاذا امتنعت أنت أيضا فقد انهارت لعبتنا كلها، ولسوف يؤسفني ذلك كثيرة، لأني أنوي أن أقص في الختام قصة عمل مأخوذ « من حياتي أنا، لكني لا أريد أن أفعل ذلك قبلك وقبل آتانازى ايفانوفتش، اذ لا بد أن تشجعانى. قالت ناستاسيا فيليبوفنا جملتها الأخيرة هذه ضاحكة فهتف الجنرال يقول بحرارة وحماسة أوه اذا كنت أنت تعدين بذلك، فانني مستعد أن أروي لك قصة حياتي كلها وأعترف لك بانني قد هيأت قصة أحكيها متى جاء دورى تجرأ فردشتينكو فقال وهو ما يزال خجلا بعض الشيء، لكنه يبتسم ابتسامة وقحة مع ذلك يكفي أن يراك المرء يا صاحب السعادة حتى يحزر ما شعرت به من لذة أدبية في سبك قصتك وألقت ناستاسيا فيليوفنا على الجنرال، هي أيضا، نظرة خاطفة، وابتسمت ومع ذلك كان يستطيع المرء أن يرى أن أعصابها كانت تزداد توترة،

وأن اضطرابها كان يزداد شدة وارتعش آتانازى ايفانوفتش حين علم أنها ستقص، هي أيضا، حكاية ما بدأ الجنرال كلامه فقال لقد اتفق لي، أيها السادة، كما يتفق لكل انسان، أن ارتكبت في حياتي أفعالا لا توصف بأنها أنيقة جدا، ولكن أغرب ما في الأمر أنتي أعد القصة القصيرة التي سأرويها لكم الآن هي أسوأ فعل اقترفته في حياتى. صحيح أن خمسة وثلاثين عاما على وجه التقريب قد انقضت على حدوث تلك القصة، ولكنني لم أستطع قط أن أحرر ذاكرتى من ذلك الانطباع الذي يقبض صدرى هي حكاية غبية جدا على كل حال كنت الا أزال أيامئذ في الجيش برتبة مرشح؛ وانكم لتعرفون ما المرشح:

ـ دم يغلى ويفور، وجيب خال الا من قروش معدودة وكان لي تابع اسمه نيكيفور يهتم بالقيام بأعباء البيت اهتماما شديدا؛ فهو يوفر ويقتصد، ويرتق ويرقع، ويمسح الأرض ويلمع البلاط، بل هو يسرق من كل مكان كل ما يتاح له أن يسرقه خلسة ليزيد به رزقى كان يمتاز بأمانة تامة واستقامة نادرة وشرف لا يضارع أما أنا فكنت في معاملته الرجل الذي يوصف بأنه قاس، ولكنه عادل ولقد بقينا في الحامية مدة من الوقت بمدينة صغيرة كنت قد أعطيت بطاقة سكني في ضاحية من الضواحي، عند أرملة ملازم ثان محال على التقاعد هي عجوز قصيرة في الثمانين من عمرها أو في نحو ذلك وكان بيتها الخشبي يشبهها بلي وتداعيا وتهدمة، وكانت تبلغ من الفقر أنها

ليس عندها حتى خادمة تساعدها في أعمال البيت غير أن الشيء الذي تميز به خاصة هو أنها كان لها في الماضي أسرة كبير العدد وأقرباء كثيرون وتعاقبت السنون فبعضهم ماتوا وبعضهم سافروا أو نسوها أما زوجها فكانت قد دفنته منذ ما يقرب من خمسة وأربعين عاما وقد احتفظت خلال مدة طويلة بفتاة حدباء هي بنت أختها، وكانت الفتاة فيما يروى عنها شريرة خبيثة كساحرة، حتى لقد عضت خالتها في اصبعها ذات يوم، لكن الفتاة ماتت آخر الأمر هي أيضا، فأصبحت العجوز تدبر أمورها بنفسها وحيدة منذ ثلاث سنين وكنت أشعر عندها بضجر شديد وسأم قوى، فليس ثمة ما يمكن أن أعقد عليه أملا وأخيرا سرقت من دجاجى في ذات يوم ديكا وظل الأمر غامضة، ولكن لا يمكن أن يكون السارق أحدا غيرها وقد تشاجرنا تشاجرا عنيفا في موضوع الديك، واستطعت بعد ذلك بمدة قصيرة أن أحصل على اذن بتغيير مسكنى تلبية لطلبى، فأرسلت إلى ضاحية أخرى عند بائع طويل اللحية غفير الذرية اني أتذكر هذا كأنني أراه اليوم انتقلنا أنا ونيكيفور فرحين، وتركنا العجوز لخزيها وعارها وبعد ذلك بثلاثة أيام، عدت الى البيت من التدريب فبادرنى نيكيفور بقوله: لقد أخطأت، سيادتك، اذ تركت للعجوز وعاء الحساء، فانني لم يبق عندى وعاء أصب فيه الحساء، فتجمدت من الدهشة طبعا وقلت: كيف تركنا لها وعاء الحساء؟ وأخذ نيكيفور يشرح لى الأمر، فتبين أن العجوز قد رفضت عند رحيلنا أن ترد اليه وعاءنا، زاعمة أنها تحتفظ

به بديلا عن آنية كنت قد كسرتها لها، وأنني أنا الذي اقترحت عليها ذلك فلما شرح لي نيكيفور ذلك، فار دم المرشح، في عروقى طبعا، بسبب حقارة هذه المرأة وصغارها، فاذا أنا أركب وأطير؛ فما وصلت إلى العجوز حتى كنت خارجة عن طورى، ووجدتها جالسة في المدخل وحدها، لا طية في ركن من الأركـان كأنما لتحتمي من الشمس، مسندة خدها إلى يدها فنزلت عليها نزول الصاعقة، وأخرجت لها كل ذخيرتي من الشتم والسب ويا كيت وكيت على الطريقة الروسية هل لاحظتم؟ لكنها بدت لى غريبة عجيبة فهي ما تزال جالسة أمامي تحدق إلى بعينيها الجاحظتين دون أن تجيبني بكلمة واحدة، وما تزال نظرتها غريبة غرابة شديدة، وكأنها كانت تترجح قليلا وهدأت أخيرا، ونظرت اليها، وسألتها، فظلت صامتة لا تجيب فلبثت متحيرة من هذا الصمت، في جو هذه الشمس الغاربة وهذا الذباب المدندن؛ ثم اضطربت أخيرا فقفلت راجعة وقبل أن أصل إلى دارى استدعيت إلى القيادة، واضطررت أن أمر بسريتى، ثم لم أعد إلى بيتى الا في الليل فكانت الكلمات الأولى التي بادرنى بها نيكيفور هي هل تعلم، سيادتك، أن صاحبة البيت ماتت منذ قليل؟،

ـ فسألته:

ـ متى؟ فقال: اليوم في هذا المساء، ربما منذ ساعة ونصف ساعة اذن فقد ماتت لحظة كنت أغرقها بالشتائم والسباب بلغت من

قوة الشده انني لم أثب إلى رشدى الا بعد وقت أصبحت العجوز لا تفارق فكرى، حتى لقد حلمت بها في الليل صحيح أننى امرؤ لا أومن بالخرافات ولا أتطير، ولكنني ذهبت في اليوم الثالث أشيع جنازتها واحضر دفنها وصرت مع مضي الزمن أفكر في هذه القصة مزيدا من التفكيرلا أزعم أن هذه القصة قد احتلت فكرى كله، ولكنني أقول انها كانت تنبثق في ذهني على حين فجأة، فأشعر بأنزعاج واضطراب وفهمت أخيرا ما الذي كان يفجؤني أكثر من أي شيء آخر: هذه امرأة، أو قل بلغة هذا العصر ذي النزعة الانسانية:

ـ هذه كائن حي، عاشت زمنا طويلا حتى نسيها الموت ولقد كان لها في الماضي أولاد، وزوج، وأسـرة، وأقرباء وكان ذلك كله يغلى ويفور من حولها ان صح التعبير، وكانت تحوطها ابتسامات من كل صوب؛ وفجأة لم يبق من ذلك كله شيء، وغاب بما يشبه أن يكون ضربة سحر، فاذا هي تبقى وحيدة مثل ذبابة خريف، كأنها تحمل على ظهرها لعنة العصر وقادها الله أخيرا إلى نهايتها، فطارت هي أيضا في ذات مساء لطيف من أماسي الصيف عند غروب الشمس هذه فكرة زاخرة بالعبر طبعا ولكن المرشح الشاب، بدلا من أن يغمرها بالدعوات وبدلا من أن يذرف العبرات، يضع يديه على خاصرتيه، وينفخ صدره، ويمطر العجوز المحتضرة بوابل من الشتائم المقذعة ثأر لنفسه، لأنها سلبته وعاء الحساء لا شك في أنني أثمت، ذلك

أمر لا جدال فيه ورغم أنني أصبحت منذ زمن طويل أعد ذلك الفعل غريبا عني، التقادم العهد أولا، ولتغير طبعى ثانية، فما زلت أشعر بأسف وحسرة، حتى انني أدهش من ذلك، لا سيما وانني ان كنت آثمة ولا شك، فلست آثما كل الأثم: فما الذي حملها على أن تموت في تلك اللحظة نفسها؟ من الواضح على كل حال أن عذر ذلك العمل السيء أن له بواعث نفسية، وأنه ثمرة حالة سيكولوجية ومع ذلك لم يهدأ بالى هدوء تاما ولم تطمئن نفسي طمأنينة كاملة، الا حين قررت، منذ نحو خمسة عشر عاما، أن أقف مبلغا من المال على ملجأ من الملاجىء لايواء امرأتين عجوزين، لتكون أيامهما الأخيرة من حياتهما الأرضية أخف وطأة على نفسيهما بفضل ظروف معاشية أفضل حتى انني أنوي أن استمر في وقف هذا المال ارثا تلكم هي القصة كلها أعود فأقول:

ـ لعل في حياتي آثاما أخرى، ولكن هذا الفعل الذي رويت لكم الآن قصته هو الذي يبدو لي اسوأ عمل ارتكبته في حياتي فما أن أنهى الجنرال كلامه حتى انبرى فردشتينكو يقول انك، يا صاحب السعادة، بدلا من أن تروى لنا قصة أسوأ عمل ارتكبته في حياتك، رويت قصة أفضل عمل قمت به في حياتك، فخيبت بذلك فال فردشتينكو وقالت ناستاسيا فيليوفنا بهدوء واهمال حقا يا جنرال ما كنت أتصور أن يكون لك قلب طيب خسارة فسألها الجنرال وهو يضحك ضحكة

تحبب وتلطف خسارة؟

ـ لماذا؟ وشرب جرعة من الشمبانيا، بشيء من الاعتزاز جاء الأن دور آتا نازى ايفانوفتش الذي هيأ نفسه لرواية قصة هو أيضا كان الحضور يقدرون أنه، كما فعل ايفان فيدوروفتش، لن يرفض أن يروي قصة، وكان بعضهم، لأسباب معينة، ينتظرون قصته بكثير من الشوق واللهفة، وهم يلقون على ناستاسيا فيليوفنا نظرات مختلسة وبوقار عظيم يتفق ومهابته، أخذ أتانازى ايفانوفتش يسرد واحدة من قصصه اللطيفة بصوت هادىء عذب يجب أن نذكر عابرين أن آتانازى ايفانوفتش رجل طويل القامة مهيب الطلعة، على شيء من الصلع والشيب؛ بدين بعض البدانة، خداه زاهيان رخوان خاسفان قليلا أسنانه صناعية يرتدي ثيابا أنيقة فضفاضة، ويلبس قميصا ناصع البياض يداه البضتان البيضاوان تخطفان الانتباه في بنصر يده اليمنى خاتم ثمين من ماس فكانت ناستاسيا فيلييوفنا طوال مدة سرده قصته لا تنفك تنعم النظر في شريط الدانتيلا الذي يزدان به كمها والذي كانت تقرصه باصبعين من يدها اليسرى، فلم يتح لها أن تنظر إلى القصاص ولو مرة واحدة بدأ أتانازى ايفانوفتش كلامه فقال ان الشيء الذي يسهل مهمتي هو انني مضطر اضطرارا مطلقا أن أروى أسوأ فعل ارتكبته في حياتي فلا مجال في مثل هذه الحالة لأي تردد، والضمير وذاكرة القلب يمليان على اختيار القصة

ويفرضانها فرضا يجب على أن اعترف، وأنا أشعر بغير قليل من المرارة، أن بين الأعمال الطائشة والصبيانية التي ارتكبتها والتي قد يكون عددها لا نهاية له، أن بين تلك الأعمال عملا نقشت ذكراه في نفسي عميقة فلا سبيل إلى نسيانها حدث ذلك منذ قرابة عشرين عاما كنت عندئذ في اقامة قصيرة بالريف عند أفلاطون أوردتسيف الذي انتخب منذ برهة وجيزة ماريشالا للطبقة النبيلة، وكان يقضي أعياد آخر العام في أراضيه مع امرأته الشابة وكان عيد ميلاد آنفيسا ألكسيفنا يقع في تلك الفترة نفسها، فكانت تنها لهذه المناسبة حفلتا رقص وفي ذلك الأوان كانت الرواية التي ألفها الكسندر دوما الابن غادة الكاميليا، رائجة رواجا عظيما في المجتمع الراقي، وكانت قد أحدثت في ذلك المجتمع ضجة كبيرة وهي في رأيى عمل أدبي لايمكن أن يموت، بل ولا يمكن أن يشيخ كانت جميع السيدات في الريف متحمسة له أشد التحمس، ولا سيما اللواتي قرأنه فجمال القصة وطرافة الموقف وأصالة الشخصية الرئيسية، والتصوير المرهف البيئة ملأى بالأمور الجذابة، وجميع تلك التفاصيل الأخاذة المنشورة في الكتاب كاستعمال باقات من أزهار الكاميليا بيضاء وحمراء على التناوب، الخلاصة أن الكتاب، في جملته وتفصيله، كان قد أحدث أثرا كبيرا هز نفوس الناس هزا قويا وأصبحت أزهار الكاميليا موضة يتهافت عليها الناس تهافتا شديدا، ويسعون اليها سعيا محموما، ويريدون شراءها مهما يكن الثمن واني لأسألكم: هل

يمكن أن يوجد كثير من أزهار الكاميليا في مقاطعة صغيرة حين يريد جميع الناس أن يشتروا أزهار الكاميليا لحفلات الرقص، ولو لم تكن حفلات الرقص هذه كثيرة وكان بطرس فورخوفسكى في ذلك الأوان يموت حبا وهياما بأنفسا ألكسيفنا لست أدري حتى هذه اللحظة هل كان بينهما شيء، أقصد هل كان يمكن أن يساوره أمل جاد وانما المهم أن المسكين أخذ يسعى هنا وهناك كالشيطان المسعور بغية الحصول على أزهار كاميليا لحفلة الرقص التي ستقام بمناسبة عيد ميلاد آنفيسا ألكسيفنا وكان قد عرف أن الكونتيسة سوتسكى من بطرسبرج وهي صديقة زوجة الحاكم، وصوفيا بسبالوفا، ستجيئان حتما ومعهما باقات من أزهـار الكاميليا البيضاء فكانت آنفيسا ألكسيفنا ترغب في أن يهدي أحد اليها أزهار كاميليا حمراء ليكتمل بها تأثيرها وسحرها فكان أفلاطون التعيس في أشد الضيق وأكبر الحرج انكم تعلمون ما واجبات الـزوج: لقد تورط فوعد بباقة من أزهار الكاميليا الحمراء ولكن ما العمل؟

ـ ان كاترين ألكسندروفنا ميشستشيفا، التي هي أرهب منافسة لأنفيسا ألكسيفنا في كل شيء، والتي يمكن أن توصف العداوة بينهما بأنها عداوة تبلغ درجة الطعان، كانت قد شلت من المنطقة كل ما فيها من أزهار الكاميليا قبل حفلة الرقص بيوم واحد فماذا كانت النتيجة؟ كانت النتيجة أن أنفيسا ألكسيفنا انتابتها نوبات بكاء،

وأغمى عليها، الخ لقد هلك أفلاطون أن من الواضح أن بطرس اذا استطاع في هذه اللحظة الحاسمة أن يحصل على الباقة المطلوبة، فستحقق أموره تقدما كبيرا ان العرفان بالجميل والشعور بالامتنان لا حدود لهما في حالات كهذه الحالات أخذ بطرس يسعى هنا وهناك كمن مسه جن، ولكن الأمر كان مستحيلا، حتى أنه لا مجال للتفكير فيه وهأنا ذا ألقى بطرس، عشية عيد ميلاد آنفيسا، عند جارة من جيران أسرة أوردنيف، فأراه مشرق الوجه متهلل الأسارير سألته ماذا حدث؟ وجدت، أوريكا انك لتدهشني حقا كيف وجدت؟ وأين؟ بمدينة ايكايسك مدينة صغيرة بالمقاطعة المجاورة تقع على مسافة لا تكاد تبلغ عشرين فرسخا يوجد هناك تاجر طويل اللحية واسع الثراء، اسمه تريبالوف يعيش مع امرأته وحيدين ويتخذان عصافير الكناري بمثابة أولاد، ويهويان الأزهار هوى عظيما، وعندهما أزهار كاميليا ولكن هذا أمر غير مضمون. ماذا لو منعها عنك؟ سأركع عندئذ أمامه، وأظل قابعا على قدمي إلى أن يوافق، ثم لا أنصرف قبل أن يعطيني الأزهار متى تسافر اليه؟

ـ غدا في الفجر، الساعة الخامسة طيب أسأل الله أن يمدك بعون من عنده شعرت حقا بسعادة كبيرة له وعدت إلى دار أسرة أوردنشيف وفيما كنت أهم أن أمضي إلى السرير لأنام، خطرت ببالي على حين فجأة فكرة من أطرف الفكر فسرعان ما ذهبت إلى

المطبخ، فأيقظت سافلي، الحوذي، ووعدته بخمسة عشر روبلا اذا هو قرن الخيل بالعربة في خلال نصف ساعة فما انقضى نصف ساعة حتى كانت العربة تنتظرني عند الباب طبعل وقد أبلغت في أثناء ذلك أن أنفيسا ألكسيفنا قد انتابها صداع، وألمت بها حمى، وأنها تهذى ركبت العربة، وانطلقنا وتوقفت بعد الساعة الرابعة بقليل أمام منزل ايسايسك أنتظر طلوع الفجر، فما ان طلع الفجر حتى استأنفت المسير؛ وفي الساعة السابعة كنت عند تريبالوف أحدثه في أمري قلت له هل عندك أزهار كاميليا؟

ـ كن أبا رحيما، ساعدني، أنقذني، فانحنى لك حتى الأرض محبا شاكرا ورأيت الشيخ طويل القامة، مبيض الشعر، قاسى الهيئة، رهيبا مخيفا وسمعته يقول لا لا تحاول عبثا تحاول انني أرفض وهأناذا أسقط على قدمي، وأنبطح نعم أنبطح انبطاحا تاما كاملا فخاف الرجل، وقال پنادينى ما هذا الذي تفعله يا بنى؟ ما هذا الذي تفعله؟ رباه فصحت أقول له ان حياة انسان هي المعرضة للخطر طيب طيب خذ أزهار الكاميليا وكان الله معك فأخذت أجني أزهار كاميليا حمراء كانت أزهارا رائعة، فتانة جنيت كل ما ضمته منها حديقته وتنهد الشيخ فأخرجت من جيبى ورقة نقد بمائة روبل فقال لا يا بني، لا تلحق بي هذه الاهانة فقلت له طيب، اذا كان الأمر كذلك، فتفضل بدفع هذه المائة روبل لمستشفى المدينة ترفيها عن

المرضى قال هذا، هذا شيء آخر يا عزيزي هذا عمل طيب نبيل، عمل يرضي الله سأقدم هذه الهبة نيابة عنك أعجبني ذلك الشيخ، ذلك الشيخ الروسي الأصيل، الأصيل حقا، الأصيل حتى الأرومة، ذلك الشيخ الذي ينتمي إلى ما يسمى باسم الطبقة الكريمة حقا وعدت أدراجى مفتونا بالنجاح الذي حققته، ولكنني سلكت طرقا ملتوية، حتى لا ألتقي ببطرس فما أن وصلت حتى أرسلت الباقة الى آنفيسا ألكسيفنا لتفاجأ بها متى استيقظت من نومها وفي وسعكم أن تتصوروا دهشتها وامتنانها، والدموع الذي ذرفتها اعترافا بالجميل وهذا هو أفلاطون الذي كان أمس متهدما مدمرا ميتا، ها هو ذا يرتمى على صدرى ناشجا وا أسفاه ذلك هو شأن جميع الأزواج دائما منذ ابتدع الزواج الشرعي لا أجرؤ أن أضيف شيئا إلى ما قلت، عدا أن جميع آمال ذلك المسكين بطرس انهارت منذئذ انهيارا لا قيام لها بعده ولقد قدرت في أول الأمر أنه سيذبحني اذا عرف الدور الذي قمت به في هذه القضية، حتى لقد تأهبت للأمر واستعددت، ولكن حدث ما لم يكن في وسعي حتى أن أتصور أن في الإمكان أن يحدث: لقد أغمى عليه، وفي المساء أخذ يهذي، وفي الغد كانت قد انتابته الحمى الدماغية، فهو يجهش باكيا مع تشنجات شديدة كطفل حتى اذا أبل من مرضه بعد شهر، طلب نقله إلى القوقاز قصة كأنها رواية من الخيال وانتهى به المطاف إلى أن قتل في القرم؛ وكان أخوه ستيفان فور جوفسكى قد اشتهر في ذلك الأوان

قائدا متفوقا لاحدى كتائب الجيش لا أنكر أنني ظللت خلال سنين طويلة أعاني من عذاب الضمير: لماذا طعنته تلك الطعنة؟ ولقد كان يمكن أن يهون الأمر في نفسي لو أننى كنت هائما مثله بحب آنفيسا ألكسيفنا ولكن الأمر ليس كذلك، وانما كان شطارة مني أو شيطنة ولا أكثر ومن يدري؟ فلولا أنني سلبت الفتى باقة الزهر تلك، لجاز أن يكون إلى الآن حيا، سعيدا، بل مغمورا بسعادة طافحة، ولما خطر بباله أن يمضى إلى مقاتلة الأتراك أنهى آتانازى ايفانوفتش سرد قصه وقورة رصينة كما بدأها ولاحظ الحضور أن عيني ناستاسيا فيليبوفنا قد قدحتا شرر، وأن شفتيها قد اختلجتا حين ختم آتانازى ايفانوفتش كلامه فأصبحتا محط الأنظار المتطلعة هتف فردشتينكو يقول بصوت دامع، اذ أدرك أنه أصبح يحسن بل يجب أن يقول كلمته ضحكوا على فردشتينكو خدعوه غشوه ذلكم هو ما يسمى خداعا وغشا لم يجبرك أحد على شيء كان عليك أن تفهم اللعبة فهما أصح كان عليك أن تتعلمها من أناس أذكياء آن داريا ألكسيفنا هي منذ مدة طويلة الصديقة الوفية والشريكة الدائمة للسيد توتسكى قالت ناستاسيا فيليبوفنا باهمال وفتور أنت على حق يا آتانازى ايفانوفتش ان هذه اللعبة مضجرة مملة تبعث السأم في النفس، وقد آن لنا أن ننتهي منها سأقص عليكم الآن ما وعدتكم به، ثم ننتقل جميعا إلى اللعب بالورق قال الجنرال مؤيدا بحرارة ولكن يجب أن نسمع القصة التي وعدتنا بها قبل كل شيء قالت ناستاسيا فيلسوفنا بصوت واضح

دون أن تتحرك، قالت تخاطب الأمير يا أمير، ان صديقي العزيزين، الجنرال وآتانازى ايفانوفتش، يصران كثيرا على أن أتزوج فقل لي رأيك: أيجب أن أتزوج أم لا؟ سوف أقرر لنفي ما تقرره أنت لي اصفر وجه آتانازى ايفانوفتش، وجمد الجنرال، والتفتت جميع الروس نحو الأمير، وحدقت اليه جميع الأعين وتجد جانيا في مكانه سألهما الأمير بصوت يضعف وينطفيء تتزوجين من؟

ـ فأجابته ناستاسيا فيليوفنا بذلك الصوت نفسه، الثابت القاطع الواضح جبريل آر داليونتش ايفولجين ساد الصمت بضع لحظات كان الأمير كمن يجهد أن ينطق بكلمة واحدة دون أن يستطيع ذلك، وكأن حملا ثقيلا كان يجثم على صدره فيسحقه سحقا ثم همس يقول أخيرا وقد استرد أنفاسه بكثير من المشقة والعناء لا لا تتزوجيه فقالت ناستاسيا فيليبوفنا تخاطب جبريل آر داليونش بصوت فيه سلطة واضحة وفيه شيء من أبهة: ذلك ما سيكون هل سمعت قرار الأمير؟ انه يتضمن جوابي أنا أيضا فلنفرغ من هذه القضية دفعة واحدة إلى الأبد تمتم آتانازى ايفانوفتش يقول بصوت مرتجف ناستاسيا فيلسوفنا وأضاف الجنرال بصوت مؤثر لكنه قلق ناستاسيا فيليبوفنا وسرت في الحضور همهمة، وظهرت بينهم حركات انفعال فقالت ناستاسيا فيليبوفنا وهي تتفرس في وجوه ضيوفها مدهوشة ماذا أيها السادة؟ علام هذا الانفعال؟

وفيم استطالت وجوهكم هذه الاستطالة؟ نانا توتسكى متلعثما متعثرا في الكلام ولكن تذكرى يا ناستاسيا فيليبوفنا أنك وعدت من تلقاء نفسك دون ضغط أو اكراه وكان في وسعك إلى حد ما أن تدارى وتراعى لا أكاد أستطيع ربما كنت مضطربة لكن على كل حال الخلاصة: الأن في لحظة كهذه اللحظة، وأمام هذا الحفل كله من الناس، وبهذه الطريقة ختم بهذه اللعبة الصغير، قضية هي على هذا الجانب العظيم كله من خطورة الشأن، قضية هي قضية شرف وقلب قضية يتوقف عليها حقا لا أفهمك يا آتانازى ايفانوفتش انك تخبط في كلامك خبط عشواء أولا: ما معنى قولك هذا: أمام هذا الحفل كله من الناس،؟

ـ ألسنا هنا أصحابا حميمين؟

ـ وما اعتراضك على هذه اللعبة الصغيرة،؟

ـ لقد نويت حقا أن أروي حكاية وهأنا ذا فعلت أليست حكايتى جميلة؟ ما الذي يجردها في نظرك من الجلد، ويضفي عليها طابع اللعب؟ ألم تسمعني أقول للأمير: سأقرر لنفسي ما تقرره أنت لى،؟ فلو قد قال نعم، لوافقت فورا، أما وأنه قال لا، فقد رفضت فكيف تستطيع أن تصف ذلك بأنه خال من الجد، بينما كان مصيري كله مرهونة بكلمة واحدة هل يمكن أن يكون هناك جد أكبر من هذا الجد؟ دمدم الجنرال يقول وهو لا يستطيع أن يكظم غيظه من هذه

السلطة المهينة التي منحت للأمير ولكن لماذا الأمير؟ نم، ما مجيء الأمير إلى هنا؟ ماذا جاء يعمل؟ انا انما استشرت الأمير، لأنه أول شخص آمنت بأنه مخلص الى اخلاصا تام كاملا لقد آمن هو بي منذ أول نظرة ألقاها على، وأنا أومن به أيضا وأخيرا نطق جانبا فقال بصوت مرتجف وقد شحب لونه وانعقف فمه بجعدة عجيبة لم يبق لي الا أن أشكر لناستاسيا فيليوفنا ما عمدت اليه من لطف عظيم ورهافة قصوى في حقي طبعا كان لا بد أن تجرى الأمور هذا المجرى ولكن الأمير في هذه القضية يسعى إلى الحصول على الخمسة وسبعين ألف روبل، أليس كذلك؟ بهذا قطعت ناستاسيا فيليوفنا كلام جانيا فجأة وتابعت تقول أهذا ما كنت تريد أن تقوله؟

لا تدافع عن نفسك هذا ما كنت تريد أن تقوله حتما يا آتانازى ايفانوفتش، لقد نسيت نسيانا تاما أن أضيف ما يلي: استرد الخمسة وسبعين ألف روبل، واعلم أنني أعتقك مجانا يكفي هذا أنت أيضا محتاج إلى أن تتنفس تسع سنين وثلاثة أشهر غدا تبدأ الحياة الجديدة أما اليوم فنحتفل بعيد ميلادي، وهذه أول مرة أستقل فيها بنفسي، وأتحرر من غيرى يا جنرال، استرد أنت أيضا لآلئك، واهدها إلى زوجتك اليك اللآليء خذها وسوف أترك هذه الشقة منذ غد، فلا سهرات بعد اليوم أيها السادة قالت هذا الكلام ونهضت كأنما لتخرج فارتفعت أصوات من كل صوب تناديها ناستاسيا فيديوفنا

ناستاسيا فيديوفنا واضطرب الجميع، وبارحوا أماكنهم، وأحاطوا بها، وأخذوا يصغون في قلق شديد إلى أقوالها المتقطعة المحمومة الهادية كانوا يشعرون جميعا بأن في هذا نوعا من اختلال، أو من جنون، دون أن يفهموه، أو أن يستطيعوا تعليله لأنفسهم وفي تلك اللحظة دق جرس الباب على حين فجأة دقة قوية تشبه من جميع النواحي الرنة التي ترجعت في بيت جانيا بعد الظهر من ذلك اليوم فهتفت ناستاسيا فيلييوفنا تقول ها جاءت الخاتمة أخيرا الساعة هي الحادية عشرة والنصف أرجوكم أن تجلسوا أيها السادة لقد حان موعد الخاتمة قالت ذلك وعادت تجلس وكانت تقبض على شفتيها ضحكة غريبة وصمتت تنتظر انتظارا محموما وهي تنظر إلى الباب دمدم بتشين يقول لنفسه لا شك في أن روجويين قد جاء بالمائة ألف روبل.

الفصل الثاني عشر

دخلت الخادمة كاتيا مرتاعة أشد الارتياع، وقالت حدث ما لا يعلمه الا الله يا ناستاسيا فيليوفنا هناك نحو عشرة أشخاص اجتاحوا حجرة المدخل سكارى يطلبون الدخول وقد سألوني أن أبلغ عن وصول روجويين، وزعموا أنك على علم بالأمر صحيح يا كاتيا، أدخليهم فورا حقا؟ أدخلهم جميعا يا ناستاسيا فيليوفنا؟ أن حالتهم فظيعة، انهم مخيفون جميعا، أدخليهم جميعا يا كاتيا، لا تخشى شيئا، أدخليهم حتى آخرهم، والا دخلوا دون أن تأذني لهم بالدخول هل تسمعين الضجة التي يحدثونها منذ الآن؟ أنها عين الضجة التي أحدثوها بعد الظهر من هذا اليوم ثم قالت ناستاسيا فيليبوفنا ملتفتة إلى ضيوفها أيها السادة، ربما أزعجكم أن أستقبل عصبة كهذه العصبة بحضور كم أنا آسفة سامحوني ولكن لا بد من ذلك انني أرغب كثيرا في أن توافقوا على أن تكونوا شهودي في هذه الخاتمة، ولكن لكم ما تشاءون طبعا استمر الحضور في دهشتهم يتهامسون ويتبادلون النظرات لقد أصبح واضحا كل الوضوح أن ذلك كله كان محسوبا مرتبا، وأنه بات من المستحيل اكراه ناستاسيا

فيليبوفنا على ترك فكرتها، رغم أنها قد جنت طبعا وكان حب الاطلاع قد استبد بهم جميعا، ولم يكن هناك ما يدعو أحدا منهم إلى أن يرتاع ارتياعا شديدا على كل حال لم يكن بين الحضور الا سيدتان اثنتان: داريا ألكسيفنا، وهي امرأة محنكة سبق أن رأت في حياتها أمور كثيرة، وليس ترويعها بالأمر السهل. تلك هي السيدة الأولى أما الثانية فهى تلك المرأة المجهولة الصموت التي كانت على جانب عظيم من الجمال لكن المجهولة البكماء كانت في أغلب الظن عاجزة عن أن تفهم أي شيء انها ألمانية كانت مارة بطرسبرج، وهي تجهل الروسية ورغم أنها لم تصل الا منذ مدة قصيرة، فقد جرت العادة أن تدعى الى بعض الحفلات انها ترتدي ثيابا جميلة فاخرة، وتصفف شعرها كأنها متأهبة لدخول مسابقة، فالناس يدعونها إلى الحفلات صورة فتاة تزين السهرة، تماما كما يزين البيت بلوحة أو آنية خزف أو تمثال أو قطعة أثاث ثمينة تستعار من الأصدقاء في المناسبات وأما عن الرجال فان بتنسين، مثلا، صديق للفتي روجويين وفردشتينكو يشعر بأنه أشبه بسمكة في الماء وجانيا الذي لم يستطع بعد أن يتوب إلى رشده، كان يشعر شعورا لا يقاوم، رغم أنه شعور مبهم، بحاجة إلى أن يبقى حتى النهاية مسمرا في مكانه أمام الناس ومعلم المدرسة العجوز الذي لم يفهم شيئا كثيرا مما كان يحدث، قد أوشك أن يجهش باكيا، وكان يرتجف من الخوف ارتجافا، لشعوره بجو القلق

والخشية حول ناستاسيا فيليبوفنا التي يحبها كما يحب حفيدته؛ ولكنه يؤثر أن يموت على أن يترك ناستاسيا فيلسوفنا في لحظة هذه اللحظة وفيما يتعلق باتانازى ايفانوفتش، فانه كان لا يستطيع طبعا أن يعرض نفسه لأحداث من هذا النوع تسيء اليه والى سمعته، ولكنه كان مرتبطا بهذه القضية ارتباطا شخصيا قويا، فهو مشدود اليها لا يستطيع منها فكاكا، رغم المجرى الجنوني الذي أخذت تجرى فيه لذلك قرر أن يبقى حتى النهاية، صامتا مع ذلك، مكتفيا بالمشاهدة كما يقتضى وقاره، وكما تقتضى كرامته ومهابته والجنرال ايبانتشين الذي سبق أن أهين قبل لحظات بتلك الطريقة السخيفة في رد هديته اليه، كان هو الشخص الوحيد الذي يحق له أن يزداد غضبه، لما يراه من هذه الأنواع الجديدة من الشذوذ، كظهور روجويين مثلا ان من كان في مثل رتبته، حسبه تساهلا وتنازلا أن يرضى المشاركة في سهرة تضم أشخاصا مثل بتسين أو فردشتينكو لقد غلبه الهوى على أمره، فسقط تلك السقطة ولكن الشعور بالواجب واعتبار الرتبة والمركز واحترام الذات، قد انتصرت أخيرا، فأصبح لا يطيق وجود روجويين وعصبته لذلك التفت نحو ناستاسيا فيلسوفنا يريد أن يعبر لها عن ذلك، ولكن ما إن فتح فمه وهم بالكلام حتى قاطعته تقول:

يا جنرال لقد نسيتك ولكن ثق انني قد تنبأت باعتراضك فاذا

كنت متضايقا تضايقا شديدا، فانني لا ألح عليك ولا أحب أن احتجزك، رغم أنك أنت من أرغب أقوى رغبة في أن يكون بقربي هذه اللحظة مهما يكن من أمر، فأنا أشكر لك المتعة التي هيأتها لمعرفتي بك، وأشكر لك التفاتاتك الكريمة التي أعتز بها، ولكن اذا كنت تخشى أن فهتف الجنرال يقول وقد استولت عليه نوبة من روح الفروسية السمحة السخية عفوك يا ناستاسيا فيليبوفنا لمن تقولين هذا الكلام؟

لأبقين بقربك ولو لمجرد الاخلاص لك والتفاني في سبيلك، فاذا وجد خطر من الأخطار مثلا ثم انني متعجب أشد التعجب، اعترف لك بذلك أريد أن أقول ان من الممكن أن يفسدوا السجاد، حتى لقد يكسرون شيئا من الأشياء فالحق أنه ما ينبغي أن يسمح لهم بالدخول أبدا ياناستاسيا فيليبوفنا قال فردشتينكو معلنا هذا روجويين بشخصه وهمس الجنرال يسأل آتانازى ايفانوفتش مسرعة ما رأيك؟ ألا تظن أنها جنت؟ لا أقصد بالجنون معناه المجازى بل معناه الطبي، الطبي فأجابه توتسكى قائلا بشيء من المكر والخبث قلت لك منذ زمان طويل ان بها استعدادا للجنون يضاف إلى ذلك الآن حالة الحمى هذه ان عصبة روجويين تتألف تقريبا من أولئك الأفراد أنفسهم الذين كانت تتألف منهم بعد الظهر من ذلك اليوم؛

وانما أضيف اليها الآن شيخ ضئيل فاسق كان في زمانه مديرا لصحيفة حقيرة من الصحف التي تقدم اليها الرشاوى خوفا من التشهير ويروى عنه أنه رهن أسنانه الذهبية ليشرب بثمنها خمر؛ وقد أضيف إلى العصبة أيضا ملازم ثان محال على التقاعد، يشبه ذلك الذي رأيناه بعد الظهر متميزة بقبضتي يديه القويتين؛ وهو في الحق نده له ومنافس، بالمهنة والوظيفة معا ان جميع افراد عصبة روجويين كانوا لا يعرفونه، ولكنهم التقطوه في الطريق على رصيف شارع نفسكى، الذي تغمره أشعة الشمس، حيث كان يستوقف المارة ليطلب منهم مساعدة، بأسلوب يشبه أسلوب مارلنسكى، زاعما لهم أنه كان هو نفسه في الماضي يهب لكل سائل من السائلين عشرة روبلات أو خمسة عشر روبلا ولم يلبث الندان المتنافسان أن شعرا بعداوة متبادلة، فالسيد ذو القبضتين يرى أنه قد أهين اهانة مباشرة حين ضم هذا السائل، إلى الجماعة، ولكنه بحكم طبعه الصامت كان لا يزيد على أن يصدر همهمات كهمهمات دب، ويقابل بأشد الاحتقار محاولات التودد الكثيرة، والانحناءات اللطيفة التي كان يقوم بها السائل اظهارا لأدبه ورقيه كان واضحا أن الملازم الثاني هو من أولئك الذين يؤثرون، من أجل أن يشقوا لأنفسهم طريقا، يؤثرون حسن التصرف وبراعة التدبير على استعمال القوة والعنف؛ هذا إلى أن قامته أقل ضخامة من قامة السيد ذي القبضتين القويتين

وقد أشار عدة مرات، بطريقة مرهفة، دون أن يثير نقاشا صريحا، ولكن بشيء من التفاخر والتباهى، إلى أفضلية الملاكمة الانجليزية البوكس مفصحا بذلك عن أنه رجل غربى المذهب والاعتقاد فكان السيد ذو القبضتين الضخمتين، حين يسمع كلمة البوكس، لا يزيد على أن يبتسم ابتسامة تهكم وغضب، وكان لاحتقاره كل مجادلة، يقتصر بين الفينة والفينة، في صمت وبما يشبه المصادفة، على أن يظهر أو يمد إلى أمام ذلك الشيء الوطنى جدا، الروسي جدا: قبضة ضخمة نامية العضلات كثيرة العقد مغطاة بشعر أحمر فكان يتضح للجميع حينذاك أن هذا الشيء الوطنى جدا اذا هو هوى على هدفه باحكام، استطاع أن يهشمه تهشيما وكما لوحظ بعد الظهر من ذلك اليوم، لم يكن أحد من عصبة روجويين سكران سكرا شديدا، وذلك بفضل جهود روجويين الذي ظل طوال النهار لا تغيب عن فكره زيارة ناستاسيا فيليبوفنا في بيتها وقد اتسع وقته هو نفسه لأن يصحو من السكر صحوة شبه كامله ولكنه في مقابل ذلك، بعد جميع تلك المشاعر التي عاناها في ذلك اليوم العجيب، والتي لا تشبه في شيء كل ما سبق أن عرفه طوال حياته، كان مرهقا مخبولا ان شيئا واحدا قد ظل ماثلا في ذهنه وفي ذاكرته وفي قلبه بغير انقطاع ومن أجل ذلك كان قد قضى وقته كله، منذ الساعة الخامسة بعد الظهر حتى الساعة الحادية عشرة من المساء، وهو في حالة هم وغم وقلق لا

حدود لها، قضى وقته كله ساعيا وهناك عند أمثال كندر وأمثال بيسكوب اللذين شارفا على الجنون هما أيضا من كثرة ما تحركا في سبيل قضاء حاجته وتدبير أمره المهم على كل حال أن المائة ألف روبل، عدا ونقدا، التي ألمحت اليها ناستاسيا فيليبوفنا ساخرة، وغامضة كل الغموض، قد أمكن جمعها قروضا بفوائد باهظة تبلغ من الفداحة أن بيسكوب نفسه كان يستحي أن يتحدث فيها مع كندر الا همسا وكما حدث بعد الظهر من ذلك اليوم، كان روجويين يتقدم عصبته ويسير في طليعتها، وكان رجاله يمشون وراءه، مدركين لتفوقهم، شاعرين مع ذلك بشيء من الحاشية وكانت ناستاسيا فليوفنا هي التي يخشونها خاصة، لا يدري الا الله لماذا حتى لقد كان بعضهم يتصور أنهم سوف يرمون إلى أسفل السلم وكان زاليوجيف، المغوى الأنيق، واحدا من هؤلاء غير أن بينهم رجالا آخرين، ولا سيما صاحب القبضتين الجارتين، كانوا في قرارة أنفسهم يحتقرون ناستاسيا فيليبوفنا احتقارا مطلقا، بل وكانوا يكرهونها كرها شديدا، وكانوا يشعرون أنهم انما ذهبوا إلى بيتها ذهابهم إلى مدينة محاصرة ومع ذلك فان الترف العظيم الذي رأوه في الحجرتين الأولين، وجميع هذه الأشياء التي لم يتح لهم طوال حياتهم حتى أن يحلموا بمثلها، والأثاث النادر واللوحات الجميلة وتمثال فينوس الكبير، كل هذا قد أحدث في نفوسهم احتراما لا سبيل إلى مغالبته، بل وأحدث في

نفوسهم ما يشبه الخوف على أن هذا لم يمنعهم طبعا من أن يتسللوا إلى الصالون وراء روجويين قليلا، بفضول وقح، رغم ما شعروا به من خوف ولكن حين رأي صاحب القبضتين الضخمتين والسائل، وبضعة أشخاص آخرون، حين رأوا الجنرال ايانشين بين المدعوين، خارت قواهم حتى هموا أن ينسحبوا إلى الغرفة المجاورة، الا واحدا منهم هو ليبديف الذي لم يتزعزع، حتى لقد كان يمشي مع روجويين جنبا إلى جنب تقريبا، لادرا كه قيمة مبلغ هو مليون واربعمائة ألف روبل يحمل روجويين بيده منه مليونا كاملا يحسن أن نلاحظ مع ذلك أن الجميع، ومنهم لبديف العارف بالقانون، كانوا لا يدر كون حدود سلطتهم على وجه الدقة، ولا يعلمون هل كل شيء مباح لهم الآن حقا أم هو غير مباح ففي بعض اللحظات كان ليديف مستعدا لأن يحلف أن كل شيء مباح، وفي لحظات أخرى كان ينتابه قلق ويشعر بالحاجة إلى أن يتذكر بعض مواد القانون استعدادا للطواريء ولا سيما المواد التي تشجع وتطمئن أما الأثر الذي أحدثه صالون ناستاسيا فيديوفنا في نفس روجويين فكان مختلفا عن الأثر الذي أحدثه في نفوس أصحابه كل الاختلاف فانه ما أن أزيحت الستارة أمامه، فأبصر ناستاسيا فيليبوفنا، حتى أصبح كل ما عداها لا وجود له في عالمه، كما حدث له هذا بعد الظهر، غير أنه حدث الآن على نحو أتم وأكمل واصفر وجهه وتوقف لحظة من الوقت ان المرء يستطيع أن يتصور

شدة خفقان قلبه حدق إلى ناستاسيا فيليبوفنا بضع لحظات، وجل الهيئة زائغ العقل،لا يحول عنها بصره ثم اقترب من المائدة فجأة كمن فقد عقله وهو يكاد يترنح، فاصطدم أثناء خطوه بكرسى بنشين وداس بحذاءيه الوسخين شريط الدانتيلا الذي يزين حافة الثوب الأزرق المترف الباذخ الذي ترتديه الألمانية الصامتة الرائعة الجمال فلم يعتذر عن ذلك، بل ولم يلاحظه فلما دنا من المائدة وضع عليها شيئا غريبا كان قد دخل به ممسكا اياه بيديه كلتيهما هو حزمة سميكة من ورق، يبلغ علوها نحو اثنى عشر سنتيمترا ويبلغ طولها نحو ستة عشر؛ قد لفت بعدد من أعداد جريدة أنباء البورصة وأحكم ربطها بخيط متين وضع روجويين الحزمة على المائدة، ووقف، ولبث على هذه الحال متهدل الذراعين لا ينطق بكلمة واحدة، كالمتهم الذي ينتظر صدور حكم المحكمة لم تتغير ثيابه التي كان يرتديها بعد الظهر، فيما عدا منديل من حرير أخضر وأحمر معقود حول عنقه بدبوس ضخم من الماس على شكل فراشة، وفيما عدا خاتم كبير له فص ضخم من ماس تزدان به اصبع متسخة من أصابع يده اليمنى وكان ليبديف قد توقف على مسافة بضع خطوات من المائدة أما الآخرون فكانوا ، يتسللون إلى الصالون قليلا قليلا وقد هرعت كاتيا وباشا، خادمتا ناستاسيا فيليبوفنا، هرعتا هما أيضا، وأخذنا تلقيان من وراء الستارة نظرات مبهوتة قلقة قالت ناستاسيا فيليبوفا

تسأل روجويين بعد أن تفرست فيه محدقة مستطلعة، قالت تسأله وهي توميء بعينها إلى الشيء:ما هذا؟ فأجاب روجويين يقول بما يشبه أن يكون زفرة مائة الف وفي بوعده مع ذلك هل رأيتم؟ اجلس من فضلك، هنا، على هذا الكرسى سأقول لك شيئا بعد قليل من هؤلاء الذين جئت بهم؟ كل العصبية التي كانت معك بعد الظهر؟ طيب، فليدخلوا يستطيعون أن يجلسوا على ذلك الديوان هناك، وعلى هذا الديوان الآخر، وعلى هذين المقعدين ماذا ينتظرون؟ ما بالهم لا يدخلون؟ ألا يريدون أن يدخلوا؟

كان بعضهم قد شعروا بالوجل فعلا، فانسحبوا إلى الغرفة المجاورة واستقروا بها ينتظرون الأحداث، ولكن بعضا آخر بقوا فجلسوا حيث دعوا إلى الجلوس، مؤثرين مع ذلك أن يظلوا بعيدين عن المائدة، لا سيما في الأركان، فمنهم من لا يزال يرغب في الامحاء فعلا، ومنهم من كان يسترد جرأته بسرعة تفوق الحد الطبيعي وجلس روجويين على الكرسي الذي عينته له هو أيضا لكنه لم يبق جالسا مدة طويلة، فما لبث أن عاد ينهض ولم يجلس بعد ذلك وشيئا فشيئا أخذ يميز المدعوين ويتصفح وجوههم فلما رأى جانيا ابتسم ابتسامة مسمومة ودمدم يقول بينه وبين نفسه هه ولاحظ وجود الجنرال ووجود آتانازى ايفانوفتش فلم يضطرب أي اضطراب، بل ولم يشعر

بأي استغراب ولكنه حين أبصر الأمير إلى جانب ناستاسيا فيلسوفنا لبث مدة طويلة لا يستطيع أن يحول عنه نظرته المدهوشة، وكأنه عاجز عن أن يعلل لنفسه هذا اللقاء ان من يراه يحس في بعض اللحظات أنه يعانى نوبة هذيان حقا فهو،عدا الانفعالات التي كابدها طوال هذا اليوم، كان قد قضى الليلة الماضية كلها في القطار، ولم يكن قد نام خلال ثمان وأربعين ساعة تقريبا قالت ناستاسيا فيليوفنا وهي تلتفت نحو ضيوفها وقد ظهر في وجهها تحد زاخر بتململ محموم يا سادة، هذه مائة ألف روبل هنا، في هذه الحزمة القذرة: ان هذا الرجل الذي ترون قد صرخ يقول كالمجنون بعد الظهر من هذا اليوم انه سيجيئي في المساء بمائة ألف روبل، وقد انتظرته انه يجيئنى بالمال ليشترينى بدأ بثمانية عشر ألف، ثم ارتفع بوثبة واحدة إلى أربعين ألفا، ثم ارتفع أخيرا إلى المائة ألف التي ترون لقد وفي بوعده على كل حال هيه ما أشد اصفرار وجهه حدث هذا كله منذ مدة قصيرة في بيت جانيتشكا ذهبت إلى الأسرة التي كانت ستصير أسرتي، ذهبت أزور أمه، فاذا بأخته تصرخ في وجهي قائلة هل يمكن ألا يكون هناك أحد يخرج هذه الوقحة؟ ورمت وجه أخيها بصقة في الوقت نفسه قوية الشكيمة قال الجنرال بلهجة العتب، وقد أخذ يفهم القضية قليلا على طريقته اما ناستاسيا فيليبوفنا فقالت ناستاسيا ماذا يا جنرال؟ أتراك تعد كلامى هذا غير لائق؟ كفانى تمثيلا لقد

ظللت سنين، في شرفتي من المسرح الفرنسي، أعرض نفسي مثالا للفضيلة التي لا سبيل إلى الاقتراب منها، وظللت أفر كالمتوحشة من جميع أولئك الذين كانوا يلاحقون ويطاردونى، وظللت اصطنع هيئة البراءة المتكبرة المتعالية، فما كان ذلك كله الا سخافة وجنونا انظر لقد جاء رغم ذلك، رغم تلك السنين الخمس التي قضيتها متمسكة بأهداب الفضيلة، جاء يضع المائة ألف روبل على المائدة؛ ولا شك في أنهم أعدوا عربات الترويكا، وأن العربات تنتظرني لقد قدر لي سعرا هو مائة ألف روبل يا جانيتشكا، أرى أنك ما تزال غاضبا مني ولكن هل صحيح أنك أردت أن تدخلني في أسرتك، أنا التي أصلح لأمثال روجويين، ألم تسمع ما قاله الأمير منذ قليل؟ تمتم الأمير بصوت مختلج أنا لم أقل انك تصلحين لروجويين؛ أنت لم تخلقي لمثل رو جويى.

انفجرت داريا ألكسيفنا تقول فجأة ناستاسيا فيليوفنا كفى يا عزيزتي كفى يا يمامتى اذا صح أنك أصبحت لا تطيقينهم، فما الذي يحملك على مداراتهم؟ ولكن هل من الممكن أن تقبلى الرحيل مع هذا الرجل، ولو في سبيل مائة ألف روبل؟ صحيح أن مائة ألف روبل ليست شيئا يسيرا ولكن ما عليك الا أن تأخذيها، هذه المائة ألف روبل، ثم تتخلصي من الرجل الذي قدمها اليك ذلك ما يجب فعله مع

أمثال هؤلاء الناس لو كنت في مكانك عرفت كيف أسايرهم جميعا كانت داريا ألكسيفنا قد بلغت حد الغضب انها امرأة طيبة القلب، سريعة التأثر قالت لها ناستاسيا فيليبوفنا مبتسمة لا تغضبى يا داريا ألكسيفنا لقد كلمت جانيا دون غضب هل وجهت اليه أي لوم؟ صحيح أني لا أستطيع أن أفهم الآن كيف أمكن أن أبلغ من الغباء حد الطمع في الدخول إلى أسرة كريمة شريفة لقد رأيت أمه، وقبلت يدها أما عن سلوكي في بيتك يا جانيتشكا فقد تعمدته تعمدا، من أجل أن أدرك، مرة أخيرة، المدى الذي يمكن أن تمضى اليه: وائي لأعترف لك بأنك أثرت دهشتي كنت أتوقع أشياء كثيرة لكنني لم أتوقع هذا كيف تريد أن تزوجني وأنت تعلم أنه قدم إلى اللآلىء كتلك اللآلىء عشية زواجك تقريبا، وانني قبلت أخذها؟ وروجويين؟ انه في بيتك نفسه، أمام أمك وأختك، انما ساوم على ورغم ذلك جئت تطلبني للزواج، حتى تكاد تصطحب اختك أصحيح اذن ما قاله عنك روجون من أنك مستعد في سيل ثلاثة روبلات أن تزحف منبطحا على بطنك حتى جزيرة فاسيلفسكى؟قال روجويين فجأة بصوت خافت، ولكن بلهجة فيها اقتناع كامل انه مستعد أن يفعل ذلك وتابعت ناستاسيا فيليبوفنا كلامها تقول لو كنت تموت جوعا لعذر تك ولكن يظهر أنك تقبض رواتب طيبة ثم انك، عدا العار، لا ترفض أن تتزوج امرأة تكرهها ذلك أنك تكرهني، فأنا أعرف ذلك حق المعرفة لا، لا، انني

مستعدة لأن أصدق الآن أن رجلا مثلك يمكن أن يقتل في سبيل أن يحصل على مال هذا شأن جميع الناس الآن انهم ظامئون إلى المال ظمأ يفقدهم عقولهم حتى الأطفال يحلمون بأن يكونوا مرابين؛ أو هم يأخذون سكينة فيلفونها بحرير، ويتسلون بهدوء ورفق وراء رفيق لهم ليذبحوه كما يذبح خروف قرأت عن هذا حديثا يمكن أن توصف بأنك رجل لا حياء له وأنا أيضا امرأة بغير حياء، ولكنك أسوأ مني أما صاحب باقة الأزهار، فلا أتكلم عنه الآن هتف الجنرال يقول آسف أشد الأسف أأنت من أسمع ياناستاسيا فيليبوفنا؟ أتقولين مثل هذا الكلام، أنت ذات الشعور الرقيق، والفكر المرهف؟ ما هذه اللغة؟

ما هذه التعابير؟ أخذت ناستاسيا فيليوفنا تضحك قائلة أنا الآن سكرى يا جنرال، أحب أن ألهو وأقصف ان هذا اليوم يومي، هو يوم عيدى، هو يوم فرحي الذي انتظرته طويلا يا داريا ألكسيفنا، انك ترينه، ذلك السيد، صاحب أزهار الكاميليا، الذي يضحك هناك، الذي يضحك منا أنا لا أضحك يا ناستاسيا فيليبوفنا أنا لا أزيد على أن أصغى بأكبر انتباه كذلك رد توتسكى على ناستاسيا فيليوفنا بوقار ورصانة وتابعت ناستاسيا كلامها تقول: انك ترينه لماذا عذبته طوال خمس سنين دون أن أرد اليه حريته؟ هل كان يستحق مني ذلك العناء كله؟ انه ما يجب أن يكون، لا أكثر من ذلك ولا أقل ولسوف

يحكم على بأنني أنا المذنبة في حقه لقد ضمن لى تنشئة راقية وتربية عالية وعالني كما تعال كونتيسة، وما أكثر ما أنفق فى سبيلى من مال حتى لقد عثر لي هناك على رجل شريف ليتزوجني، وعثر لي هنا على جانيتشكا وفوق ذلك كله، هل تصدقين أنني لم أعاشره خلال تلك السنين الخمس كلها، وانما كنت اخذ ماله وأظنني صاحبة حق فيه؟ إلى هذا الحد اختلطت في عقلى الأمور تقولين لي أن على أن أخذ المائة ألف روبل وأن أطرد هذا الشاب الذي يهديها إلى اذا كنت أشمئز منه الحق أنني أشمئز.. لقد كان في وسعي أن أتزوج، منذ زمن طويل وكان في وسعي أن أتزوج رجلا خيرا من جانيا، ولكن ذلك أيضا كان يثير اشمئزازى لماذا قضيت إذن هذه السنين الخمس أشحذ كرهي وأغذى بغضى؟ هل تصدقين أننى بلغت حد التساؤل أحيانا منذ أربع سنين:

ـ لماذا لا أتزوج صاحبى اتانازى ايفانوفتش؟ كان ذلك يخطر ببالي من قبيل الحقد والشر الله يعلم ما الذي كان يجول في فكري حينذاك وكنت أستطيع طبعا أن أجبره على أن يتزوجني هو نفسه كان لا يرجو خيرا من ذلك، هل تصدقين؟ صحيح أنه كان يكذب ولكنه كان ملتهبا فلا يطيق صبرا أحمد الله على أنني قد أتيح لي أن أفكر فانتهيت إلى أنه لا يستحق مني كل ذلك الكره؟ فبلغت عندئذ من شدة الاشمئزاز

منه أنني لو طلب أن يتزوجني لرفضته واستمر ذلك التمثيل خمس سنين لا، لا، من الأفضل أن أنزل الي الشارع، فهناك مكانى أو أن ألهو وأقصف مع روجويين، أو أن أعمل غسالة منذ الغد ذلك أن كل ما أحمله ليس ملكى، فاذا انصرفت رميت له كل شيء، كل شيء، حتى آخر خرقة، ومن ذا الذي يمكن أن يريدني بعد ذلك، بعد أن أصبح فقيرة معدمة؟ اسألى جانيا هل يريدني بعد أن أفعل هـذا؟ حتى فردشتينكو لن يقبل قاطعها فردشتينكو قائلا جائز ألا يرغب فيك فردشتينكو اني رجل صريح ولكن في مقابل ذلك، يمكن أن يتزوجك الأمير في هذه الحالة انك الآن تشتكين، فهلا نظرت إلى الأمير اني أراقبه منذ مدة طويلة التفتت ناستاسيا فيديوفنا إلى الأمير مستطلعة وسألته: أهذا صحيح؟ فقال الأمير لاهثا: صحيح أتتزوجني كما أنا، بدون شيء؟ نعم يا ناستاسيا فيليبوفنا دمدم الجنرال يقول وهذا شيء جديد كان يمكن أن نتوقع ذلك وحدا الأمير بنظرة قاسية أليمة نافذة إلى وجه ناستاسيا التي ماتزال تتفرس فيه قالت وهي تلتفت نحو داريا ألكسيفنا من جديد هذا شخص آخر يتقدم وانه ليفعل راضيا، أنا أعرف ذلك لقد وجدت محسنا، وان يكن صحيحا في أغلب الظن ما يقال من أنه قليلا ولكن بأي مورد تقدر أن تعيش يا أمير اذا بلغ بك الحب مبلغ اتخاذ زوجة لك، أنا التي أصلح لمثل روجويين؟ قال الأمير أنا أعدك امرأة صالحة شريفة يا ناستاسيا فيلسوفنا، وأنت لا

تصلحين لروجويين ولا خلقت لمثله أنا؟ أنا امرأة صالحة شريفة؟ أنا أنت أوه هذا كلام خيالى مستمد من الروايات هذه حكايات قديمة يا أمير، يا صديقى لقد أصبح الناس في هذه الأيام أعظم ذكاء وأشد فطنة، وما ذلك كله الا سفاسف وترهات ثم أي زوج عساك تكون أنت الذي ما تزال في حاجة إلى مربية تعنى بأمرك؟ نهض الأمير وقال بصوت مختلج وجل، ولكن بلهجة تعبر في الوقت نفسه عن اقتناع عميق أنا لا أعرف شيئا يا ناستاسيا فليوفنا أنا لم أر شيئا انك على حق ولكنني أعتقد أنك أنت التي تسبغين على شرفا اذا ارتضيتني زوجة أنا لست شيئا أما أنت فأنت قد تألمت، وأنت قد خرجت طاهرة نقية من جحيم كهذا الجحيم وذلك شيء كثير لماذا تشعرين بالعار وتريدين أن ترحلى مع روجوين؟ انها الحمى لقد رددت إلى السيد توتسكى السبعين ألف روبل، وأنت تقولين انك ستتركيننه كل شيء، كل ما هو موجود في هذا المكان ما من أحد هنا قادر على أن يفعل ما تفعلين انى يا ناستاسيا فيديوفنا انى أحبك أنا مستعد لأن أموت في سبيلك يا ناستاسيا فيلسوفنا لن أسمح لأحد أن يقول فيك كلمة سوء يا ناستاسيا فيليوفنا واذا كنا فقيرين، فلسوف أعمل يا ناستاسيا فيليبوفنا هنا سمع صوت فردشتينكو وليديف يضحكان ساخرين واستاء الجنرال نفسه فأصدر هذا الصوت هم، ولم يستطع بتسين وتوتسكى أن يمتنعا عن التبسم، ولكنهما لم يلبثا أن كبحا

ابتسامتهما أما سائر الحضور فكانوا فاغرى الأفواه من الدهشة وتابع الأمير يقول بذلك الصوت الرجل نفسه ولكن من الجائز ألا نكون فقيرين البتة، بل غنيين جدا يا ناستاسيا فيليبوفنا على أنني لست متأكدا من شيء يؤسفني انني لم أستطع حتى الآن أن أعرف شيئا طوال هذا اليوم، ولكنني تلقيت وأنا بسويسرا رسالة من موسكو بعث بها إلى رجل اسمه السيد سالازكين، وفيها يبلغني أن على أن أطالب بحقى في ميراث يظهر أنه ضخم جدا اليك الرسالة وأخرج الأمير من جيبه رسالة بالفعل دمدم الجنرال يقول أليس هذا هذيانة؟ أترانا في مستشفى مجانين؟ وخيم الصمت لحظة سأل بتسين هل قلت ان الرسالة قد بعثها اليك سالازكين يا أمير؟ هذا رجل معروف جدا في بيئتنا، هو رجل مشهور من رجال الأعمال، فاذا صح أنه هو الذي بعث اليك بهذه الرسالة، فان في وسعك أن تق به كل الثقة، وأن تطمئن اليه كل الاطمئان من حسن الحظ أنني أعرف توقيعه، فقد كان لي عمل معه في الآونة الأخيرة فاذا سمحت لي أن ألقى على الرسالة نظرة فقد أضيء لك الأمر مد الأمير اليه الظرف صامتا، بيد مرتعشة وانتفض الجنرال قائلا وهو يلقى على الحضور نظرة مبهوتة ماذا؟ ماذا؟ أميراث حقا؟ وانصبت جميع الأنظار على بتشين بينما هو يقرأ الرسالة لقد ألهبت الرسالة فضول الحاضرين بنار جديدة أصبح فردشتينكو لا يستطيع الاستقرار في مكانه وصعق روجويين فهو يلقي

نظرات حائرة مضطربا قلقا على الأمير تارة وعلى بتسين تارة أخرى، وينقل بصره بينهما بغير توقف وأصبحت داريا ألكسيفنا أثناء هذا الانتظار كالجالسة على ابر ونفد صبر ليبديف نفسه فترك ركنه، وحني جسمه نصفين يحاول أن يقرأ الرسالة من فوق كتف بتسين، وكأنه يتوقع أن يصفع صفعة قوية من لحظة إلى أخرى معاقبة له على فضوله.

الفصل الثالث عشر

ان بتسين أخيرا وهو يطوى الرسالة ويردها إلى مع الأمير، أعلن يقول: هذه قضية مؤكدة سوف ترث، دون القيام بأي مسعى خاص، ثروة طائلة جدا، الت اليك من خالتك في وصية لا مجال للطعن فيها على الاطلاق صاح الجنرال يقول غير معقول وكان انطلاق صيحته أشبه بدوي انفجار ولبث الآخرون فاغرى الأفواه من التعجب عندئذ أخذ بتسين يشرح الأمر، مخاطبة ايفان فيدوروفتش خاصة، فقال ان للأمير خالة ماتت منذ خمسة أشهر، هي الأخت الكبرى لأمه، ولكن الأمير لا يعرفها معرفة شخصية ولم يرها في يوم من الأيام؛ وهي من أسرة بابوشين، وكان أبوها تاجرا من الطبقة الثالثة بموسكو، أفلس ثم مات فقيرا معوزا؛ وكان الأخ الأكبر لهذا الرجل، وقد مات منذ مدة قصيرة، يحتل مكانة عالية في عالم التجارة فلما مات ابناه منذ سنة في غضون شهر واحد، مرض من شدة الحزن مرضا شديدا ومات وكان أرمل، وليس له الا وريث واحد هو ابنة أخيه، خالة الأمير، التي كانت امرأة فقيرة جدا تعيش في بيت أناس غرباء وحين آل اليها هذا الميراث كانت مصابة بداء الاستسقاء وكانت تحتضر

لكنها أسرعت تكلف سالازكين بأن يبحث عن الأمير، حتى لقد اتسع وقتها لأن تكتب وصيتها ويبدو أنه لا الأمير ولا الطبيب الذي كان ضيفا عليه بسويسرا أرادا أن ينتظرا الابلاغ الرسمي أو أن يعمدا إلى التثبت من الأمر:

ـ وانما وضع الأمير الرسالة في جيبه وقرر أن يجيء إلى روسيا وختم بين كلامه مخاطبة الأمير فقال الشيء الوحيد الذي أستطيع أن أقوله لك هو أن هذا الأمر كله لا بد أن يكون ثابتا لا جدال فيه لا من جهة الواقع ولا من جهة الحق، وان في امكانك أن تعد أقوال سالازكين في هذا الموضوع بمثابة مال في جيبك أهنئك يا أمير من الجائز أن تنال أنت أيضا مليون ونصف مليون، ان لم يكن أكثر من ذلك لقد كان بابوشكين واسع الثراء جار فردشتينكو يقول مرحى لأخر رجل من سلالة الأمراء ميشكين وأعول ليديف يقول بصوت مخمور أبح مرحي وقال الجنرال مصعوقا من الدهشة وأنا الذي أقرضته خمسة وعشرين روبلا كما يقرض رجل بائس ها ها ها أمر أغرب من الخيال طيب تهاني يا عزيزى، تهانى قال الجنرال ذلك ونهض متجها نحو الأمير ليقبله واقتدى به آخرون فاسرعوا يحدقون جميعا بالأمير وحتى أولئك الذين كانوا قد انسحبوا إلى الغرفة المجاورة أخذوا يظهرون في الصالون من جديد وقامت

ضوضاء مضطربة، فمن أحاديث مبهمة، إلى صيحات تعجب، بل والى صرخات نداء تطالب بشامبانيا وأخذ الحضور يتزاحمون ويصدم بعضهم بعضا كأنما أصابتهم جميعا حمى حتى لقد كادوا ينسون ناستاسيا فليوفنا خلال برهة من الوقت، وكادوا ينسون أنها سيدة في بيتها رغم كل شيء، ولكنهم تذكروا شيئا بعد شيء، في وقت واحد على وجه التقريب، أن الأمير قد عرض عليها منذ هنيهة أن يتزوجها فاذا بهذا التذكر يفاقم الحالة ويجعل الوضع أشد امعانا في الجنون وقد دهش توتسكى أعمق الدهشة، لكنه كان لا يزيد على أن يرفع كتفيه، حتى ليكاد يكون الشخص الوحيد الذي ظل جالسا أما الأخرون فقد كانوا جميعا يحتشدون حول المائدة فوضى ولقد أكدوا فيما بعد أن ناستاسيا فيليبوفنا انما فقدت عقلها في تلك البرهة كانت ناستاسيا فيليبوفنا قد لبثت جالسة، وظلت بعض الوقت تجيل على الحضور نظرة غريبة مدهوشة، كأنها لم تفهم ما حدث، فهي تبذل جهودا كبيرة من أجل أن تدركه ثم التفتت إلى الأمير فجأة، فحدقت اليه بانتباه، عابسة مهددة ولكن ذلك لم يدم الا لحظة قصيرة فلعلها قد ظنت أن الأمر لم يكن الا مزاحا أو سخرية، حتى اذا رأت الأمير تخلصت من ذلك الوهم بسرعة، وعادت إلى الوجوم والتفكير؛ وها هي ذي الآن تبتسم وكأنها لا تعرف كثيرا لماذا تبتسم ودمدمت تقول بلهجة ساخرة اذن سأصبح أميرة حقا

وألقت نظرة على داريا ألكسيفنا دون ارادة منها، ثم انفجرت تضحك وتابعت كلامها فقالت هذه خاتمة لم تكن في الحسبان ليس هذا ما كنت أتوقعه هيه أيها السادة ما بالكم تظلون واقفين، هلا تفضلتم فجلستم وهنأتمونا أنا والأمير يخيل إلى أن أحدا قد طلب شامبانيا هلا أصدرت أوامرك يافردشتينكو؟ يا كاتيا، ويا باشا هكذا نادت خادمتيها حين لمحتهما فجأة على الباب تقدما الى سوف أتزوج، هل سمعتما؟ سوف أتزوج الأمير، انه يملك مليون ونصف مليون؛ هو الأمير ميشكين، وسوف يتزوجني هتفت داريا ألكسيفنا تقول وقد هزتها هذه الأحداث هزة عميقة وليكن الله معك لقد آن الأوان تابعت ناستاسيا فيليبوفنا كلامها طيب يا أمير اجلس بقربى، هنا، واليك الشمبانيا وها يا سادة، اشربوا نخب صحتنا أعولت أصوات كثيرة تهتف مرحي واحتشد عدد كبير من الحضور حول زجاجات الشمبانيا، واحتشد حولها خاصة جميع أفراد عصبة روجويين على وجه التقريب غير أن كثيرا من الحضور قد أحسوا، رغم صراخهم، ورغم استعدادهم لمزيد من الصراخ، أن الجو قد أخذ يتغير، على ما كان في الأحداث من غموض وابهام؛ واضطرب بعضهم فبدأ ينتظر التتمة مرتابا قلقا؛ وتهامس بعضهم يقول ان الحالة عادية جدا، وان الأمراء كثيرة ما يتزوج احدهم أية امرأة حتى لقد يتزوج فتاة غجرية يختطفها اختطافا أما روجويين فقد كان جامدا ساكنا

يراقب المشهد وقد انعقف وجهه حيران وجاء الجنرال إلى الأمير خلسة من جانب، وهمس يقول له مرتعبا وهو يشده من كمه يا أمير، يا عزيزى، ثب إلى رشدك فرأته ناستاسيا فيديوفنا وسمعت كلماته، فاذا هي تنفجر ضاحكة ضحكا مجلجلا، وتقول: لا يا جنرال، أنا نفسي الآن أميرة، سمعت ذلك بأذنبك، ولن يسمح الأمير الآن بأى أهانه يا آتانازى ايفانوفتش، أنت على الأقل هشنى سوف أستطيع بعد الآن أن أجلس في كل مكان إلى جانب زوجتك ما رأيك؟ أليس لمثل هذا الزوج نفع؟ مليون ونصف مليون وهو عدا ذلك أمير وفوق هذا كله يقال أنه أبله فهل هناك ما هو خير من ذلك؟

الآن انما ستبدأ الحياة حقا فات الأوان يا روجويين، جئت متأخرا خذ حزمتك سوف أتزوج الأمير أنا أغنى منك لكن روجويين كان قد أدرك أخيرا ما يجرى فارتسمت على وجهه علامات ألم لا سبيل إلى مغالبته، وضم يديه احداهما إلى الأخرى متضرعا، وأفلتت من صدره أنة توجع، ثم هتف يقول للأمير تنازل عن طلبك فأخذ الحضور يضحكون من حوله وانبرت داريا ألكسيفنا تجيب منتصرة يتنازل لك أنت طبعا، أليس كذلك؟ انظروا إلى هذا الفلاح الذي يلقى ماله على المائدة أن الأمير يتخذها زوجة له، أما أنت فتجيء الفضيحة أنا أيضا أتزوجها فورا في هذه اللحظة وسوف أدفع كل شيء قالت

داريا ألكسيفنا مستاءة انظروا إلى هذا السكران الخارج من الخمارة يجب أن يطرد واشتد الضحك فقالت ناستاسيا فيلسوفنا وهي تلتفت نحو الأمير هل تسمع يا أمير؟ انظر كيف يساوم فلاح ليشترى خطبته قال الأمير انه سكران، وهو يحبك كثيرا ألن تخجل من أن خطيتك قد أوشكت أن تهرب مع روجويين؟ كنت تعانين من حمى وما تزالين، فكأنك كنت تهذين. ألن تخجل أيضا حين يقال لك في المستقبل ان زوجتك كان يعولها توتسكى خليلة له؟ لا، لن أخجل أن ذلك لم يحدث بارادتك ألن تأخذ على هذا الأمر في يوم من الأيام؟ أبدا انتبه لا تورط نفسك على مدى الحياة قال الأمير برفق وهـدوء، وبعاطفة تشبه أن تكون شفقة ناستاسيا فيديوفنا، لقد قلت لك منذ لحظة انني أعد موافقتك شرفا الى، وانك أنت التي تشرفيننى، لا العكس وقد ابتسمت أنت لأقوالى هذه، وسمعت من حولي ضحكات جائز أن تعبيري كان مضحكا جدا، وأنني كنت أنا نفسي مضحكا جدا، لكنني أعتقد بأنني أفهم أين هو الشرف، وأنا على يقين من أني قلت الحقيقة منذ قليل، كنت تريدين أن تضيعي نفسك تضييعا لا عودة منه ولا رجعة عنه، لأنك لو فعلت لاغفرت لنفسك ذلك السلوك في يوم من الأيـام وأنت مع ذلك لم تأتمى في شيء يستحيل أن تكون حياتك قد ضاعت ضياعا تاما ما قيمة أن يكون روجويين قد سعى اليك، وما قيمة أن يكون جبريل آردالیونتش قد حاول أن يخدعك؟

علام العودة إلى هذا بغير انقطاع؟ أن ما فعلته أنت لا يقدر عليه الا قليل من الناس، أكرر لك هذا أما الرحيل مع روجويين فقد اتخذت فيه قرارات وأنت مريضة وانك ما تزالين مريضه إلى الآن، وما تزالين تعانين من حمى، وخير ما يمكن أن تفعليه في هذه اللحظة هو أن تمضى إلى فراشك فتنامي ولو قد تبعت روجويين لتركته منذ الغداة ومضيت تعملين غسالة انك ذات كبرياء وشمم يا ناستاسيا فيليبوفنا؛ ولسوف أعتني بك وأسهر عليك في هذا الصباح، حين رأيت صورتك، أحسست أني أرى وجها أعرفه لقد شعرت فورا بأنك قد سبق أن ناديتنى سوف أحترمك كثيرا يا ناستاسيا فيليوفنا بهذا ختم الأمير كلامه بغتة على غير توقع، واحمر وجهه حين تذكر نوع الناس الذين كان يتكلم أمامهم وكان بتسين قد خفض رأسه حياء، وأطرق إلى الأرض وقال توتسكى بينه وبين نفسه: هو أبله، نعم، لكنه يعرف أن لا شيء يساوى المديح يعرف هذا بالفطرة ولا حظ الأمير أيضا ما كان من شرر في نظرة جانيا الذي كان يحدجه من ركنه حانقا كأنه يريد أن يحيله رمادا وهتفت داريا ألكسيفنا تقول وقد فاضت نفسها عاطفة وحنانا هذا ما يسمى قلبا طيبا ودمدم الجنرال يقول بصوت خافت رجل مثقف، لكنه ضائع وقالت ناستاسيا فيلسوفنا شكرا يا أمير؛ ما من أحد قال لى مثل هذا الكلام حتى الآن كانوا يضعون لي سعرا ويحددون لي ثمنا، ولكن ما من رجل شريف طلبني

للزواج في يوم من الأيام هل سمعته يا آتانازى ايفانوفتش؟ ماهو الأثر الذي أحدثته في نفسك كلمات الأمير؟ أغلب الظن أنك تجد هذا كله يكاد يكون بعيدا عن اللياقة والحشمة؟ يا روجوبين،انتظر لحظة على كل حال، لا أرى أنك تنوي الانصراف ما يزال من الجائز أن أرحل معك إلى أين كنت تريد أن تأخذني؟ فقال ليبديف من الركن الذي هو فيه إلى ايكاتيرنهوف بينما لم يزد روجوبين على أن ارتعش، وكان ينظر بكل عينيه وكأنه لا يصدق أذنيه كان مصعوقا كمن ضرب على رأسه بغتة وهتفت داريا ألكسيفنا تقول مروعة ما هذا الذي تقولينه يا عزيزي؟ أتراك جننت؟ فصاحت ناستاسيا فيليبوفنا تقول وقد انفجرت ضاحكة ونهضت واثبه هل أخذت كلامى مأخذ الجد اذن؟ أأنا أرضى أن أضيع حياة برىء؟ ذلك أمر خليق بأن يفعله آتانازى ايفانوفتش فهو امرؤ يحب أن يفسد على الأبرياء حياتهم هلم نرحل يا روجوبين هيىء حزمة الأوراق المالية ليس أمرا هاما أن تريد أن تتزوجنى حسبك أن تدفع مالا ومن الجائز ألا أقبل أن أتزوجك هل تصورت أن تقدم لي الزواج وأن تحتفظ لنفسك بالمال؟

ـ لست غبيا إلى هذا الحد أنا أيضا قليلة الحياء خالعة العذار لقد كنت خليلة توتسكى أعاشره سفاحا يا أمير، أنت الآن في حاجة إلى آجلايا ايبانتشين لا إلى ناستاسيا فيليبوفناه ولو ارتكبت هذه

الحماقة لأصبحت مضغة في الأفواه، وأشار اليك باصبعه حتى رجل مثل فردشتينكو أأنت لا تخشى ذلك؟ ولكنني أنا أخاف أن أكون سبب ضياعك، وأخاف أن تلومني على هذا في المستقبل أما ما تقوله عن الشرف الذي أسبغه عليك اذا أنا تزوجتك، فان توتسكى يعرف من أمر هذا الشرف ما يجب أن يعرف أما أنت يا جانيتشكا فقد خسرت اجلا يا ايبانتشين هل تعلم ذلك؟

لولا أنك ساومت معه، لتزوجتك حتما هكذا أنتم جميعا ينبغي لكم أن تختاروا بين المرأة الشريفة والغانية البغي، وليس ثمة خيار آخر فان لم تفعلوا ذلك تحيرتم وارتبكتم واختلطت أموركم انظروا إلى الجنرال كيف ما يزال فاغرا فاه قال الجنرال مرد دا وهو يرفع منكبيه هذه مدينة سدوم، هذه مدينة سدوم كان الجنرال قد نهض هو أيضا وكان جميع الحضور قد وقفوا على كل حال وكانت ناستاسيا كمن جن جنونها قال الأمير في أنين وهو يلوي يديه حسرة ولوعة أهذا ممكن؟ فردت ناستاسيا فيليبوفنا تقول أكنت تظنه مستحيلا؟ قد أكون أنا نفسي ذات كبرياء وشمم، مهما أكن قليلة الحياء خالعة العذار لقد قلت منذ هنيهة انني امرأة كاملة يا لهذه المرأة الكاملة التي تلقى بنفسها في الوحل لا لشيء الا أن تفخر بأنها ركلت بالقدمين مليونا ولقب أمير أأنا أصلح لك زوجة بعد هذا؟ يا آتانازى ايفانوفتش، لقد

رميت المليون من النافذة فعلا، فكيف أمكنك أن تتصور أني سأعد نفسي سعيدة بأن أتزوج جانيتشكا مدفوعة إلى ذلك باغراء الخمسة وسبعين ألف روبل التي تدفعها؟ خذها، خذ روبلاتك البالغة خمسة وسبعين ألفا يا آتانازى ايفانوفتش انك لم توصلها حتى الى مائة ألف، فتفوق عليك روجويين، أما جانيتشكا فسوف أتولى مواساته بنفسي لقد خطرت ببالي فكرة والآن أريد أن ألهو وأقصف ألست من بنات الشوارع؟ قضيت عشر سنين في سجن وقد آن لي أن أصبح سعيدة هلم يا روجويين، هيء نفسك لنرحل فزار روجويين يقول وقد كاد يجن فرحا لنرحل هيه أنتم نريد خمر أف هئ خمر سوف أشرب وهل سنسمع موسيقى؟ نعم، سنسمع موسيقى، سنسمع موسيقى كذلك أجاب روجويين، فلما رأى داريا الكسسيفنا تتقدم نحو ناستاسيا فيليوفنا، جأر يتابع كلامه قائلا لا تقتربي لا تقتربي انها لي أنا كل شيء لي أنا هي ملكتى انتهى الأمر كان يختنق فرحا وكان يدور حول ناستاسيا فليوفنا صارخا يقول لكل واحد لا تقترب وقد تجمعت عصبته كلها في الصالون فبعضهم يشرب، وبعضهم يصرخ ويضحك ضحكة صاخبة، وجميهم مهتاج يشعر بفرح غامر وكان فردشتينكو يحاول منذ ذلك الحين أن يجد له مكانا بينهم وتحرك الجنرال وتوتسكى مرة أخرى يريدان أن ينسحبا وكان جانيا قد حمل قبعته بيده هو أيضا، لكنه ظل أخرس لا ينطق بحرف، وظل

جامدا لا يتحرك، كأنه عاجز عن انتزاع نفسه من المشهد الذي يجرى أمامه لا تقترب كذلك كان يجأر روجويين فانفجرت ناستاسيا تضحك وتقول له مابالك تعول هذا العويل؟

ـ أنا ما زلت فى دارى سيدة نفسي تكفى اشارة واحدة مني حتى تطرد شر طردة أنا لم آخذ مالك بعد ما يزال المال في مكانه هاته الى هنا أعطني الحزمة كلها أهذه الحزمة هي التي تضم مائة ألف روبل؟ فظاعة ولكن ماذا بك يا داريا ألكسيفنا؟ أكان يجب على حقا أن أفسد حياته؟ سألت هذا السؤال وهي تومى إلى الأمير كيف يمكنه أن يتزوج وهو ما يزال في حاجة إلى مربية أطفال؟ سوف ينوب الجنرال عن مربية أطفال، سوف يقوم له بهذا الدور انظري كيف يحوم حوله ويدلله انظر يا أمير: أن خطيتك قد أخذت المال لأنها مومس، وأنت كنت تريد أن تتزوجها ولكن ما بالك تبكي؟ أتجد في هذا مرارة شديدة؟

أضحك مثلى كذلك تابعت ناستاسيا فيليبوفنا كلامها وقد تلألأت على خديها، هي أيضا، دمعتان كبيرتان وواصلت تقول اتكل على الزمن سوف ينقضى كل شيء لأن يغير المرء رأيه الآن خير من أن يغيره في المستقبل ولكن ما بالكم تبكون جميعا: هذه كاتيا قد أخذت تذرف الدموع هي أيضا لماذا تبكين يا كاتيا، يا صغيرتي؟ سوف

أترك لكما أنت وباشا أشياء كثيرة لقد اتخذت لهذا الأمر ما يجب اتخاذه من تدابير والآن، وداعا أنت الفتاة الشريفة، كنت أجبرك على أن تخدميني أنا العاهرة هذا أفضل يا أمير حقا هذا أفضل والا فسوف تحتقرني في النهاية، فلا تحقق لنا سعادة لا تحلف الأيمان المغلظة، فلن أصدقك ما كان أسخف أن أوافق على أن نتزوج لا يا أمير، أن الأفضل أن نفترق على صداقة، لأني أنا أيضا حالمة، فلو تزوجنا لما كان في ذلك أي خير ألم أحلم بك أنا أيضا؟ انك على حق لقد حلمت بك زمنا طويلا، منذ أن كنت بالريف، عنده قضيت هناك خمس سنين، وحيدة تماما فكنت أنتقل من خواطر إلى خواطر، ومن أحلام إلى أحلام، حتى وصلت إلى تصور رجل مثلك، طيب، شريف، رقيق، غبي بعض الغباء أيضا، يؤنبني على حين فجأة فيقول لي: ما أنت بأئمة يا ناستاسيا فيلسوفنا انني أحبك وأعبدك نعم كنت استرسل في الأحلام أحيانا إلى درجة الجنون فاذا بهذا الرجل يصل، ليقصى شهرا أو شهرين كل عام، ثم يتركنى مهانة ملطخة الشرف بالعار مهتاجة مدنسة أردت ألف مرة أن ألقى بنفسي في الغدير، لكنني كنت جبانة، فأعوزتني الشجاعة والآن، أأنت مستعد يا روجويين؟

كل شيء مهيأ ورددت عدة أصوات تقول كل شيء مهيأ وعربات

الترويكا تنتظر تحت، مع أجراسها تناولت ناستاسيا فيليوفنا حزمة الأوراق المالية بيديها وقالت يا جانيا، خطرت ببالي فكرة أريد أن أعرض عليك خسارتك لماذا ينبغي أن تفقد كل شيء؟ يا روجويين، هل تعتقد أنه مستعد أن يزحف منبطحا حتى فاسيلفسكى فى سبيل ثلاثة روبـلات؟ نعم، انه مستعد أن يزحف منبطحا فاسمع اذن يا جانبا أريد أن أتأمل نفسك مرة أخيرا لقد عذبتنى طوال ثلاثة أشهر وجاء الآن دورى أنا هل ترى هذه الحزمة؟ انها تضم مائة ألف روبل سوف أرميها في الموقد، على مرأى من جميع الحضور، ليكونوا كلهم شهودا فمتى أمسكت النار بها من كل جهة، فأسرع أنت إلى الموقد، ولكن بدون قفازين، بل عاري اليدين، وشمر كمك واستل الحزمة من النار فاذا أفلحت في ذلك كانت المائة ألف روبل لك أنت لن يكون عليك الا أن تتحرق أصابعك قليلا، ولكن المكافأة مائة ألف روبل، فكر في الأمر هل يستغرق استلالها وقتا طويلا؟ لا وفي أثناء ذلك سيتاح لي أن أعجب بنبل نفسك وعلو همتك، بينما أنت تنشل مالي من النار الجميع شهود على أن المال سيكون مالك أنت أما اذا لم تنشل أنت الحزمة من النار فسوف تحترق الحزمة ولن أسمح لأحد بأن ينتشلها ابتعدوا جميعا إلى وراء إلى وراء المال مالي أنا هو ثمن ليلتي مع روجويين هل هذا المال مالي أنا يا روجويين؟ لك أنت يا فرحتي، لك أنت يا ملكتي فابتعدوا اذن إلى وراء،ابتعدوا

كلكم، أنا أفعل ما أشـاء، لا تضايقونى يا فردشتينكو،حرك النار لتوريها فأجابها فردشتينكو يقول مصعوقا لا تطاوعني يداى يا ناستاسيا فيليوفنا فهتفت ناستاسيا فيلسوفنا تقول طيب، طيب وأمسكت الملقط، فحركت الجمر، حتى اذا ارتفعت ألسنة اللهب رمت الحزمة في الموقده صرخ الجميع، حتى أن كثيرين منهم رسموا على أنفسهم اشارة الصليب وارتفع من جميع الجهات صباح يهتف مجنونة، مجنونة وهمس الجنرال في اذن بتسين قائلا أليس الأفضل أن نوثقها بالحبال؟

أو أن نستدعى هي مجنونة، أليس كذلك؟ مجنونة حقا؟ فأجابه بتسين بصوت خافت، شاحب الوجه مرتعش الجسم عاجزا عن تحويل بصره عن الحزمة التي أخذت النار تمسك بها لا ليس هذا بالجنون تماما فاتجه الجنرال عندئذ إلى توتسكى يسأله مجنونة، أليست مجنونة؟ فدمدم ايفانوفتش يقول شاحب الوجه هو أيضا ألم أقل لك انها امرأة طريفة؟ مائة ألف روبل وسمعت من جميع الجهات صيحات تقول يا لطيف يا رب احتشد الحضور جميعا قرب الموقد، يحاولون جميعا أن يروا، ويطلقون جميعا صيحات الدهشة حتى لقد اعتلى بعضهم كراسى وراح ينظر من فوق رءوس الأخرين وكانت دار يا ألكسيفنا قد أسرعت إلى الغرفة المجاورة مروعة الهيئة توشوش

كاتيا وباشا وكانت الألمانية الجميلة قد ولت هاربة جار ليبديف قائلا وهو يزحف على ركبتيه أمام ناستاسيا فيليبوفنا، ويمد ذراعيه نحو الموقد مانوشكا ايتها الملكة القادرة على كل شيء هذه مائة ألف روبل مائة ألف رأيتها بعيني، حزمت أمامي مانتوشكا الرحيمة مرينى فارمى جسمي كله في الموقد، وأضع في النار رأسى الأشيب ان عندي امرأة مريضة فاقدة الساقين وثلاثة عشر طفلا هم جميعا يتامى لقد دفنت أبي في الأسبوع الماضي انهم يتضورون جوعا ناستاسيا فليوفنا كذلك زأزأ ليبديف، وأخذ يزحف نحو الموقد فصرخت ناستاسيا فليوفنا تقول وهي تدفعه: فر إلى وراء ابتعدوا جميعا ماذا تنتظر با جانيا؟

ـ لا تستح هلم هذه فرصتك لكن جانيا كان قد تحمل كثيرا خلال ذلك النهار وتلك الليلة، ولم يكن قد تهيأ لهذا الامتحان الأخير الذي لا يتوقع انشطار الحشد أمامه شطرين، فاذا جانيا يصبح قبالة ناستاسيا فليوفنا وجها لوجه، على مسافة ثلاث خطوات كانت واقفة عند الموقد تنتظر، دون أن تحول عنه نظرتها الملتهبة الثابتة ان جانيا يقف الآن برداء الفراك، حاملا قبعته بيديه، صامتا لا يجيب ولا يتحرك، عاقدا ذراعيه على صدره، يتأمل اللهب وكانت ابتسامة تائهة تطوف بوجهه الشاحب شحوبا شديدا صحيح أنه كان لا يستطيع أن

يحول عينيه عن النار، وعن الحزمة التي أخذت تسود، غير أن شيئا جديدا كان يبدو أنه اجتاح نفسه واستولى عليها لكأنه حلف ليحتملن التعذيب حتى النهاية، فهو لا يبدي حراكا؛ حتى أصبح واضحا للجميع بعد بضع لحظات أنه لن ينتشل الحزمة من النار، أنه لا يريد ذلك وكانت ناستاسيا اليوفنا تصرخ قائلة له ستحترق الحزمة، فتكون أنت الملوم؛ ولتشنقن نفسك حزنا وكمدا بعد ذلك لست أمزح ان النار التي نبعت في أول الأمر من بين حطبتين خامدتين قد بدا عليها بعد ذلك أنها أخذت تنطفىء تحت وطأة الحزمة غير أن لهبا رقيقا أزرق ما يزال عالقا بطرف من الحطبة وأخيرا جاءت شرارة دقيقة طويلة تمس الحزمة، ثم تجري على طوال الورقة التي تلفها حتى زواياها، ثم اذا بالنار تمسك الحزمة كلها فجأة، فيخرج منها لهب ساطع واذا بالحضور جميعا يصيحون عاد ليديف يعول قائلا وهو يتجه نحو الموقد من جديد مانوشكا ولكن روجويين أمسكه ودفعه ولم يكن روجويين نفسه الا نظرة جامدة كان لا يستطيع أن يحول بصره عن ناستاسيا فيليبوفنا وكان يشعر من ذلك بنشوة وسكره كان في السماء السابعة كان يهتف قائلا وقد جن جنونه ثملا هذه ملكة حقا هذه من بلدنا فعلا من منكم، يا عصابة من أوغاد، يستطيع أن يفعل مثل الذي تفعل؟

وكان الأمير يراقب المشهد حزينا صامتا قال فردشتينكو مقترحا أنتشلها بأسنانى اذا كوفت بورقة واحدة قيمتها ألف روبل فجأر الرجل ذو القبضتين الضخمتين الذي كان واقفا وراء الجميع، جار يقول وقد اعترته نوبة كرب هائلة أنا مستعد أن أنتشلها بأسناني أيضا ثم صاح يقول وقد رأى اللهب انها تحترق سوف يحترق كل شيء وهتف الجميع بصوت واحد أخذت تحترق أخذت تحترق واندفع الجميع تقريبا نحو الموقد قالت ناستاسيا جانيا لا داعي إلى التحرج لا تستح أقول لك هذا اخر مرة أعول فردشتينكو قائلا وهو يهجم على جانيا كالمسعور ويشده من كمه هلم أيها المتبجج سوف يحترق المال أوه نحس تصدى جانيا لفردشتينكو فدفعه عنه بكل قواه، واستدار، ومشي نحو الباب، لكنه ما آن خطا خطوتين حتى ترنح وسقط على الأرض فصاح الحضور يقولون اغماء وعاد ليبديف يزعق ضارعا مانوشكا سوف تحترق وزار الحشد من كل جهة سوف تحترق بلا سبب وصرخت ناستاسيا فليبوفنا منادية يا كاتيا، يا باشا، جيئا بماء، وجائتا بخمر ثم أمسكت الملقط، وانتشلت الحزمة كانت الورقة التي تلف الحزمة قد احترقت كلها تقريبا وهلكت، ولكن أمكن أن يرى فورا أن ما بداخلها لم يمسسه أذى كانت الحزمة ملفوفة بثلاث صحائف من ورق الجرائد، وكان المال سليما تنفس الجميع الصعداء قال ليبديف بحنان:

ـ لعل ورقة واحدة بألف روبل قد فسدت، ذلك في أكثر تقدير أما الباقي فسليم لم يمسسه سوء هتفت ناستاسيا معلنة وهي تضع الحزمة قرب جانيا هذه الأموال كلها له الحزمة كلها له هل تسمعون كلامي يا سادة؟ لقد ملك من القوة ما أتاح له ألا يأخذها لقد صمد هذا دليل على أن كبرياءه ما تزال أكبر من جشعه لا تقلقوا، سوف يفيق من اغمائه ولولا أنه قد أغمي عليه لكان من الممكن أن يقتلني هه، ها هو ذا يفيق منذ الآن يا جنرال، يا ايفان بتروفتش، يا داريا ألكسيفنا، يا كاتيا، يا باشا، يا روجويين، هل سمعتموني؟ أن الحزمة كلها له، له هو، لجانيا أهديها اليه وأملكه اياها، تعويضا له عما لا أدري قولوا له ذلك فلتبق الحزمة بقربه يا روجويين هلم، سر وداعا يا أمير،هذه أول مرة أرى فيها كائنا انسانيا وداعا، آتانازى ايفانوفتش وشكرا وسارت عصبة روجويين كلها نحو باب الخروج بضجة وصخب وضوضاء وصراخ يدوي في البيت كله، سارت تتبع روجويين وناستاسيا فيليوفنا وفي القاعة ألبستها كاتيا وباشا معطفها؛ وهرعت الطباخة مارتا من مطبخها فقبلتهن ناستاسيا فيليبوفنا جميعا سألنها وهن يبكين ويقبلن يديها هل يمكن يا ماتوشكا أن تتركينى حقا؟ وإلى أين عساك تذهبين؟ وفي يوم عيد ميلادك، في يوم كهذا اليوم؟ أذهب إلى الشارع يا كانيا، سمعت ذلك هناك مكاني الا أن أعمل غسالة سئمت اتانازى ايفانوفتش أبلغنه سلامى، ولا تظنن بى سوءا وهرع

الأمير نحو باب الخروج كان الجميع قد أخذوا يستقرون في عربات الترويكا الأربع التي كانت أجراسها تتحرك بغير انقطاع واستطاع الجنرال أن يدركه في السلم قال له وهو يمسك ذراعه ما هذا يا أمير؟

ـ ثب إلى عقلك اتركها لقد رأيت كيف هي أقول لك هذا قول أب نظر اليه الأمير ولكن دون أن يقول كلمة واحدة ثم انتزع ذراعه منه، وهبط السلم راكضا واستطاع الجنرال وهو واقف على درجات المدخل الذي بارحته عربات الترويكا منذ هنيهة، استطاع أن يرى الأمير يثب إلى أول مركبة ويصبح مهيبا بالحوذى إلى ايكاتر نهوف اتبع عربات الترويكا ، ثم وقفت مركبة الجنرال الفخمة أمام درجات المدخل، فركبها، ومضى إلى منزله بآمال جديدة وحسابات جديدة، وبعقد اللآليء الذي حاذر أن ينساه وفي وسط تلك الحسابات، تراءت له صورة ناستاسيا فيليوفنا الفنانة الأخاذة مرة أو مرتين فتنهد يقول: خسارة، خسارة حقا امرأة ضائعة مجنونة نعم ولكن ما أصبح الأمير يحتاج اليه الآن ليس امرأة مثل ناستاسيا فليوفنا فلعل من الخير أن جرت الأمور هذا المجرى وان أقوالا فيها عبر هذه العبر تقريبا قد نطق بها شخصان آخران من ضيوف ناستاسيا فيليبوفنا قررا أن يسيرا مع بضع خطوات فقد قال ايفان بتروفتش

بتسين يخاطب آتانازى ايفانوفتش هل تعلم يا آتانازى ايفانوفتش؟ يظهر أن في بلاد اليابان تقاليد من هذا النوع: يذهب الشخص المهان إلى الشخص الذي أهانه فيقول له أنت أهنتني فلذلك جئتك الآن أبقر بطني أمامك ثم يبقر بطنه على مرأى من الشخص الذي أهانه، ولعله يشعر بارتياح كبير ورضى عظيم كأنه انتقم لنفسه فعلا ما أكثر الطبائع العجيبة في هذا العالم يا آتانازى ايفانوفتش فأجابه اتانازى ايفانوفتش مبتسما فأنت ترى اذن أن شيئا من هذا القبيل هو ما حدث الآن هم أمر فكه على كل حال وتشبيه بديع ولكنك رأيت بنفسك ياصديقي العزيز جدا ايفان بتروفتش انني قد فعلت من جهتي كل ما كان في وسعى أن أفعله لا يمكنني أن أفعل المستحيل على كل حال يجب أن توافقني على هذا، ولكن يجب أن توافقني أيضا على أن هذه المرأة كانت لها مواهب رفيعة، وميزات ساطعة لو استطعت، منذ قليل، أن أجيز لنفسي، وسط مدينة سدوم تلك، أن أفصح عما يدور في خاطري، لوددت أن أجيبها بقولي انها هي نفسها أكبر مبرر وأعظم مسوغ لي تجاه جميع تلك التهم من ذا الذي يمكنه ألا تغويه هذه المرأة في بعض الأحيان إلى حد يفقد معه عقله وسائر ما عدا ذلك؟ انظر إلى ذلك الجلف روجويين الذي أتاها بمائة ألف روبل هبه كل ما حدث هناك منذ قليل عرضا طارئا، واندفاعة رومانسية لا داعى اليه، لكنه في مقابل ذلك غنى بالألوان، طريف

أعظم الطرافة عليك أن تعترف بهذا آه حين أفكر فيما كان يمكن أن يخرج من اجتماع طبع كهذا الطبع وجمال كهذا الجمال لكن كل شيء ضاع، رغم جميع جهودي، بل ورغم كل ما هيأته لها من أسباب التربية والثقافة هى ماسة لم يمكن صقلها قلت ذلك غير مرة قال آتانازى ايفانوفتش ذلك، وزفر زفرة عميقة.

المحتويات

الفصل الأول 5
الفصل الثاني 25
الفصل الثالث 124
الفصل الرابع 144
الفصل الخامس 165
الفصل السادس 188
الفصل السابع 204
الفصل الثامن 215
الفصل التاسع 229

الفصل العاشر 245

الفصل الحادي عشر 265

الفصل الثاني عشر 286

الفصل الثالث عشر 305